أ د. عقيل حسين عقيل

منابِعُ الأمل

تأليف

أ د. عقيل خسين عقيل

القاهرة 2017

المحتويات

المقدِّمةُ..... 6

منابعُ الأمل 11

الأملُ صُنع:..... 18

الأخلاق رفعة: 28

التهيّؤ يقظة: 33

التهيّؤ في مواجهة التهيؤ:..... 38

مكوِّنات التهيّؤ 42

تهيّؤ مادّي عقلي:..... 42

تهيّؤ مادّي نفسي: 42

الإرادةُ تمكين: 44

العُدّةُ تجويد: 51

الاستعداد حيطة:..... 60

الاستعداد الذهني: 63

الاستعداد النفسي:..... 65

الاستعداد البدني: 67

التأهُّب فطنة: 68

الدّونية تجاوز: 75

القيد تكسير: 84

الفكرة ولادة:..... 101

التكيّفُ موائمة: 116

التّوافق انسجام: 123

المكانة ترسيخ:..... 130

الممكنُ ارتقاء:..... 137

الصّعب تحدّي:..... 145

الاقتداء اتباع: 149

الأهداف إنجاز: 155

الغايات بلوغ: 158

الاختلاف قبول: 163

الخلافُ تفادي: 176

الذّاكرة تفطّين: 185

الحاضر تدبّر:..... 193

المستقبل صُنع: 199

المجهول معرفة: 206

الخوارق إبداع:..... 212

التّجادل حُجّة:..... 217

المستحيلُ خَلق: 228

المعجز نشوءا: 243

الممكنُ ارتقاء:..... 252

الارتقاء عمل: 262

المعلومة تصحيح: 265

الخوف حذر: 272

الحقوقُ ممارسة: 293

الواجباتُ أداء: 298

المسئولياتُ حمْل:..... 301

الاعترافُ نيل: 308

الاعتبارُ نيل: 314

التقديرُ نيل: 320

الاحترامُ نيل: 325

التقبّلُ نيلٌ: 331

الاستيعابُ احتواء: 336

الظّروفُ تفهّم: 343

الثّقةُ غرس: 347

صدر للمؤلّف 355

مواضيع المؤلّفات 356

المؤلّف في سطور 367

المقدِّمةُ

الأملُ شعور نفسي حيث لا يأس ولا قنوط، وهو لم يكن الرّجاء ولا التفاؤل؛ ذلك لأنَّ الرّجاء توسّلي، وفيه من المطامع ما فيه، ومن يتكئ عليه يجد نفسه معتمدا على غيره؛ ممّا يجعله على استعداد لتقديم التنازلات رجاء.

أمّا التفاؤل Optimism: فهو انطباع توقّعي استبشاري لمستقبل ما، ولكن الاستبشار قد لا يزيد عن كونه انطباعا نفسيا مُرضيا لأصحابه، لأنّه لا يحتوي في مفهومه الإصرار والعزيمة على بلوغ المستبشر من أجله، ولذا فهو شعور لا يشترط عملا ولا جهدا يبذل.

أمّا الأمل: فله من المعطيات والمؤشّرات ما يثبت وجود المستهدف من ورائه، ولهذا فلم يكن شيئا متخيلا، بل احتمالات بلوغه في دائرة الممكن متوقّعة، وهو يستوجب عملا وجهدا يبذل في سبيل بلوغه مع تصميم وعزيمة دون يأس مع رسم الخطط الممكِّنة منه.

ولأنّه الأمل؛ فله من المنابع ما له قيم حميدة وفضائل خيّرة، والمنابع هنا هي التي يستمدّ الأمل منها، وهي المصادر التي لو لم تكن ما كان للأمل حوافز.

ولهذا؛ فالأمل لم يكن مجرّد شعورٍ في ذاته، بل هو ذلك الشّعور المملوء طموحا، وهو المرتبط بالزّمن وما يُسجّل في صفحات التاريخ، وهو المتعلّق بما يُمكِن إنجازه أو تحقيقه أو بلوغه، ومن هنا، يرسم المتفائلون خططهم واستراتيجياتهم ويعدّون لها العدة، ثمّ يتهيؤون لها ويتأهبون إقداما.

والحياة بلا أمل حياة بلا طموح وبلا مستقبل، فبدونه الحياة ملل، ويأس حيث لا مُحفّز على ما يُمكن أن تبذل الجهود من أجله؛ فالأمل هو الحيويّة التي تُمكّن من طي المسافة بين الرّغبة والغاية.

وهناك علاقة قويّة بين (الأمل والزّمن والممكن)؛ فمن حيث الزّمن لا أمل إلّا والزّمن وعائه، وهو كما يرتبط بالحاضر يرتبط بالمستقبل والماضي، ومن يظنّ أنّ الزّمن لا علاقة له بالماضي؛ فهو لم يعرف مرامي الأمل، فآدم عليه السّلام خُلق في الجنّة عندما كانت السّماوات والأرض رتقا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[1]، وهناك في الجنّة لا أمل لآدم؛ لكونه في مكان الأمل المتحقّق، ولكن بعد الانفتاق، أصبح آدم على قيد الحياة الدّنيا، بعد أن خسر تلك الجنّة، وحينها التفت آدم لنفسه والنّدم يملؤها، وحينها أصبح أمل آدم هو غايته؛ وأمله أن يعود لتلك الجنّة المفقودة ليعيش فيها كما خُلق فيها أوّل مرة. وهنا أصبح أمل آدم العودة إلى

[1] الأنبياء 30.

الماضي (إلى تلك الجنّة)، وهو لا يأمل شيء سوى العودة للماضي الذي فقده، ومن ثمّ؛ فلا علاقة لآدم بمستقبلٍ غير تلك الجنّة التي فيها خُلقَ نشوءا.

أمّا العلاقة بين الأمل والحاضر؛ فهي علاقة وجود آني بغاية العودة إلى ذلك الأمل الذي لا أمل من بعده، أو أنّه الأمل في زمن الانتظار إلى بلوغ المخبر عنه أو الذي تُرسم الخطط والاستراتيجية بشأنه، وهو ما سيكون في الزّمن المستقبل.

وهكذا فإنَّ للأمل علاقة بالممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فهو لو لم يكن ممكنا ما كان أملا، أي أنّ الأمل هو القابل للتحقّق عملا ونتيجة، ولأنّه كذلك؛ فهو المحدِث للنُقلة من حالة الأمل إلى حالة الفعل.

ولأنّه الأمل؛ فهو المستمدّ من منابعه التي يتولّد فيها فكرة من بعد فكرة، والأمل يتطوّر دون توقّف، وهو المتجاوز بأصحابه أسقف التفكير المحدودة إلى تلك التي تُفتح آفاقها أمام المتأملين في المشاهد والمجرّد حتى بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، والمعجز معجزا. كما أنّ الأمل في دائرة الممكن يتحدّى بالآملين الصّعاب، ويدفعهم إلى ما من شأنه أن يُمكّن من بلوغ أعمال الخوارق.

ومع أنَّ مفهوم الأمل من حيث المعني معلوم، ولكنّه من حيث الفعل فهو يرتدي ثوب التنكير، وسيظل منكرا حتى يفصح أصحاب الأمل عمّا يأملون، أي: سيظل الأمل في ذاته أملا حتى يتجسّد في غاية ما كان مأمول.

وعليه:

فإنّ هذا المؤلّف يتناول منابع الأمل التي تمدّ النّاس بما يُمكِّن من بلوغ المأمول سواء أكان في ذلك الماضي تاريخا وعبرا ومواعظ أو فضائل خيّرة وقيما حميدة، أم أنّه في الحاضر حُسن تدبّر وحُسن إدارة، وحُسن علاقات وعمل، أم أنّه كان في المستقبل غاية عظيمة لا تُبلغ إلّا بأملٍ عظيمٍ.

وفي هذا المؤلف علينا أن نميّز بين القيمة والمبدأ؛ فالقيمة هي ذلك المعنى المقدّر من قِبل النّاس وفقا للموروث الثّقافي والفكري المتطوّر عبر التاريخ، وهي من إنتاج العرف والعادة.

أمّا المبدأ فهو المؤسّس على القيمة، والمجسّد لها عملا وفعلا وسلوكا، ولهذا كانت المبادئ هي العناوين المقدّمة في جهدنا البحثي هذا، لأجل أن ترشد إلى ما يجب أن يُلتفت إليه عملا إذا أردنا أن نستمدّ أمالا تُحدث النُقلة، وتُسهم في صُنع المستقبل، وتُمكّن أصحابها من تحدّي الصّعاب وبلوغ أعمال الخوارق.

ولذلك تعدّ القيم منابع المعاني الرّاسخة في التاريخ، وتُعدّ المبادئ منابع الأفعال العظيمة التي تُمكّن من تحقيقها أفعال وأعمال وسلوكيات، وفي كلا الحالتين لا أمل إلّا من منابعها.

أ د. عقيل حسين عقيل

2017م

منابعُ الأمل

منابعُ الأمل هي تلك القيم والمبادئ ذات المعاني والمفاهيم التي يأمل النّاس سيادتها بينهم دلالة ومعني، وهي التي تتجسّد في الأفعال والأعمال والسّلوكيات وتحدث النُقلة إلى الأفضل والأفيد محبّة ونفعا، كما أنّها ترتقي بمن سادت بينهم إلى معرفة ما يَكمُن خلف المجرّد وكيفية كمونه.

إنّها نتاج الموروث الاجتماعي والإنساني المستمدّ من الأعراف والأديان ذات الفضائل الخيّرة التي تحفّز على الارتقاء وإحداث النُقلة إلى ما يحقق الإشباع المرضي، كما أنّها ترشد إلى ما يُمكّن من تجسيد القدوة الحسنة؛ التي تُقدّر الآخرين حتى تحظى بتقديرهم؛ فمنابع الأمل أساسها القيم الحميدة والفضائل الخيرة التي تمكّن من بلوغ الغايات، وهي التي تستوعب المتغيرات دون أن تحدث انتكاسات معرفية أو سلوكية.

فالقيم عندما تنتج المبادئ الأخلاقية قولا وفعلا وعملا وسلوكا تقود إلى تحقيق المأمول إرادة ورغبة، مع قبول الآخر واحترام خصوصيته التي بها يختلف عن الغير.

ولأنَّها القيم المرضية عن إرادة؛ فالمساس بها ليس بالأمر الهيّن، وهو أيضا لم يكن مستحيلا، ولهذا في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع كل شيء ممكن. ولأنّ كلّ شيء ممكن؛ فمنابع الأمل قابلة للتقويض،

متى ما تولى الأمر فاسد، أو دكتاتور أو محتل لا يُقدّر المقدَّر من قِبل النّاس الذين يتعلق الأمر بهم، فالقيم مع أنّها نتاج الإرادة والرّغبة والمنافع المشتركة، ولكنّ التمرّد عليها بإجراءات تعسّفية ممكن؛ فمن يتمكّن من سلب إرادة النّاس قهرا يتمكّن من تقويض القيم عبثا.

وعندما تستولي الأنا العابثة على أمر السّلطة الحاكمة، تصبح الأقوال غير الأفعال، حالها حال أحوَل العينين، الذي يلتفت إلى اتجاهٍ ما ليرى شيئا آخر في الاتجاه الآخر، فنلاحظ في بعض الأحيان أنّ أقوال الحاكم الفاسد تبدو وكأنّها مؤيّدة لفضائل وقيمٍ خيّرة، وفي المقابل أفعاله وأعماله تقوّضها من كلّ جانب؛ فالمفسد يدّعي الإصلاح حتى يظهر نفسه وكأنّه المنقذ.

والقيم مع أنّها منابع الأمل لكنّها تتعرّض للتقويض من قِبل المستبدّين، وهي متى ما قوّضت تبدّلت وتبدّل أصحابها؛ وعندما تستبدل القيم عن غير رغبة ولا إرادة يصبح النفاق سائدا على حساب الصّدق حتَّى تكاد لا تعرف الحقيقة مع قربها منك، وعندما يسود النفاق بين النَّاس بأسباب انعدام الثّقة، يصبح الكذب إلى جانبه سائدا جنبا إلى جنب مع التزوير والخيانة والغشّ وإباحة ممتلكات الدّولة.

ولأنَّ الفساد خروجٌ عمّا ترشد إليه منابع الأمل التي ارتضاها النَّاس عبر التَّاريخ رغبة وإرادة؛ فستظل المواجهة مع الفساد والفاسدين بين سرٍّ وعلانية ولكلٍّ ثمنه.

ولأنّ منابع الأمل نتاج جمعي؛ فالمواجهة معها إن حدثت ستكون مواجهة بين خصوص وعموم، ممّا يجعل ساعة الحسم بينهما ساعة مفاجئة فيها الفساد لن يكون أملا.

ولذا فعندما يُقصى ويُمنع المواطن من ممارسة حقوقه الوطنية يُدفع تطرّفا ليكون على رأس هرم العنف حتى وإن كان من قَبل على مستوى من مستوياته الدّنيا، وهكذا من يستهدف الشّعب بالتكميم والتغييب والإقصاء، سيجد نفسه طرفا معاديا للشّعب ومطاردا من قِبله.

منابع الأمل تربط الحاضر بالماضي بهدف استمداد العبر والمواعظ، وتربطه بالمستقبل بغرض إحداث النُقلة وغاية بلوغ الحلّ الذي لا تأزّم من بعده.

فمنابع الأمل قيما لم تكن مقادير كميّة، بل كيفية على الدّلالة والمعنى تجعل القدر لمن لم يكن له قدرا، فترفعه مكانة وقدوة حتى تجعل من رأسه رأس هيبة. وهذا لا يعني أنّها تعاليم تُلقّن؛ بل هي

القيم القابلة لأن تتجسّد في الفعل الإنساني عملا وسلوكا. إنّها منابع إحداث التغيير في الزّمن الآن ليكون المستقبل زمنا حاضرا.

فتلك القيم الحميدة التي جعلت من معانيها صفات لمتشربيها جعلتهم على المكانة والرّفعة؛ فمن يتشرّب قيمة العدل حتى يتّصف بها عادل، لا يختلف عمّن تجسّد الصّدق في قوله وفعله حتى أصبح الصّدق صفة لا تفارقه، أي من يتّصف بالعدل يوصف به عادلا، ومن يتّصف بالصّدق يوصف به صادقا، ولهذا فالناس متى ما تخالفوا أصبحوا في حاجة لِحَكمٍ عادلٍ وأناس صادقين لا يكتمون شهاداتهم، وهذا الأمر قد لا يتحقّق ما لم تتطابق قيمة العدل مع شخصية الحَكَم أو القاضي أو من كان شاهدا.

إذن في الوقت الذي فيه منابع الأمل تزيل المخاوف، هناك ما يُخيف ومن يخيف، فالحاكم غير العادل مُخيف لأنّه لم يأخذ بقيمة العدل، وهذا ما يتخالف مع ما يأمله النّاس؛ فالنّاس يأملون تطبيق العدالة، ولكن عندما يكون الحاكم على غير علاقة مع قيمة العدل فلا عدالة، وهنا تكمن العلّة التي تفصل النّاس عمّا يأملون.

أمّا الأمل؛ فهو الحيويّة المحفّزة للاندفاع تجاه كلّ ما من شأنه أن يُمكّن من بلوغ الغايات، وهو الحيويّة التي تصهر الرّغبة في الطّموح مع قبول تحدّي الصّعاب.

ومع أنّ الأمل بالنّسبة لبني آدم يرتبط بالمستقبل، ولكنّه بالنّسبة لآدم؛ فهو يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقا؛ فالأمل بالنّسبة لآدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فُقدت من قِبله في لحظة غفلة.

والأمل مع أنّه من حيث المفهوم واحد، ولكنّه من حيث الدّلالة ليس كذلك، ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وبين ماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون يقينا راسخا أنّ الجنّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍّ، أمّا الأمل فظل منقطعا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دُنيا.

ومن ثمّ فالأمل لا يقتصر على الزّمن المستقبل، بل الأمل يستوعب المستقبل مثلما يستوعب الماضي بالتمام، فآدم عليه السلام الذي خُلق في الجنة، ثمّ أهبط منها على الأرض إلى الحياة الدنيا بعد ارتكابه فعل الخطيئة ندم، وهو يأمل أن يعود إلى ذلك الماضي الذي فيه كلّ ما لذّ وطاب، والندم كان أكثر وضوحا في عقل آدم بعد أن أهبط به والأرض أرضا إلى الحياة الدنيا، ولهذا؛ فالأمل بالنّسبة لآدم لم يكن مرتبطا بمستقبل جديد، بل مرتبط بماضٍ يأمله. وهكذا كلّ من يفقد شيئا عظيما يأمل العودة إليه، فالذين

يُهجّرون من منازلهم وأوطانهم لا أمل لهم أكبر من أن يعودوا آمنين لبلدانهم وأوطانهم كما كانوا من قبل، وسيعملون ما في وسعهم من أجل العودة، بل سيقبلون دفع الثّمن ولو كانت أرواحا من أرواحهم.

وعليه، فالأمل يرتبط بالعمل أكثر من ارتباطه بالزّمن؛ فالزّمن متصل ولا فواصل فيه بالرّغم من الشّروق والغروب نتيجة حركة الأرض حول نفسها وحول الشّمس، وهذه لا تزيد عن كونها مواقيت حسابية، أمّا الزّمن فهو الزّمن شيء واحد متصل، وما الماضي والحاضر والمستقبل إلا تقسيم عددي بأسباب الشّروق والغروب.

ومع أنّ الأمل قيمة، ولكنّه ليس بمادي، فالمادي وإن كان من ورائه أمل فهو لا يُبلغ إلّا بمزيدٍ من الجهد، أمّا الأمل؛ فهو ما يخالج نفس الإنسان تجاه الشيء الذي لا يبلغ إلا بجهدٍ يبذل، ومن هنا؛ فالأمل محفّز نفسي بحيويّة الرّغبة تجاه الغايات، ولهذا فمن يفقد المكانة لن يكون له أمل سوى العودة إليها، وهكذا سيظل الصّعود للقمّة مطلبا وأملا لمن فقده مكانة.

فالمكانة التي لا تتحقّق إلّا بالعمل لن تُبلغ ما لم يكن الأمل من ورائها يُصنع، ولأنّ الأمل في اتجاه بلوغ الغايات لا يتحقّق إلّا عملا، فسيظل الأمل مفهوما لا معنى له ما لم ينعكس في جهود تبذل بقوّة الرّغبة والإرادة تجاه غايات تُمكّن من إشباع الحاجات

المتطوّرة. ولهذا فالأمل العظيم يستوجب بذل الجهد مع مقدرة على توليد الفكرة من الفكرة حتى لا يتمّ التوقّف عند حدّ معرفة المشاهد والقصور عن معرفة المجرّد، قال تعالى: {فانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[2]، أنزلت هذه الآية بدلالة التمعّن فيما تنظرون إليه من عجائب، والنّظر إلى العجائب يستوجب التفكير في الكيفية التي بها خُلقت العجائب، {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[3]، أي: يا بني آدم، لا تستوقفوا عقولكم عند المشاهد، بل مدّوا نظركم إلى الكيفية التي عليها وبها خلقت الأشياء؛ فالنّظر إلى الإبل والسّماء والجبال والأرض ضرورة، لكن الأعظم من ذلك النّظر إلى الكيفية التي بها خُلقت الإبل، والكيفية التي بها رُفعت السّماء، والكيفية التي بها نصبت الجبال، وسُطحت الأرض.

هذه الآيات أنزلت بلغة التعجّب (أفلا ينظرون)، فلو نظر بنو آدم لعرفوا، ولو عرفوا لتدبّروا، ولأنّهم لم ينظروا؛ فلن يتذكّروا ما يعظهم، ولن يتدبّروا ما يفيد أمرهم، ولن يفكّروا فيما يجب، وهنا يكمن القصور عمّا يحقّق الأمل.

---

[2] العنكبوت 20.

[3] الغاشية 17-18.

ولذلك، وجب التذكّر حتى لا تتكرّر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يُمكّن من معرفة الكيفية التي تُمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا، ومعرفة المعجز معجزا، ومعرفة الممكن ممكنا.

ولذا، لا ينبغي أن يكون التفكّر منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمّ، يعدّ التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، ممّا يخلق ارتباكا وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة؛ فالتفكّر ارتقاء لا يكون إلّا واقعا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له؛ فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه.

والتفكّر ارتقاء هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النّاس حياة فيها الآمال تتحقّق.

الأملُ صُنع:

ومع أنّ الإنسان ارتقاء خُلق مسيّرا في أحسن تقويم، لكنّه اختيار انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقية أخذته الصّحوة والحيرة لتملآ نفسه

ندما؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتمّ ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر وهو الهبوط به والأرض أرضا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقية، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاء.

فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقا، أصبح الارتقاء بالنّسبة له مجرّد أملٍ. ومع ذلك؛ فالأمل لا يتحقّق إلّا عملا؛ فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل؛ فلا ارتقاء.

ومع أنّ الأمل بالنّسبة لبني آدم يرتبط بالمستقبل، ولكنّه بالنّسبة لآدم؛ فهو يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقا، ولهذا؛ فالأمل بالنّسبة لآدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يُمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يُمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العلّية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل؛ فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاء.

ولذلك، ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا، أصبح الصّعود للقمّة مطلبا وأملا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[4]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك؛ فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

---

[4] الكهف 29.

فالإنسان ينبغي أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملا وعملا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه إرادة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاء.

فآدم بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفا للفطرة الخلقيّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: أنّ المنهي عنه، لا يكون إلّا لضررٍ، سواء أكان نفسيا، أم صحيّا، أم خُلقيّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة

المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه؛ ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنّة ارتقاء، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك؛ فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيلد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمّا وقع فيه من معصيّة، ومن ثمّ، ليس للإنسان إلّا أن يلتفت إلى نفسه استغفارا وتوبة تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه ارتقاء؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدّنيا لم يظلّ له أمل سوى أمل العودة إلى تلك الجنّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة.

ومع أنّ الزّمن في أذهاننا مقسّما بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، ولكن التفكير تدبّرا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا. ولذلك؛ فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم أنّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، ولكنّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطا دونيّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة لهما هي الأمل

المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن؛ فما يأمله آدم وبنوه المصلحين هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودا في الكون المرتق حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه، حيث لا مجال للشّروق والغروب، ولأنّه كذلك؛ فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيئا مسجّلا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرا في الزّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي ذات الوقت تعدّ نقطة نهايتها، وهنا، يعد الزّمن كلّه حاضرا، أمّا الأعمال في الزّمن؛ فهي الشّاهدة على من يقوم بها، ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرا.

ولذلك فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في ذات الوقت بالنّسبة لإنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك؛ فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا، نقول:

إنّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه؛ فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الورى، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءا وإبداعا منتج لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم قمّة.

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمّى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا يزيد عن كونه فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملا وارتقاء، وبين من خفّت موازنه انحدارا؛ حيث لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة. {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[5].

[5] العنكبوت 20.

يُفهم من هذه الآية، أنّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونا أوّلا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا؛ فأوّل المغتنمين لها استغفارا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن؛ فلا ارتقاء إلّا حيثما هي كائنة، ولأنّها قمّة كائنة وجودا؛ فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا، ومن هنا فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك؛ فالزّمن هو الزّمن؛ فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خطّة بحثية في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورا يوم تحديدها وصياغتها.

ولأنّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يُمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرّع بحركة إحداث النُقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا، لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في

حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضا.

ومن هنا، كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك حتى أسقط بها أرضا في الزّمن غير المتوقّع؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال: ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلا من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

هكذا هي الرّؤوس بلا أمل يُلعب بها، وهكذا هي الفئران تفكّر؛ فتنجو، ولذلك فالعيش بلا أمل ممكن، ولكن لا حياة بلا أمل، ذلك لأنّ الحياة لا تكون إلّا والأمل يملؤها، أمّا العيش فلا فرق فيه بين حيوان وإنسان، ولكن ما هي الحياة أمل؟ ومن هو الإنسان أمل؟

أقول:

الحياة الأمل هي التي لا يهدّدها الزّوال، وهذه لا تُبلغ إلّا إذا تجسّد الأمل عملا محفّزا بالرّغبة والإرادة. ولهذا فمن يعمل من أجل بلوغها يصنع لنفسه أملا لا يموت حتى يورّثه لمن خلفه.

أمّا الإنسان الأمل؛ فهو الذي يولِّد من الفكرة فكرة تخرجه ومن معه من التأزّمات وتصنع لهم مستقبلا يحدث لهم نقلة تمكّنهم من عمل الخوارق حتى يعرفوا أنّ المعجز معجز.

ولذلك فالواعون دائما هم السبّاقون والمبادرون بصناعة الأمل الذي يقرِّبهم من رتق الأرض بالسّماء ارتقاء.

الأخلاق رفعة:

الأخلاق قيمة حميدة يُرتفع بها عن الأفعال الدّونية، إلى الأعمال التي بها يتبوأ الأفراد المكانة الاجتماعية والإنسانية، حتى يتصفوا بها قدوة ورفعة وارتقاء، ولهذا فالأخلاق منبع الأمل الذي تأمله المجتمعات والشّعوب.

تعدّ الأخلاق نتاج القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف، بها يرتقي الإنسان قولا وفعلا وعملا ومعرفة وسلوكا من أجل علاقات اجتماعية وإنسانية مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

فالإنسان أساس خلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) وغايته الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب؛ ومع أنّ الأخلاق بيد النّاس، ولكن البعض يخسرها بلا ثمن.

ولذلك فالإنسان الأوّل (آدم) قد خُلق من تراب الجنّة؛ وظل على خَلقه سلالة بشرية تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان. ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم، حيث عدم التزامهما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشّجرة، {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[6].

ولهذا فالبقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصّلاة والسلام الذي خُلق في الجنّة خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا، وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة؛ فبعد أن تلقّى آدم كلماتٍ من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[7]، ومع ذلك

[6] البقرة 36.

[7] البقرة 37.

صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍ وارتقاء إلى سُفليّة ودونية، {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[8].

ولأنّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم؛ فهو خروج من الجنّة، حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاء، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلا لأداء مهمّة تربط أمرا بين السّماء والأرض، نحن نجهله، {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[9].

ولأنّها الأرض الدّنيا، وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذا فلا إمكانية لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة والنّاهية والآمرة والمحذّرة والمنذرة والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة، وذلك من أجل علاقات إنسانية تنظّم أساليب الحياة ارتقاء وتلفت المختلفين إلى ما يؤدّي إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُقلة وبلوغ القمّة.

---

[8] البقرة 38.

[9] القدر 3 . 5.

فأنزلت الرّسالات تأمر وتنهى، {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[10]. بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء كان آدم وزوجه في الجنّة ارتقاء، أم بعد أن أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارا، غير أنّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارا على الإنسان الأوّل (آدم) ومن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاء كاملا.

أمّا بعد الهبوط؛ فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك؛ فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة)؛ فظلّ هذا الدّرس شاهدا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة. أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذا فكيف لبني آدم من دخولها؟

أقول:

---

[10] البقرة 190.

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[11].

ولأنّ أمر الهبوط كان أمرا حاسما لمخالفة جرت في الجنّة؛ إذن: ألا يعد أمر الهابطين أمرا حاسما في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدّونية؟

أقول: قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[12].

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم؛ فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولذا وجب قول الحقّ وترك النّاس أحرارا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فوجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم (جهلا أو تعلّما)، وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء.

ولأنّ الأخلاق ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة؛ فالأخذ بها، لا شكّ أنّه يجعل الإنسان على المحبّة بدلا من أن يكون على الإكراه

---

[11] الأنعام 160.

[12] الزمر 53.

الذي لا يترك إلّا ألما، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[13]. أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[14]. لذلك، كان محمّد داعيا إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق ارتقاء؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة. إذا فمن أراد أن يكون قمّة؛ فعليه بالأخلاق الحميدة ارتقاء.

التهيّؤ يقظة:

التهيّؤ التفات الإنسان لنفسه وما يجب أن تلتفت إليه، وهو صّحوة العقل والفكر لما ينبغي أن يوليه اهتماما، به تتولّد الفكرة من الفكرة، والحُجّة من الحجّة، والبرهان من البرهان، إنّه منبع الأمل المولّد لقيمة التفاني في العمل والإخلاص فيه.

فالتهيّؤ يقظة بما يجب أن يتمّ الإعداد والاستعداد له قبل أن يأتي، وهو تحفُّز لإظهار الأمل المتهيئ للظهور، إنَّه الحالة التي يبدو عليها الإنسان في حالة امتداد تجاه الآخر في دائرة الممكن المتوقّع

[13] يونس 99.

[14] يونس 99.

وغير المتوقّع؛ فالتهيّؤ نضج طبيعي ونضج معرفي بما سيأتي لأن يُفعل، كنضج الثمار لأن تُجنى أو تُقطف، وكالبلوغ عند الإنسان الذي به يتهيأ للزّواج؛ وكالتهيّؤ للصّلاة والصّيام قبل أن يأتي موعدهما؛ فالتهيّؤ لا يتمّ إلا بمجموعة من التفاعلات المحفِّزة للقوى الكامنة في الأفراد قبل الاستعداد إرادة لفعل مخصوص؛ إنَّه الحركة بعد السّكون، واليقظة التي لا تغالبها الغفلة.

وهذا التهيّؤ ما هو إلا تجاذب بين المتوافقات والمتباينات في آن واحد، ممّا يجعل المتوافقات في أشدِّ حالات التلازم، والمتباينات في أقصى درجات الافتراق، وما بين التلازم والافتراق تصبح القوى الكامنة في حالة انتباه تجاه المرغوب فيه ممّا يجعل التهيّؤ بإرادة مرحلّةً متكاملة قبل الاستعداد والتأهُّب لأداء الفعل الذي كان مأمولا.

ولأن التهيّؤ قبلي؛ فهو الذي يسبق صورة الشيء قبل أن يصبح شيئا مفعولا، ولذا فلو لم يكن الشيء متهيئا للظهور ما كان ذلك الشيء ماثلا أمام المشاهدة والملاحظة؛ فالتهيّؤ هو المؤسّس للهيئة التي سيكون الشيء مصوَّرا عليها بالتمام؛ وكلُّ فعل لا يكون فعلا إلّا بعد أن يتهيأ ذلك الفعل في ذهن وعقل الذي سيفعله، فإذا أراد أحد أن يُظهر مشكلة بين النّاس لابدَّ أن يُهيئها للفعل، ومع ذلك لن تكون مشكلة إلّا إذا تهيأ لها فاعل بإرادة مع وافر الاستعداد ثم التأهّب لأجل الإقدام على أداء فعلها بسلوك على

أرض الواقع؛ فالإرهاب لو لم تتهيأ معطياته وظروفه وأفعاله في ذهن فاعليه ليكون بين النّاس مفعولا ما كان له وجود بينهم، وبعد أن وُجِدَ الإرهاب ظاهرة مهيأة لأن تتحقّق بالقوّة أصبح الأثر الإرهابي ذا وطأة على أنفس المرتهبين ممّا جعل أفعالهم تميل إلى التوازن والاعتدال بدلا من ميلها انحيازا بغير حقّ.

ولأنَّ التهيّؤ دائما يسبق إعداد العُدّة والفعل والسلوك والعمل، لذا فإنَّ صور المصنوعات لا تتحقّق على أرض الواقع إلّا بعد أن يكون لها هيئة في أذهان وعقول المبدعين لها، وعليه: لا يمكن أن يصنع الإنسان شيئا إلا بعد أن تتهيأ له صورته متكاملة؛ فالسكّين على سبيل المثال: لو لم تتهيأ صورته في عقل من صوَّره بعد تهيّؤ، ما كان السكّين على الصورة التي هو عليها دليل شاهد بين أيدينا؛ فقد تهيأ في عقل صانعه من حيث كونه صلبا ومتينا وحادّ أحد الطّرفين أو حادّا من طرفيه، وله مقبض يُمسك به من أجل وظيفة تؤدّى أو سلوكٍ يمارس أو فعلٍ يُفعل، وهكذا كلّ مصنوع لا يمكن أن يُصنع إلّا بعد تهيّؤه في ذهن العقل البشري، وكلّ فعل لا يُفعل إلّا بعد تهيّؤه في العقول، ولذلك فإنَّ أفعال الإرهاب لا يمكن أن تسبق تهيّؤاتها؛ فهي لو لم تكن قد تهيأت من قَبل في العقل البشري ما كانت أفعالا متحقِّقة على أرض الواقع، ولذا فبعد أن تنضج الفكرة تُرسم لها الخطط المنفّذة ممّا يجعل المتهيئ في حالة انتظار ارتكاب الفعل بعد استعداد وتأهُّب لفعله.

ولسائلٍ أن يسأل:

كيف يتهيّأ الإنسان لإظهار الأثر الإرهابي في أنفس الأعداء؟

مع أنَّ الإرهاب لم يكن مادّي الصورة حيث لا شكل ولا مظهر له سوى الأثر السلبي الذي يمسّ النّفس الإنسانية، إلا أنَّ أثره لا يكون سائدا في النّفس البشرية إلّا بعد الإعداد له إعدادا ماديا، أي: إعدادا لِما يُظهِره وليس إعدادا لإظهاره. ولهذا فالإرهاب تُظهره العُدّة المرهبة للنفس المخيفة التي تعتقد أنّه لا مخيف لها، فتتفاجأ بأنَّ هناك من يُرهبها عتادا وعُدّةً وتأهبا.

إذن يتهيّأ الإنسان لإظهار الأثر الإرهابي بالقوّة العقليّة التي بها يستطيع أن يُدرك أنَّ الخوف سيظل سائدا بين قوي وضعيف إلى أن يمتلك من كان ضعيفا القوّة المرهبة للذين يعتقدون أنَّهم يُخيفون ولا يخافون، وبامتلاكه القوّة عُدّة وعتادا واستعدادا واستيعابا مع وافر التدريب والمهارة يصبح ما وصل الإنسان إليه من قوّة مرهبة قادرا على إعادة التوازن بين الأنا والآخر دون سيادة للمظالم.

ومن هنا كان أمل البعض اكتساب القوّة القاهرة للإرهاب بغاية استتباب الأمن وإعادة التوازن، وهذا الأمر يستوجب إيقاظ القوّة العقلية ولفتها للمخاطر بهدف تجنّبها وتفادي أضرارها.

والتهيّؤ للفعل لا مكان فيه للتردُّد في نفس المتهيئ لأداء الفعل، ولا خوف في نفسه ممّا يجعل الإرادة مولِّد القوّة الدّافعة لتنفيذ الفعل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فدائرة الممكن هي دائرة تيسير الفعل أو تعسيره، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء الفعل أمر ميسَّر قد تواجهه صعاب تحول بينه وبين تنفيذه بنجاح، وكذلك إذا أحد من البشر يرى أنّ فعلا ما لا يمكن أن يُفعل، ولكن أقدم آخر على فعله بنجاح، يوصف هذا النجاح بأنّه نجاح غير متوقّع فعله، ولكن لو لم يكن ممكنا ما فُعل، ولهذا الأفعال في دائرة الممكن قابلة لأن تُفعل ولو تعسَّرت على البعض، ومن هنا تولد الخوارق من الخوارق.

فالتهيّؤ كونه إيقاظا عقليا؛ فهو يسبق القول والفعل والسّلوك والعمل؛ الذي بدونه لن يكون العمل أو الفعل إلّا وظيفة لا تؤدّى إلا بمقابل ولا تُقدَّر إلّا به؛ ممّا يجعل للإرادة مكانة تجعل التهيّؤ إيقاظا هو المحدِث للفعل والمحقِق للرّضا وإن كان على حساب الآخرين وما يحقّق لهم من طمأنينة، وفي مثل هذه الحالة وإن وُصِفَ الإرهاب من قِبَل الآخرين بما لا يتطابق مع مفهومه كما جاء في الكتاب الحكيم؛ فيظل هو المحقّق للتفاخر من قبل المقدِمين عليه إرادة.

ولأنّ الإرهاب فعل مقلق ولا إنسانية فيه فَلِمَ لا يلتفت العقل الإنساني يقظة إلى ما يُمكّن من تفاديه بسلام؟

قد يرى البعض أنّ هذا القول لا يزيد عن كونه أمنية، ولكن ألا يكون في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع أنَّ كلّ شيء ممكن؟ فالمعطيات التي جعلت العقل يتهيأ للفعل الإرهابي، ألا تجعله يتهيأ يقظة إلى الحياد عنه أو القضاء عليه؟

وعليه: التهيؤ يقظة يلفت الإنسان إلى أهمية خلقه في أحسن تقويم، ومن ثمّ يلفته إلى المحافظة على حسن تقويمه بما يتشرّبه من قيم حميدة وفضائل خيّرة تمكّنه من تقبّل الآخر (هو كما هو)، كما تمكّنه من احترامه وتقديره واعتباره واستيعابه وذلك بهدف غرس الثقة المتبادلة وبغاية صناعة الحاضر والمستقبل المأمول.

التهيّؤ في مواجهة التهيؤ:

ولأنَّ لكلِّ فعل ردّة فعل فكما يتمَّ التهيّؤ لأداء الأفعال؛ فكذلك يتمَّ التهيّؤ يقظة لمواجهتها، وكما تُرسم الخطط لتنفيذ الفعل كذلك تُرسم الخطط لمقاومة الفاعلين له، فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أفعال الإرهاب بإرادة في معظم الأحيان يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أفعال المرهِبين بإرادة همّ الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكل قوّة، أمَّا أولئك الموظفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ الإرهاب أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين بقدر ما تكون أيديهم على الزّناد مرتعشة في

حالة ما إذا كُتبت الحرب عليهم أو تمّ إعلان المواجهة بين الأنا والآخر ممّا يجعل أفعال المنفِّذين للإرهاب تبوء بالفشل كما تبوء به أفعال المقاومين له.

ولذلك فمن تهيّأ واستعدَّ لفعل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ يقظة لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا تُصحّح إلا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، إي: دائما عندما يتوفّر حُسن النيّة تكون المعلومة الصّائبة وحدها هي القادرة على تصحيح المعلومة الخاطئة، ولكن إذا لم تتوفّر النوايا الحسنة فستظل المعلومات دائما تحت أثر التزوير الذي به ينتشر الانحراف عن الحقائق.

إنّ الوقوف على حقيقة التهيّؤ وتهيُّأته التي يقوم عليها، تتوقّف على معرفة المصادر المغذية له، والفَلك الذي يدور فيه، فمدار فلكه يكمن بين العقل والقلب والرّوح والنفس، ومصادر تغذيته هي الأفكار والعواطف والانفعالات والغرائز بصرف النّظر عن سالبها وموجبها.

وكلما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا فإنَّ التهيّؤ لا يكون إلّا بمعطيات خَلقيّة وخُلقيّة، ومزيج من الوعي والمعلومات والأفكار، وما لها من علاقة وطيدة مع العواطف والأحاسيس؛ فالتهيّؤ في نفس العاقل هو حالة من انعكاس الإدراك على الشّعور الداخلي من قضية خارجية، والإنسان يمتلك مزيجا من القوى العقلية والجسمانية والرّوحية وهي في آنٍ واحدٍ تُعِدُّ حالته في لحظة التهيّؤ المطلق قبل الاستعداد لأيِّ فعل من خلال تناسق قوى العقل والجسد والرّوح لتكون متهيئة على البدء لأنْ تستعدّ للفعل متى شاءت وأينما شاءت في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وتُحدّد لحظة التهيّؤ يقظة من خلال العلاقة القائمة بين العقل والعواطف، إذ إنّ التهيّؤ لدى الإنسان يكمن في المساحة الحرّة بين العقل والعاطفة، وذلك عندما تستثار الغريزة بدافع من العاطفة، وهنا يكون الإنسان في وضع التهيّؤ. والذي يحجب التهيّؤ عن الاستعداد وصولا إلى الفعل هي الإرادة التي تتحكّم به لحين اتخاذ القرار.

وأمَّا مصادر التهيّؤ بالنسبة للإنسان؛ فهي الأفكار المكتسبة والممكّنة من ذاكرة العقل، إذ إن العقل هو الميزان المعتدل بين سلسلة الأفكار السّالبة والموجبة التي تتأثّر بالحاجات وأساليب إشباعها، كما أنَّ الإرادة هي سلسة الممكّنات من اتخاذ القرار الذي

به يتمّ الاستعداد والإقدام على تأدية الأفعال المماثلة في السّلب والإيجاب.

إنَّ الأفكار التي تغذي العواطف وتستفزّ المشاعر وتُوَجِّه الأحاسيس، هي التي تدفع الإنسان فكريّا ثمّ تدفعه سلوكيّا ليكون على ما يكون عليه من تهيؤ وإرهاب. لذلك فمتهيئات اليقظة كامنة في العواطف بتعدّد الأفكار؛ فعندما يكون العقل في أوجِّ نشاطه يسيطر على عواطفه ويجعلها في حالة اعتدال متوازن فلا تؤثّر سلبيا عليه، وأمَّا إذا اشتدّت العاطفة فإنَّها تستدعي معظم الأفكار الخاصّة بالحدث بمؤثِّرات خارجيّة عن طريق الإدراك الذي ينعكس شعورا داخليا يؤجّج العاطفة بحيث تصبح أكثر نشاطا من العقل.

فنشاط العواطف يُضعف من نشاط العقل قدرا يناسب قوّة العواطف، وكذلك العقل يُضعف من نشاط العواطف درجة تناسب قوّته ونشاطه كلّما تهيّأ لمواجهتها يقظة من الضمير الذي يُقدِّر الأنا والآخر دون تحيُّز، ولذا عندما يُصرف النّظر عن الفكرة المنشِّطة للعاطفة تتلاشى في العقل وتهدأ العاطفة فيزول التأثير على الغريزة التي تدفع التهيّؤ للظهور إلى حين ظهور المؤثّر الخارجي مرّة أخرى أو استدعاء الفكرة من الحافظة عن طريق الذّاكرة.

ولهذا فالتهيّؤ للقول أو الفعل يسبق اتخاذ القرار الذي بدوره الطبيعي لا يُتَّخذ إلّا بإرادة؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ

يقال بإرادة، والتهيّؤ للفعل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

مكوِّنات التهيّؤ

للتهيّؤ مجموعة من المكوِّنات منها:

تهيّؤ مادّي عقلي:

إنَّ التهيّؤ المادّي العضوي هو تهيّؤ فطري، والمقصود به ما يتمتّع به الإنسان من أعضاء يستطيع أن يمارس بها أفعالا معيّنة؛ فنجد هذه الأعضاء مهيأة لذلك قبل مباشرة الفعل كالحواس جميعها؛ فالعين مهيّأة للنّظر والأذن مهيّأة للسّمع، والقدم مهيّأة للمشي واليد مهيّأة لاستعمالات كثيرة، وكذلك العقل مهيّؤ لتقبُّل العلوم والتمييز والاستنتاج والاستنباط والاستقراء والتدبُّر، وباجتماع إحدى ملكات العقل مع إحدى هذه الأعضاء يتولّد تهيّؤ ثنائي جديد بين الأداة المادّية والجانب الذّهني.

تهيّؤ مادّي نفسي:

وهو اشتراك الأعضاء المادّية مع الجانب النفسي من انفعالات تدخل في تشكُّلات التهيّؤ، فعلى سبيل المثال: إذا شاهدت أفعى

فسوف ينتابك شعور معين لا نستطيع أن نحكم عليه هو كما هو، بل هو على احتمالات منها:

أ- أن تكون خائفا؛ فتفكّر في الفرار؛ فأنت في حالة تهيّؤ.

ب- أن تكون حذرا؛ فأنت مهيّا لتركها وشأنها.

ج- أن تكون مرتهبا؛ فأنت مهيّا لمواجهتها إمَّا للإمساك بها أو لقتلها.

ومع أنَّها ثلاثة احتمالات إلّا أنَّ الاحتمال الأوّل لم يُعدّ من طبيعة ما يوصف به الثُعبان، فالثّعبان لا يخيف، بل الثُعبان مُرهب، أي: أنَّ العاقل هو الذي يُخيف لأنَّه عاقل قادر على التفكّر والتذكُّر والتحايل ومع ذلك فهو قابل للحوار والجدل الذي يؤدّي إلى معرفة وإدراك قد يؤدّي إلى مراجعة أو حُسن تصرّف، أمّا الثّعبان فهو غير عاقل وبالتّالي القاعدة تنصّ على أنَّ (العاقل يخيف وغير العاقل يُرهب) أي: أنَّ الصّاروخ والقنبلة النّووية وأيِّ قنبلة أو سلاح فتّاك، وأيِّ حيوان مفترس أو سام هو مُرهب، أمّا العاقل فمجال التفاوض والتسامح حيّزه واسع والمواقف تتغيّر وتتبدّل في مُعظم الأحيان من سيء إلى أحسن كلّما أيقظ الإنسان عقله[15].

[15] عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، ص 26 . 35.

الإرادةُ تمكين:

الإرادةُ امتلاك زمام الأمر بلا سُلطان خارجي، بها يتمكّن الإنسان من الاختيار الحرّ، وبدونها يُقهر، وهي الوعي بما يجب وبما لا يجب مع وافر الحرّية، حيث لا إرغام من أحدٍ، ومن هنا؛ فهي منبع الأمل للذين يأملون بلوغ غاياتهم بلا تدخّلات على حساب القيمة والكرامة الإنسانية.

والإرادة بدون تمكين الأفراد والجماعات من ممارستها تظل مفهوما مجرّدا ليس إلّا، ولهذا؛ فأهمية الإرادة هي أن تجسّد في الأفعال، حتى يتمكّن النّاس من بلوغ ما يأملون عملا وسلوكا، ومن ثمّ؛ فالتمكّن من الإرادة إرادي، أمّا التمكين منها فمسؤولية من يتولّى مسؤولية سواء أكانت أسرية أم اجتماعية أم وطنية أم إنسانية.

ولأنَّ الإرادة وعي بما يجب وبما لا يجب؛ فهي قرار يصدر للإقدام الاختياري دون إكراه على ما يجب أو ما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليات، والإرادة وثيقة الصّلة بالوعي بفعل يحقّقها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس، الذي يُظهر العلاقة القويّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

والإرادة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع تكون مسؤولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسؤولة عن الأخذ بالبديل تحقّق

للفاعل وللموضوع الاعتبار والاعتراف والتقدير، وعندما لا تكون مسؤولة عن اختيار البديل لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل تحقّق له النّدم يوم لا ينفع.

فالإرادة قرار يحمل مسؤولية، والمسؤولية لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب على ما سيقدم عليه من عمل أو سلوك حيث لا إجبار من أحدٍ، ومن هنا؛ فالإرادة تمكين هي: منبع أمل لمن قوّضت حرّيته أو حرم من ممارستها بإجراءات تعسّفية من قِبل الغير.

ولأنّ الإرادة تمكين هي منبع أمل؛ فهي نتاج قرار قابل للتنفيذ، وهي بعد التنفيذ في دائرة المتوقّع تُمكِّن الإنسان من تحمُّل أعباء المسؤولية دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل بدون توافر الإرادة؛ فقد لا يحقّق للفعل إنجازا بأسباب الخوف والتردّد، وإن تمّ إنجازه إكراها فلن يكون مثالا.

والإرادة المسؤولة الواعية هي التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام، ومن ثمّ فلا يترتّب عليها ندم، ولهذا؛ فلكلِّ شيء قاعدة إصلاحية واستثناء إفسادي. والاستثناءات هي التي يقدم على أفعالها المارقون أو المنحرفون، وبخاصّة أولئك الذين يتربّعون على قمّة السّلطان ولا يحيدون عنه،

وكأنّ الأوطان لم تنجب غيرهم من بني الوطن أو وكأنّ الشّعب (كلّ الشّعب) لا يوجد فيه أحد مؤهّل لممارسة الحرّية.

ولذلك في مقابل هذه القواعد المنظّمة لممارسة الحرّية تظهر الاستثناءات من قِبل الأنا (الشّخصانية)، ممّا يجعل مَنْ وضع نفسه على قمّة سلّم السّلطان مهيمنا على كلّ أمر سياسي واقتصادي واجتماعي في خانة الاستثناءات مطاردا، حتى وإن نصَّب نفسه شرطيًّا مدَّعيا سلامة الوطن والأمن العام وتنفيذ القوانين بحزم، أو حتى وإن نصَّب نفسه واعظا ومرشدا بما أنّه في دائرة الاستثناءات لن يكون إلّا مطاردا حتى النّهاية.

ولهذا؛ فكلّما اشتدّت المطاردة واشتدّت التأزّمات بين قاعدة الاعتبار وقمّة سلّم السّلطان، وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هم في دائرة الاستثناءات، أصبح الموت عندهم مطلبا مع توافر الرّغبة، ولهذا؛ يفقد من هو على قمّة سلم السّلطان مكانته، ويفقد الشّرطي سلاحه، والواعظ حُجَته التي بها يلاحق الآخرين، ويكون كلّ منهم ضحية مستبدلا بلا ثمن.

وعليه؛ فأنَّ الموت الذي هو سلب الحياة يتحوّل إلى قيمة مقدّرة إجابا بها يتمّ نيل الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملا يرجو الإصلاح أملا وارتقاء.

والبعض من النّاس يتصوّر أنَّ الإرادة هي حُسن الاختيار، لكن لو كان الأمر كذلك، لكان المسميان لمعنى واحد، والدّليل على ذلك أنّ الإرادة عندما تكون أمام أمرين فإنَّها تختار أحدهما أو تستبدله دون الآخر، وكذلك؛ فإنَّ الإرادة عندما تتخذ قرارها يكون هذا القرار في اللحظة نفسها اتجاه هذا الأمر، أمّا الاختيار فيكون من أمور متعدِّدة يقع الاختيار على واحد منها يتمّ دفعه للإرادة التي تتّخذ قرارها فيه.

فالاستبدال، إمّا أن يكون بين أمرين، أو بين اختيارين وفقا لِما تمليه القيم، أو ما تمليه المصلحة، أو حتّى ما تمليه الأطماع، وإمّا أن يكون الاستبدال الإرادي من متعدّد البدائل؛ فالإنسان بإرادته الحرّة يستطيع أن يختار أو يستبدل ما يشاء وفقا لتفضيلاته، أو وفقا لِما هو أقلّ ضررا، أو لِما هو أكثر ضررا من غيره؛ فأصحاب الشرّ لا يفضِّلون غيره بإرادة، وأصحاب الحقّ والخير لا يفضّلون غيره، وهكذا كلّ شيء بإرادة، ومن بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، يستطيع الإنسان أن يُرتِّبَ بدائله وفقا للمتاح مع مراعاته للظرف الزّماني والمكاني ولكلِّ خصوصية لا تتطابق مع خصوصيات الآخرين وإن تماثلت معها.

ولأنّ العلاقة قويّة بين الإرادة والاختيار والرّغبة في الاستبدال، ودرجة التفضيل بين ما هو قابل للاختيار منه، أو قابل لاستبداله

بالكامل، فإنَّ التقييم للاستبدالات أو الاختيارات والتفضيلات يُسهم في تهذيب الإرادة وتطويرها وتغييرها من أجل استبدال ما هو أفضل أو أنفع، وهكذا تتحسّن الأحوال وتقوَّم من قِبل الواعين بما يجب وبما لا يجب لتكون السُبل ممهّدة تجاه غايات مستنيرة بالحقّ وموجبات إحقاقه.

فالاستبدال الإرادي هو في واقع الأمر تقديري، بمعنى أنّه يقوم على تقدير الأنا للقيمة المفترضة، ثمَّ تقييم تلك القيمة وصولا إلى قرار الضّرورة الإرادية للاستبدال؛ فالتعويض مثلا، هو استبدال إرادي لفاقد يجب تعويضه لضرورة أو لرغبة أو حاجة[16].

ولهذا فالإرادة قرار اختياري يؤخذ بوافر الرّغبة تجاه كلَّ ما من شأنه أن يحقّق الرّضا في حدود الوعي بما يجب وبما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليات، ولذا فالإرادة وثيقة الصلة بالوعي بعزيمة تحقّقها وتخرجها من المعنوي إلى المحسوس الذي يُظهر العلاقة القويّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظّ.

والإرادة في دائرة الممكن قد تكون مسؤولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسؤولة تحقِّق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف،

---

[16] عقيل حسين عقيل، الهوية بين متوقع وغير متوقع، ص 178 . 180

والتقدير، وعندما لا تكون مسؤولة لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل قد تضعه في السّجن أسيرا بين الجدران، ومع ذلك لكلٍّ مبرّره، والمهم في هذا الأمر بما أنَّها الإرادة؛ فهي المعبّر عن الحقيقة ولو تمَّ إنكارها اضطرارا.

وعليه ينتفي الإرغام والإكراه وكلّ أساليب الإجبار المهينة كلّما وعي الإنسان إرادة بما يعمل أو يفعل أو حتى فيما يفكّر ولِما يتهيأ ولمن يستعدّ؟ ومتى يتأهّب؟ وبماذا؟

فالإرادة هيّ قيمة تحقيق المكانة التي يسعى النّاس إليها، ممّا يجعل المستهينين بالآخرين مستهان بهم سواء أكانوا على دراية بذلك أم لم يكونوا، ومن يجعل للآخرين مكانة يجد له عندهم مكانات، ومن يعتبر ويتّعظّ لن تكون له حاشية إلّا من المتّعظين، ومع ذلك في دائرة الممكن كلّ شيء متوقّع فلا داعي للغفلة، ولا داعي لاستغفال الآخرين، ولا داعي لسلب إراداتهم.

ولأنَّ الإرادة حقّ؛ فينبغي أن تمارس بحرّيّة في دائرة ترسيخ الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ولأنّها حقّ ينبغي الاعتراف بممارستها، ولهذا يسعى الإنسان دائما لنيل الاعتراف لأجل تبوأ مكانة اجتماعية أو علمية وإنسانية.

وهنا ينبغي أن نميّز بين الإرادة الفرديّة والإرادة العامة؛ فالإرادة الفردية هي في حدود الخصوصيّة التي تتساوى فيها مع خصوصيات الآخرين دون اختلاف وإن كان هناك تنوّع وتعدّد.

أمّا الإرادة العامة؛ فهي التي يتمُّ توصيفها بصلاحيات واختصاصات تشريعية وقانونيّة، وهي القابلة للتقييم والتقويم وفقا لمعايير موضوعيّة متّفق عليها بمقاييس الجودة. ذلك لأنّ الإرادة قرار يحمل مسؤولية، والمسؤولية لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب عليه.

ولأنّ الإرادة نتاج قرار قابل للتنفيذ؛ فهي بعد التنفيذ تُمكِّن الإنسان من تحمُّل أعباء المسؤولية دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل بدون توافر الإرادة قد لا يحقِّق للفعل إنجازا موجبا أو لم يُنجز أصلا بأسباب الإجبار والإكراه أو بأسباب الخوف والتردّد.

ومن ثم فإنَّ الإرادة المسؤولة هي الإرادة الواعية التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء جسام، ومن هنا فلا يترتّب ندم في نفس من أقدم على أدائها، ولهذا يكون لكلِّ شيء قاعدة إصلاحية واستثناء إفسادي.

ولذا فمن يقرّر أن يواجهك عن إرادة؛ فعليك ألا تستهين بالأمر؛ وعليك أن تعرف أنَّ الإرادة كفيلة بأن تُنجز في دائرة الممكن غير المتوقّع ما لم يكن في دائرة الممكن متوقعا[17].

العُدّةُ تجويد:

العدّة تجهيزات وأدوات مادّية، تستوجب جهدا يبذل في سبيل جمعها، أو تهيئتها أو صُنعها، وعندما تكون فعّالة، تواكب زّمن التحدّي، ولكن إن لم تكن كذلك؛ فلا تُحسب لها أهمية إلّا بأسباب الحاجة والضّرورة.

فالعدة إن لم تكن مجوّدة فلا فاعلية لها أمام تلك المجوّدة إن واجهتها منافسة، ولذلك فتجويد العدة يُمكّن مُعدِّيها من دخول ميادين المنافسة، وقبول التحدّي، وقد تبلغ الخوارق بجودتها وحُسن إدارتها.

أمّا إعداد العدّة؛ فهو جهد يبذل لأداء ما ينبغي، وهو المهيّا للمادّة المراد إعدادها وتوفّرها وعرضها منتظمة ومصنّفة وفقا للنّوع والجّنس والجّودة والفاعليّة والعطاء المؤثّر إيجابيا على أرض الواقع؛ فالإعداد هو من أجل الملائمة المناسبة للمطلب والحاجة من أجل تحقيق الأهداف المرجوّة وبلوغ الغايات المأمولة.

---

[17] عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، ص 39 . 43.

فالعُدّة تجويد، منبع أمل؛ كونه ما يُبذل من جهد فكري وعقلي مع وافر التدبُّر من أجل النّهوض من المرحلة البدائية إلى عصر التقنية المتقدّمة (التي تتجدّد بسرعة التقدّم العلمي). ومع ذلك فالعدّة وإن كانت مجوّدة لا تكفي للنّهوض والمنافسة وإحداث النُقلة ما لم يكن مستخدموها مواكبين لها تدريبا وتأهيلا.

ومن إعداد العدّة العمل على توفير المال والعتاد والوسائل الممكِّنة من أداء الفعل وحصر البشر المؤهلين والمستوعبين لتقنيتها والقادرين على تحمُّل الأعباء وفقا للقدرة والاستطاعة، ومن هنا تصبح العدة تجويدا منبع أمل لمستقبل أفضل.

إذن العُدّة هي تلك الوسائل والأدوات والتجهيزات التي تُعدّ من أجل إنجاز أهداف، أو تحقيق أغراض، أو بلوغ غايات، وهي التي تتنوّع وتتعدّد وتُطوّر تقنية، من أجل المنافسة الممكّنة من نيل المكاسب وتقليل الخسائر أو تفاديها قدر الإمكان. فهي إن حسنت إدارتها أدّت إلى نيل التقدّم وتحقيق النّصر، وهي كلّما كانت عالية التقنية وعالية الجودة كانت فعّالة في الميدان المنتج، وذات أثرٍ بالغ الأهميّة في حالة المواجهة مع الخصوم، وفي الإعمار والبناء والإصلاح، ولذا فكلّما أُعدت وتمّ إظهارها استعراضا أمام العدو أرهبته وحقّقت الهيبة لمالكيها ومستخدميها والمرابطين بها على جبهات المواجهة.

والإعداد ليس التهيئة، بل الإعداد سلوكي فعلي مادّي، أمّا التهيُّؤ فليس بمادّي، والإعداد ترتيب متكامل لِما يجب إظهاره أو الإقدام عليه، وهو يحتوي على الترتيب والتنظيم والتجهيز.

ولأنَّه إعداد؛ فهو يحتوي على التنظيم والتدريب والتمرُّن على استخدامات العُدّة والتمرّس عليها بما يُمكّن العاملين من الإنتاج وحسن الأداء أو المقاتلين في ميادين المعارك القتاليّة من النيل من الخصم وإجباره على الاستسلام أو التفاوض الذي يمكِّن كلّ صاحب حقّ من حقّه ويعيد الحقوق لأصحابها بالقوّة.

إذن هناك تلازم علائقي بين إعداد العُدّة، وبين التمرّن والتدريب عليها، ومن يغفل عن ذلك، عندما تُكتب الحرب عليه سيفاجأ بأنَّ العُدّة فاقدة للمقدرة على حسم الصّراع؛ فالصّراع والقتال لا تحسمه العُدّة وإن تطوّرت، بل يحسمه من يدير العُدّة بجدارة وتفوّق يُمكِّن من الفوز ويُحقِّق النصر ويُرهب الأعداء، ولذا فالتمرّن والمراس ضرورة لإدارة المعارك فنًّا ومهارة.

إنَّ درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ تقوى بقوّتهما وتضعف بضعفهما، فإنْ قويت حقّقت نصرا، وإن ضعفت أدّت إلى هزيمة على المستوى الفردي أو الجماعي، مع أنَّ نتائجها على المستوى الفردي والجماعي قد ترتبط بأمرٍ خاص، ولكن على المستوى المجتمعي نتائجها تكون من أجل الجميع وبها تتحقّق الآمال

ويُصنع المستقبل المشترك الذي به تصان حدود الدّول، {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[18].

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ) جاءت أمرا من الله تعالى للعباد، ولذا فإنَّ إعداد العُدّة لمواجهة من يشكّل خطرا على الذين آمنوا غايتها تحقيق السّلام الذي به تطمئن الأنفس، وتصان البلاد وأعراض العباد؛ فقوله: (وَأَعِدُّوا) هي: أمرُ مطلق مع وجوب السّرعة في الأخذ به وتنفيذه، ولذلك فإنّ الأخذ به طاعة لله تعالى الذي أمر عباده بإعداد العُدَّة التي تُرهب الأعداء الذين يشكِّلون خطرا على حياة النّاس وممتلكاتهم وعلاقاتهم وفضائلهم الخيّرة وقيمهم الحميدة اجتماعيا وإنسانيا.

وقوله (مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي: يجب أن يُعدّ ما يُمكن أن يُعدُّ من عُدّة وفق الاستطاعة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فيجب العمل بكلِّ جهد وبكلِّ الوسائل الممكِّنة من امتلاك القوّة وتوفّرها والتدرُّب عليها والمران من أجل إدارتها حتى تتيسّر استخداما إذا ما كُتبت الحرب أو أُقدت نار الفتنة والاقتتال.

[18] الأنفال 60.

ومع أنَّ الاستطاعة محدودة إلّا أنَّ ورودها في هذه الآية الكريمة جاء وكأنَّها بلا حدود (مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي إلى النّهاية التي لا تنتهي بعصرٍ من العصور، بل النّهاية التي تتجدّد في كلِّ عصر إلى النّهاية.

وقوله (مِنْ قُوَّةٍ) مع أنَّ (مِن) بعضيّة إلا أنَّ ورودها هنا جاء للتنوُّع أي: تنوع القوَّة الواجب تنوّعها وإعدادها لإرهاب العدو، ولهذا جاءت الاستطاعة غير محدّدة، وكذلك القوّة غير محدّدة (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) أيَّة قوّة.

وعليه فإنَّ تنوُّع الصّناعات الحربيّة وتطوّرها وتحسين جودتها والتدريب عليها ضرورة لإرهاب الذين يُخِيفون العباد تهديدا ووعيدا وظلما وعدوانا.

إنَّ معظم شعوب العالم الضّعيف تمَّ احتلال أراضيهم وتمَّ تقتيل وتهجير الملايين منهم، واستشهد أكثرهم في سبيل الحريّة وتحرير الأوطان، فهؤلاء الذين عانوا ويلات العذاب أنفسهم ممتلئة خوفا ورعبا من أولئك الذين سبق لهم أن احتلوا بلدانهم وقتّلوا من قتلوا من أجدادهم وآبائهم، وشرَّدوا من شرّدوا من إخوتهم، وشوهوا ثقافاتهم؛ فكيف لهم أن لا يعدُّوا العدّة التي تحميهم من تكرار الاحتلال والاقتتال والاستعمار مرة بعد مرة.

وقوله (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) جاءت (رباط الخيل) وكأنَّها لم تكن من ضمن القوّة التي نزلت في قوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)، في هذا الأمر نقول:

الله تعالى لم يقل: (ومن الخيل).

بل قال:

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ).

ولذا فالخيل في حدِّ ذاتها هي قوّة من مجموع القوى المتعدِّدة التي يحتويها قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ).

أمّا الرباط؛ فهو الذي به يطوّق من يريد قيده أو محاصرته، ولأنَّ الخيل لوحدها لا تستطيع أداء هذه المهمة؛ فنسب الأمر لمن يستطيع أن يفعل ذلك، وهم الفرسان الذين يمتطون الخيل وهم معدّون ومستعدّون لخوض المعركة إن كُتبت عليهم كرها.

وعليه: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) هذه كلمات ثلاثة مسبوقة بحرف عطف (و) الذي به مُيِّزَ الرّباط عن القوَّة، أي أنَّ الرّباط هو الذي لا يتمّ إلا بخطة وقرار وتدبّر وكيفية مناسبة، بها يتمّ استعراض القوَّة المحمولة على ظهور الفرسان الذين هم مرابطون على ظهور الخيل المرابط بها على الحدود، وهؤلاء الفرسان هم (المعدّون والمدرَّبون والمتأهبون للإقدام متى ما صدر أمر التقدّم إليهم).

وقوله تعالى: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) لا تعني كل القوّة، بل تدلّ على القوّة المعدَّة والمستعدّة للاستخدام وهي الأمر الواقع أمام المشاهدة العينية والملاحظة العقليّة والمعرفيّة التي بها يُدرك ويُميّز ما يُرهِب عمّا لا يُرهِب.

فالإعداد على مستوى الإنسانية، يدفع إلى الصحوة من غفلة الانكفاء على الذات والانفتاح على الآخر بما لا يمسّ الأصول والثوابت ضمن المنطلقات المشروعة في التأهّب لمواجهة العدوان حال وقوعه بكلّ قوّة متاحة، ذلك أنّ الإعداد والعدّة لمواجهة الأخطار المحتملة يتمّ به استيعاب الواقع والمحيط الخارجي، ثمّ الصّحوة والانتباه إلى أنّ الأقوياء الذين سيطر الظلم عليهم لا يرحمون الضعفاء، وأنّ المراهنة على جمعيات حقوق الإنسان والهيئات الدّولية، مجازفة لا تُمكّن من بلوغ الحلّ.

إذن الإعداد دعوة أخلاقية في تحقيق الإنصاف الذي يُؤمّن التوازن بين الأفراد أو الشّعوب، ومن ثَمّ يكون الإعداد في هذه الجوانب دافعا للصّحوة التي تحقّق المفاجأة في دائرة الممكن غير المتوقّع، فقوله تعالى: (أعدّوا) يحتوي الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولما كانت العدّة من الأشياء المادّية؛ فنادرا ما تحقّق المفاجآت، لأنّها ضمن مجال الإحصاء والعَدّ، ذلك لأنّها أشياء حسيّة ومدركات مادّية يُمكن لأيّ أحد أن يقف عليها من خلال المعلومات، سواء

أكانت هذه المعلومات عن طريق رصد الاستيراد والتصدير والتنمية والخدمات، أم أنّها معلومات يتمّ الحصول عليها بطرق متعدّدة سواء أكانت مشروعة أم أنّها غير مشروعة.

وعن طريق هذه المعلومات يمكن إحصاء العدّة المادّية المعدّة والتعامل معها بأساليب تؤدّي إلى إبطال مفعولها أو منع مفاجأتها. أمّا الجانب الآخر من (أعدّوا) الذي يتّسع مجاله في الجانب العقلي يشمل الفكر والمهارة والتدريب والتخطيط الذي يخرج عن الحيّز المادّي ويكمن ذهنا بين العقل والشّعور وردّة الفعل، الأمر الذي يجعله ممكنا غير متوقّع بما يحقّق من مفاجآت، وهذا الجانب من الصّعب إحصاؤه أو الوقوف على حيثياته الكامنة في الفكر، بحيث لا تظهر نتائجه إلاّ بعد تحقيق المفاجأة، وهو أعلى أنواع الإعداد.

فالإعداد الجيد على المستوى الفكري والنّفسي هو الذي يحقّق مفاجأة العدّة المعدّة، ومن جانب آخر إذا كانت العدّة شمولية لا تقتصر على السّلاح ورباط الخيل، بل تأخذ البعد الحقيقي للاستطاعة (ما استطعتم) الذي لا يعني التكليف التواكلي، وإنّما التكليف التوكّلي، الذي يدخل في مفهومه الاستطاعة والخزين الاستراتيجي من الطّعام والشّراب والسّلاح ومقوّمات الاستمرار ولا يقتصر على المواجهة فحسب، وإنَّما الاستمرار على إدامة الزّخم في التحكّم بدورةِ عجلة الحياة ضمن الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لأنّ

الماء والغذاء من أهم مكونات الاستطاعة ويتبع ذلك اللباس والمسكن والخدمات ووسائل الاتصال والمواقع البديلة والتمويه وحفر الخنادق والأنفاق، كي يصبح من السّهل تحقيق المفاجأة، وبالتالي التمكّن من تحقيق الأهداف.

فمثل هذا الإعداد هو المرهب للعدو، ولا يعني الاعتداء عليه بحال من الأحوال، بل يجعله في موضع حدوده التي لا يستطيع معها أن يقوم بالاعتداء أو يمارس العدوان؛ فامتلاك العدّة بالإعداد ومن ضمنها السّلاح والعتاد الحربي توهن الخصم قبل أن ينفِّذ اعتداءه، وتدعوه لإعادة حساباته وتكبح جماحه؛ فيكون هذا النّوع من الإرهاب داعيا إلى السّلم ومانعا للقتل والتدمير، والدّعوة إلى إعداد العدّة التي وردت إرهابا للعدو في مواضع كثيرة من الذّكر الحكيم؛ فهي تختصّ بمنع حدوث العدوان، وهي ضرورة تقتضيها الحياة الآمنة.

أمَّا تفسير ما يحصل الآن في العالم من تفجير وترويع للآمنين وسفك للدّماء باسم الإسلام؛ فهو تصرُّف إمّا صادر عن إنسان أساء فهم الإسلام ونصوصه ممّا ينبئ عن وجهة نظر قاصرة وفكر ضحل، وإمّا أنّه يكون نتاجا لفكر يتستَّر بالإسلام، وإمّا بدفع من جهات لها مصلحة في هذه الأعمال والتصرّفات، ولذا وجب التمييز

بين المنهج وأخطاء المنتسبين إليه، وبين المنهج والممارسات التي تقع باسمه، فهذا ليس من الإعداد في شيء.

وعليه فإنّ إعداد العُدّة لا يكون إلّا لإرهاب العدو ومنعه من العدوان، ويشمل ذلك استثمار الأرض وزراعتها وتقديم الخدمات والنّهوض بالتعليم والاقتصاد والرّعاية الصحية والاجتماعية وحماية البيئة، حتى لا تمدّ الأيدي للآخرين، ليأكلوا من إنتاجهم ويلبسوا من مصانعهم حتى يتمكنوا من الاعتماد على أنفسهم ويتعاونوا مع الغير من أجل حياة آمنة مشتركة، وطالما أنّ الأمر كان ممكنا للغير؛ فبالضرورة لن يكون مستحيلا لك، ذلك أنّ الذين يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة، لحجم المشقة وبُعد المسافة وعمق الفجوة، قد تركوا إعداد العدّة وغفلوا عن أهميتها وهي منبع من منابع تحقيق الأمل[19].

الاستعداد حيطة:

الاستعداد ضرورة لأيّ عمل أو فعل، وبدون الاستعداد لا تُبلغ الآمال، ولهذا فهو منبع أمل لفعل يُفعل، أو هدف ينجز، أو غاية تبلغ؛ فالاستعداد لا يكون إلّا عن دراية لما يجب، وهو الحيطة من الفشل، والوقوع في السُفليّة.

---

[19] المرجع السابق، ص 49 . 58.

الاستعداد يأتي مرحلة بعد مرحلّة التهيّؤ والإرادة، ولذلك لا يكون إلّا مرحلة لاحقة لهما ومعتمدة عليهما؛ فالاستعداد تجميع للقوّة الممكِّنة من تنفيذ الفعل مع أخذ الحيطة من الوقوع في الفشل أو الغفلة، ولا يكون إلّا من أجل أهداف يُراد لها أن تتحقّق بما أُسِّست عليه من تهيّؤ وإرادة. إنَّه استمداد للقوّة المعنوية والمادية من مصادرها، مع اختيار الأجود والأفضل لأداء الفعل ومراعاة الظرف الزّماني والمكاني والتوقيت المناسب.

فالاستعداد يكون لأداء الفعل من الفاعل المتهيّئ الذي امتلك الإرادة وجمَّع متطلبات الاستعداد المحقّقة للأهداف، وهو المرحلة التي يتمّ فيها إعداد العُدَّة وحصر الإمكانيات بعد دراسة وافية وخطة مُحكّمة لتنفيذ الفعل؛ ولهذا فالاستعداد لم يكن العُدَّة ولا الإعداد، بل هو الجهد المبذول تخطيطا وتجهيزا من أجل توفير ما يستلزم لتنفيذ الفعل أو خوض المعركة قبل أن تشتعل نيرانها وتشبّ، ممّا يجعل العُدّة والإعداد جزءا من الاستعداد وليس متطابقتان معه في الدلالة والمعنى.

فالعُدّة هي استحضار وسائل القوّة المادّية بأدواتها التي تُمكِّن من أداء الفعل، وهي مجموعة الوسائل التي يستعين بها الإنسان ليتوجَّه إلى ما يُمكن أن يحدث في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛

ولذا فما يعدّه الإنسان لحوادث الدّهر من مال وسلاح لمواجهة ما يهدّده يجلب له نفعا أو يدفع عنه ضررا يسمى العُدّة.

أمَّا الإعداد؛ فهو الذي يُمكِّن من ممارسة الفعل بنجاح ويمنح المستعدّ الكفاية، وهو تدريب عملي على استخدام ما يمتلكه المستعدّ من عُدَّة تعينه على جلب نفع أو دفع ضرر.

والعلاقة وثيقة بين الاستعداد والفعل، فلا يقدِم على الفعل إلّا المستعدّ بإعدادٍ جيدٍ.

وعلى كلٍّ فالاستعداد يستوجب اجتماع النيّة وتمام القصد في أداء الفعل مع تحمُّل نتائجه سلبا وإيجابا، وهذا يجعل (الاستعداد) من الرّسوخ في القلب بمكان، فإذا امتلك المرء أدوات الاستعداد أقدم على فعل يُنجز عنده، وقد يكون غير متوقّع الإنجاز عند غيره؛ فالفشل مفردة منزوعة من قلب من تهيّأ للنجاح بإرادة.

ولهذا فالاستعداد هو أخذ الحيطة والحذر واستحضار القوّة العقليّة والفكريّة والنفسيّة والمادّيّة التي تؤدّي إلى الإقدام على تنفيذ الفعل دون تردّد بعد اتخاذ الإرادة قرارها؛ فالأفراح والأحزان والحرب والسّلام والأعياد والمناسبات، كلّها مواقف ومناسبات يتمّ الاستعداد لها باستمداد القوّة المادّية والمعنوية التي يستطيع الإنسان من خلالها

أن يسيطر على تلك المواقف، ويُسخِّرها وفقا لإرادته كما يشاء ويرغب أو كما يُفضّل ويستحسن، وللاستعداد أنواع منها.

الاستعداد الذهني:

الانتباه لا يكون إلّا بعد فطنة واستعداد وإلّا سيجد الإنسان نفسه غافلا وسارحا وهو لا يدري عمَّا هو غافل وفيما هو سارح الذّهن، ومن ثمّ؛ فالاستعداد الذهني هو المؤسّس للقناعات التي لا تكون إلّا مع الإرادة أو بها، ولا يتمّ هذا الاستعداد إلّا بالانتباه والفطنة والوعي بمعطيات الأمور في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فالاستعداد الذّهني يحتوي على الإلمام الفكري والثقافي وفقا للمدركات العقليّة، ممّا جعل العقل البشري يختزن معلومات شتى من العقائد والعلوم والفنون والمهارات والبيئة والحياة العامة وكلّ ما له علاقة بحياة الإنسان وما يتعلّق بهذه الحياة، وبخاصّة أنَّ الجانب الفكري هو عماد الأمور في جميع المسائل التي تصبّ في مصلحة الإنسان أفرادا وجماعات.

إنَّ القضايا المكوِّنة لمخزون الوعي الجمعي لمجتمع معين، إن تمّ تناسيها عند البعض فإنّ البعض ستظل عنده مركَّزة ومتمركزة في الوعي الشّخصي على مستوى الأفراد في ذلك المجتمع، وهذا الوعي هو سلسلة من الأفكار، وهذه الأفكار تُسخَّر استعدادا لما ترغب

الإرادة وتفضّل القيام به من عملٍ في مواجهة حدث أو موقف أو ظاهرة أو مجموعة قضايا.

إنّ الاستعداد الذّهني لا يُكتسب لحظة الحاجة إليه، وإنَّما هو ذلك الموجّه من قِبل الملكات العقلية، ينمو ويتطوَّر من التجارب والعلوم والمعارف والمشاهدات والخبرات والتاريخ الذي به تترسَّخ الهويّة التي بها تتوحّد الأمّة حتى يصبح كلّ فردٍ فيها وكأنّه أمّة بكاملها.

وهذا ما يُعبَّر عنه بسلسلة الأفكار التي أصبحت خاضعة للإرادة التي تخرجها إلى الاستعداد، بحيث يكون التركيز الذّهني منصبّ على استحضار الأفكار والمعلومات ذات العلاقة في المواقف أو الأحداث التي تخدم الإرادة في قضية ما.

إنّ الاستعداد لأجل حلّ أي قضية هو دائما موجود في الفكر الإنساني قبل استدعاء تلك الحلول، ولكن الذي يستدعيه ويستحضره طلب أو موقف خارجي، ولذا لا توجد قضية منطقية غير قابلة للحلّ؛ فالاستعداد لحلّ أيِّ قضية أو مواجهتها أو الحصول على الأسباب المؤدّية إلى نتائج إيجابية فيها، متوفّر دائما في العقل الإنساني المدرك للحقيقة هي كما هي إن أراد حلّا لا ظلم فيه.

الاستعداد النفسي:

ومع أنَّ الاستعداد الذّهني ضرورة إلّا أنّه لم يكن كلّ شيء في معطيات الاستعداد؛ فالاستعداد النفسي والمعنوي من أكبر الضرورات والمعطيات قبل الإقدام على الفعل، ولهذا الهزائم في الحروب والمواجهات تلحق أوَّل من تلحق المنهزمين نفسيا ومعنويا؛ فمهما توفَّرت للجيوش من عتاد وعدّة لن يحققوا النّصر المنتظر ما لم يكن المقاتلون على درجة عالية من الاستعداد النفسي والمعنوي الذي لا يبلغ أشدّه إلّا عن إرادة ووعي بالمسؤوليات الجسام الواجب حمْلها كلّما اشتدّت شدّة.

ومع أنّ الاستعداد النفسي غير الاستعداد الذّهني إلّا أنَّهما يتداخلان كما تتداخل متغيرات القضية الواحدة التي تؤثِّر متغيراتها على بعضها البعض؛ فالإنسان العاقل هو الذي يتأثّر نفسيا سلبا وإيجابا، ومن يحسن التفكير يحسن التدبُّر، ومن يحسن التدبُّر يدرك الحقّ ويلتزم بمعطياته، ويدرك الباطل ويخشاه ويجتنبه ويبتعد عنه دون خوف ولا تردّد، بل قد يصاحبه الخوف إن لم يجتنبه ويخشاه، وعنه يبتعد. ولذلك يكون الاستعداد النّفسي والمعنوي رافدا مهما للاستعداد الذّهني، وهو المحفِّز من حيث اجتماع قوى النفس استعدادا لمواجهة الحدث.

إنَّ هذا الاستعداد لا يمكن أن يكون له صورة في الخارج، لأنّه لا يُستمدّ من الأشياء الحسية الواقعية وإنْ كانت مؤثّرة فيه، وليس له صورة في الدّاخل، ولهذا فالعقل لا يستطيع أن يرسم له صورة متخيّلة، علما بأنَّنا نستطيع أن نقف على هذا الشّعور عندما ينعكس تأثيره على صفات المستعدّ؛ فالغضب والحذر والابتسامة والخجل والتعرُّق والعزم والحزم والهمَّة والخوف، إنّما هي انعكاسات قوى النفس المعنوية على الجانب العضوي استعدادا للحدث، فهذا الاستعداد إنّما هو صورة مجرَّدة، فالإنسان يُدرك أثر الانفعال من تلك الصّورة على المستعدّ، وهو يدرك شعورا لا يستطيع أن يصفه أو يعبِّر عنه إلّا بانعكاسات الانفعال المولِّدة للاستعداد برغبة وتهيؤ.

ولهذا فالقوى النفسية الكامنة في الإنسان تستنهض استعدادا للحدث عن طريق تداعي أفكار معيّنة في موضوع محدِّد أو مشاهدة بصريّة، ممّا يجعل بعض الغُدد تفرز عصارات مختلفة تجعل الإنسان على غير اتزان ولا توازن.

إنَّ سيلان الدّموع فرحا أو حزنا وحسب الموقف ودرجة تأثيره سلبا أم إيجابا، هو نتاج تأثُّرات النفس الدّاخليّة، وإن أثّر ذلك تأثرا خارجيا كما هو حال احمرار الوجه أو اصفراره عندما يلمّ بالإنسان خوفا أو مرضا وكذلك في حالة الخشية والاحتشام، وما تتركه من أثرٍ على اللسان وما يلمَّ به من تلعثم عند الحديث، وارتعاش اليدين عند

الحركة والسّكون وغيرها كثيرا؛ فكل هذه الظّواهر بأسباب الاستثارة الدّاخلية والفزع لا تتحقّق عند من تهيّأ واستعدّ عن إرادة وقصد وإيمان ووعي بأهمية القضية التي لها تهيّأ واستعدَّ بإرادة، ولذا فالمرتعشةُ أيديهم والطّامعون والضّعفاء لا يصنعون التاريخ ولا يسهمون في صناعته، الواثقون وحدهم هم القادرون على صناعته، وأين ما يحلّون تكون لهم الأمجاد؛ فمن يطلب الموت تُكتب له الحياة، ومن يطلب الحياة عليه بقبول المفاجأة في الوقت غير المتوقّع وحينها لن يفيده الاستغراب.

الاستعداد البدني:

مهما استعدَّ الإنسان معنويا (ذهنيا ونفسيا) لن يحقِّق النّصر المؤزّر إلّا بإضافة الاستعداد البدني وإعداد العُدّة إلى ذلك الاستعداد المعنوي؛ فينبغي ألا يغفل الإنسان عن أهميّة المران والتمرّن والتدريب والتأهيل واكتساب الخبرة والتعلّم حتى يكتسب لياقة ومهارة وفنّا بها يتمكّن من خوض المعركة إن كُتبت عليه.

ولأنّ أفضل الأفكار والنّظريات ما كان قابلا للتطبيق على أرض الواقع، لذلك فالعقل والفكر الذي يسعى لتوافر أدوات الاستعداد المادية مع تقدير الإنسان قيمة عالية هو الفكر الذي يدفع النّاس إلى الإنتاج والعمل، دون أن يتركهم يجترُّونَ الكلمات

التي لا تُغني ولا تشبع من جوع؛ فالفكر المنتج هو الفكر المبدع الذي من خلاله يتهيّأ الأفراد بإرادة إلى العمل الذي يُحدث النُقلة ويحقّق لهم الأمل، ولهذا جاءت الأديان السّماوية عقيدةً وعملا متلازمين (معنويا ومادّيا).

وعليه مهما كانت الأفكار النّظرية إن لم تتجسّد في أفعال وسلوكيات وانعكست في مهارات وخبرات ومران وفنّ وحركة وصورة؛ فهي لن تُحقّق للإنسان غاياته في الحياة ولا يمكن أن تصنع له مستقبلا ولا تولّد له أمل.

التأهُّب فطنة:

التأهّب فطنة أمل تدفع إلى إنجاز ما يترك أثرا يُمكِن قياسه، مع قبول دفع الثّمن من قبل المتأهّب كونه عن وعي يدرك ما تأهّب من أجله.

ويعدّ التأهّب منبع أمل كونه الممكّن من دخول الفعل والإقدام على العمل؛ فالتأهبّ قيمة تلفت المتأهّب لما يجب الالتفات إليه حيث لا حيّز في ذّهنه للغفلة أو الانفلات. وللتأهُّب مفهوم لفظي علائقي مكوّن من المجموع القيمي لكلٍّ من:

. الانتباه، لِما يجب.

. الدّراية، كيف يجب.

. اليقظة، حول ما يجب.

. الفطنة، لأخذ ما يجب.

. التحفُّز، تجاه ما يجب.

. الإصرار، عزم على ما يجب.

. الرّغبة، فيما يجب.

. الحِرص، على سلامة ما يجب.

. الوعي، بما يجب.

. التيقُّن، تمسّك بما يجب.

ولأنَّ التأهُّب لا يجعل أحدا يأخذ أحدا على حين غرة؛ فهو مرحلة ما قَبلُ الفعل (أيّ فعل)، وهو مرحلّة ما بعد الاستعداد المؤسّس على التهيّؤ والإرادة؛ فالمتأهّب هو من بيده القرار والأمر لتنفيذ الفعل بكلِّ حرصٍ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

والتأهُّب للفعل هو الذي يستدعي مرابطة تستوجب أن يضع المرابط أُصبعه على الزّناد قبل أن تشتعل نار الحرب والاقتتال، وذلك

بهدف ألا تشتعل، وبخاصّة عندما يكون المتأهّب حريصا على ألا يكون سببا في إشعال نار الحرب بغير حقّ.

وعليه: فإنَّ قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) لا تخرج عن دائرة الاستطاعة، ولهذا جاء قوله (ومن رباط الخيل) أي: ما تستطيعوا أن تعدّوه من رباط الخيل فأعدُّوه، أي: لا ينبغي أن تستكثروا عدّتكم من رباط الخيل مهما كثرت؛ فبما أنَّكم تستطيعون إعداد أعداد أكثر فأعدّوا دون تردّد، وذلك لأجل تحقيق الهدف من إعداد العُدّة وهو إرهاب الأعداء المخيفين لكم عُدّة وتهديدا ووعيدا، تصريحا وتلميحا.

والرّباط هو الملازمة والمداومة، التي بها يلازم الفارس وسيلته ويداوم عليها متأهبا لخوض المعركة أن كُتبت عليه، سواء أكانت الوسيلة خيلا أم أنَّها آلات حديثة ومتطوِّرة؛ فبالمرابطة تطوّق الحدود والحصون والقلاع والمعسكرات وتهدّد بالاعتداء إن ظهر اعتداء منها، وإذا ما تمَّ التفاهم والتفهُّم بين الأنا والآخر تحقّق الأمن والسّلام بين النّاس أقارب على الحدود، وأباعد من وراء البحار والمحيطات.

أمّا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا}[20] تدلُّ على أهميّة قبول المعاناة في سبيل تحقيق السّلام بين النّاس، ولذلك أمر الله عباده بالصّبر والمصابرة، أي: اصبروا على ما أنتم عليه حتى تعدّوا العدّة، وصابروا من أجل تحقيق فضائل أعظم، ثمّ بعد ذلك تأهبوا بالمرابطة التي تُرهب أعداءكم.

فقوله: (وَرَابِطُوا) أي تواجدوا متأهبين مرابطين بعزمٍ وحرصٍ على صون حدود البلاد والعباد من الذين يهدّدون ويتوعدون ويشكّلون خطرا عليكم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولذا لا ينبغي أن تغفلوا عن تأهّبكم واعملوا على إظهار قوّتكم متأهّبين أمام مشاهدة وملاحظة عدوّكم لقواتكم التي أعدّيتموها لإرهابه لا للاعتداء عليه، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[21].

الاعتداء بدون شكٍّ هو ظلم في غير طاعة الله الذي نهى عن الاعتداء على الناس بقوله: (وَلَا تَعْتَدُوا)، ولكن إن أاعتدي عليكم؛ فعليكم بالاعتداء على من اعتدى عليكم، وليكن اعتداء مماثلا لِمَا

[20] آل عمران 200.

[21] البقرة 190.

اعتُدى به عليكم، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[22].

إنَّ إظهار القوّة والمتأهبين بها على ظهور الخيل أو الدبّابات والطّائرات والعربات والمعدات المتطوّرة ضرورة استعراضية أمام مشاهدات وملاحظات الأعداء والأصدقاء، وذلك لأجل أن يُرهَب بها الأعداء؛ فيحسبوا حِساباتهم إن فكّروا في الاعتداءِ ظلما، وفي مقابل ذلك لأجل أن تطمئنَّ قلوب الذين آمنوا من الأصدقاء فتزداد أيمنا مع إيمانهم.

يعد إعداد العدّة مع وافر الاستعداد والتأهب استعراضا بمقاليد القوّة يُرهب كلَّ من تسوّل له نفسه أن يعتدي ظلما.

فقوله: (رابطوا) تحتوي في مضمونها ومفهومها ضرورة استمرار التأهب دون انفكاك عن المرابطة حتى ينتهي من أذهانكم كلَّ ما يخيفكم من أعدائكم.

وبعد أن يرى العدوّ تأهّبكم بالعُدّة الحربيّة والقتاليّة والخيل التي قد تأهبتم عليها ورابطتم ولم ينته عن عدوانه؛ فعليكم بمقاتلته، ولكن إن جنح للسلم فاجنحوا لها، {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[23]،

---

[22] البقرة 194.

[23] الأنفال 61.

أي وأنتم أقوياء، وأراضيكم غير محتلّة، ولا مهجّرين؛ فإن جنح المعتدون للسّلم فاجنحوا لها، ولهذا لا جنوح للسّلم إلّا بامتلاك القوّة، ومن لا يمتلك القوّة يجد نفسه غير مقدّرٍ من الغير (أصحاب المطامع).

ولهذا وجب إظهار القوّة عُدّة وعتادا وفرسانا وخيلا وتنظيما وتأهُّبا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) أي يجب إظهار القوّة، لتكون رسالة ذات مضمون مفاده (لقد أعددنا العُدّة، وامتلكنا القوّة، ونحن الآن مستعدّين عن إرادة، ومتأهبين لخوض المعركة؛ فخذوا حِذركم، وفكّروا قبل أن تقرّروا عن غير بيّنة، نحنُ نمتلك القوّة المتعاظمة، ولكنَّنا لا نرغب قتالكم ولا في الاعتداء عليكم، ولقد أعذر من أنذر) فإن سالمتم فنحن أهل السّلم، وإن اعتديتم علينا فليس لنا إلّا الاعتداء عليكم مثلما اعتديتم علينا، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[24].

إذن التأهّب والمرابطة دليل إثبات أنَّ الأمر لم يعدّ هيّنا؛ فخذوا حذركم، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}[25] أي تيقّظوا وانتبهوا واحترزوا من العدوَّ كي لا ينال منكم شيئا؛ فإن غفلتم واسترخيتم وألقيتم سلاحكم فلا تستغربوا أن يغدُر بكم أو يتمَّ الاعتداء عليكم

[24] البقرة 194.

[25] النساء 71.

ظلما؛ فخذوا حِذركم بكلِّ جدّية؛ فالأمر لم يعدّ هيّنا، وإن أخذتموه مأخذ الجدّ فإنَّ الخصم أو العدوّ سيأخذه مأخذ الجدّ أيضا، وإن أخذه مأخذ الجدِّ جعل لكم اعتبارا يجعله جانحا للسّلم الذي يستوجب الجنوح إليه تحديا لا استسلاما (قوّة لا ضعفا).

وكما أنَّ إعداد العُدّة حقٌّ لمن هو خائف من المخيف الذي لا يُقدِّر ولا يَعتبر الآخرين؛ فكذلك التأهّب بالمرابطة قوّة تماسك وحقّ به يُدمغ الباطل ويُزهق.

وهنا يكون التأهّب تَوفُّر العزم مع وافر الإصرار على الإقدام على تنفيذ الفعل مع ترقُّب شديد ورصد للحركة والسّكون ممّا يجعل الأصبع على الزّناد استعدادا للرّمي في زمن الانقضاض.

فالتأهّب يؤجّج في النفس حرارة الانقضاض والاندفاع تجاه الهدف دون خوف ولا تردّد مع استماتة على الإنجاز في الوقت المحدّد للتنفيذ خوفا من التأخير الذي فيه تكمن المفاجآت، ولذلك دائما لا للاستعجال ونعم للإسراع دون التسرُّع.

ولذلك يكمن في قيمة التأهُّب اشتياق الفاعل للحظة الانقضاض ورمي الهدف؛ فالرّامي عندما يكون متأهّبا تكون مشاعره وأحاسيسه منصهرة في بوتقة الفكر لفعلٍ قابلٍ لأن يُفعل والشّك من ملكاته منتزع انتزاعا.

فذلك الصّحفي العراقي الذي رمى الرّئيس الأمريكي جورج بوش بنعليه في بغداد لو لم يكن متأهّبا للرّمي ما رماه أمام أعين النّاس وعلى شاشات التلفاز وأمام حرَّاسه وحرَّاس حرَّاسه والمدجَّجين والصّحفيين الذين هم في محيطه يتساءلون مع الرّئيس الأمريكي عمَّ حدث في العراق وعمَّ يحدث من رمي الرّامي في المؤتمر الصّحفي الموقَّر.

ولذا من يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع أن يُنفِّذ ما يشاء كيفما يشاء بحذاء أم بعكازٍ أم حتى بمسبحةٍ أو ساعة يد، دون أن ينتظر رأيا أو توجيها من أحدٍ.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل فبدون شكّ سيكون للتأهّب تأهّب إن تمّت المعرفة، ولكن إن لم تتوفّر المعرفة فستكون المفاجآت سيدات الميدان والحاسمات للأمر.

فالتأهّب يعدّ منبع أمل لمن استعدّ وأعدّ وتهيأ لأداء الفعل المحقّق للأمل الذي طال زمن انتظاره؛ فالتأهّب للفعل يُمكّن من الإنجاز والنجاح وبلوغ الغايات التي لا تبلغ عملا إلّا بحيوية الأمل.

الدّونية تجاوز:

الدّونية منزلة سُفلية لا تليق بأهل العلم ولا أهل المكانة والرّفعة، بل ولا تليق بمن خُلق في أحسن تقويم، ومن أراد أن تكون

حياته على الخُلق الرّفيعة وعيا وتدبّرا فعليه بكلّ ما يُمكّن من إحداث النُقلة ارتقاء إلى ما هو مأمول، وفي مقابل ذلك إن لم يحسن الإنسان إدارة شؤونه فليس له إلّا الانحدار، فآدم عليه السلام الذي خُلق في العليّة عندما أخفق في إدارة نفسه انحدر إلى سُفلية غير متوقعة، وهناك في دائرة غير المتوقّع واجهته المفاجأة؛ بعد ما انحدر معصية مع انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدّنيا بعد أن كان في السّماء قمّة.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل خُلق آدم على الارتقاء خلقا، أم أنّه جُعل عليه جعلا؟

أقول:

لو جُعل آدم على الارتقاء جعلا، لكان الارتقاء مستقلّا عنه وسابقا عليه، ولأنّه لا سابق على آدم ارتقاء؛ فهو المخلوق عليه خلقا، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[26]، ولأنّه خُلق على الارتقاء خلقا، قال (في أحسن تقويم)، وفي المقابل لو كان آدم قد جُعل على الارتقاء جعلا لقال تعالى: (على أحسن تقويم) وهو المأمول غير المتحقّق في ذات آدم خلقا، وهذا ما يخالف دلالة الحُسن التي خُلق فيها آدم خلقا.

---

[26] التين 4.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه انحدر إرادة ومعصية؛ فكان في سُفلية ودونية أمام خالقه، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[27]. ومع ذلك استغفر آدم ربّه فتاب عليه، ومن هنا، فتح الله باب التوبة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[28].

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

ولأنّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، وبين دُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب. ولذلك، كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظّلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والدّيمقراطية في مواجهة

[27] التين 5.

[28] التين 6.

الدّكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يُمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وبين ما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاء لا يكون إلّا عملا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاء، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

ولهذا فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلّا عدلا وعملا وعفوا وصفحا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلما وإهمالا وتشدّدا وتطرّفا؛ ففي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فمن شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملا وعملا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاء.

فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون قدرات ومواهب واستعدادات وميول واتجاهات، ولهذا؛ فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خلقوا عليه خلقا، ولكن بينهم تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد وسياسة، وفنون وآداب، ومع ذلك؛ فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنّه الاختلاف؛ فهو المحفّز على البقاء تنوّعا، وهو المحفّز على التغيير الممكّن من التّعاون والنّهوض ارتقاء؛ فبنو آدم ارتقاء يعلمون أنّهم لم يجدوا أنفسهم خلقا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم؛ فهم يعلمون أنّهم قبل الخَلق لم يكونوا شيئا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئا مذكورا؛ فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقا،

ولهذا؛ فهم يدركون أنّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شئيا؛ فكانوا شيئا وفي أحسن تقويم، {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[29].

فبنو آدم لكونهم شيئا مذكورا يدركون مشيئة شاءت لهم أن يكونوا خَلقا وفقا لمشيئة هم لا يعلمونها، ذلك لأنّ المشيء وحده يعلم مشيئة خَلقه، أمّا المخلوق ارتقاء؛ فلا يدرك إلّا وجوده مخلوقا. ومع ذلك؛ فهناك من يرى الوجود الكوني مخلوقا من غير خالق، وهنا تكمن العلّة المعرفية بين من يدرك أنّه لا مشيئة لمخلوق في خَلقه، وبين من لا يدرك ذلك بقوله: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ولأنّ بني آدم بين الارتقاء والدّونية؛ فهم مختلفون رؤية ومعرفة وعلما، ولهذا؛ فهم بين معرفة وعلم يؤدّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وبين جهل يؤدّي بهم إلى الانحدار والدّونية.

ولذلك؛ فالإنسان عندما ينهض يرتقي إلى ما يؤدّي به إلى رتق الأرض بالسّماء، وعندما ينحدر يهوي سُفلية في القاع، أي: عندما يرتقي يجد نفسه وكأنّه يحتوي الإنسانية في نفسه، ولكن

[29] مريم 67.

عندما ينحدر يصبح عقله أشبه بعقل الحيوان، {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[30].

أي: عندما ينحدر الإنسان ممّا هو عليه من عقل مدبّر، لا شكّ أنّه يقترب إلى عقل القرد الذي هو في دونية إذا ما قورن بعقل من خلقه الله في أحسن تقويم؛ فمثل أولئك المنحدرون قيما هم مثل الحيوان الذي لا يتذكّر فيتّعظ، ولا يتدبّر فيخطط، ولا يفكّر فيرتقي إلى ما يجب أن يكون عليه رفعة، ولهذا؛ فلا يليق بالعقل الإنساني أن يتشبّه سلوكه بالعقل القردي، الذي متى ما انحدر إليه الإنسان أصبح لا فرق بينه وبين من هو في دونيّة، {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[31].

فالإنسان إن لم يُحسن الاختيار ولا أمل له، يجد نفسه في اتجاه السُفليّة والانحدار والدّونية، وإذا امتلك الإنسان الإرادة والأمل يصاحبه ولا فراق، تُفتح أمامه السُّبل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولهذا إن كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة؛ فلا يجد الأمل مجالا للامتداد فكرا ومعرفة، فالفِكْر الإنساني نتاج ما وصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ورؤى، أسّس لثقافات وحضارات سادت، ثمّ بادت، ثمّ نهضت حضارات غيرها، وهكذا

---

[30] الأعراف 166.

[31] المائدة 60.

ستظل الحضارات بين نهوض وارتقاء، وبين إبادة وسُفليةٍ، وفقا لقاعدة الصّراع بين ما يجب وما لا يجب، وستظلّ الحياة البشريّة في دورة من التفاعل بين (ارتقاء ودونية) حضارات تسود، ثمّ تبيد، ثمّ تنهض حضارات أخرى.

ولذلك عاش الإنسان الأوّل حياة الخلق في أحسن تقويم، ثمّ انحدر سُفليّة؛ فاتّسعت الهوة بينه وبين تلك المكانة ارتقاء؛ فكانت الدّونيّة بين يديه سلوكا على غير فضائل ولا قيم حميدة، وكانت الأساطير ترافقه وكأنّها الحلّ في الوقت الذي فيه الخرافة لا علاقة لها بما يحقّق الآمال المحدثة للنقلة وصانعة المستقبل المزدهر.

ومع أنّ القاعدة المنطقية ترى: أنّ الارتقاء أساس الخَلق البشري، ولكن الاستثناء يرى: كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة، حيث قلّة الجهد المبذول من قِبل من يأمل ارتقاء، في مقابل الجهد المبذول من قِبل من تشدّه السُفلية. وهذا الأمر يشير إلى أنّ زمن الصّراع سيطول بين من يأمل رتق الأرض بالسّموات، وبين من لا يرها إلّا مُفتقة طباق.

والذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق

وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[32].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيارا، ولذلك، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

ولهذا؛ فمن تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونية التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية، لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ، حاول النّهوض، ولكنّه لازال يحاول وهو بين أمل ويأس. أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزا على حساب الغير.

ومن ثمّ، ينبغي على بني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة،

---

[32] الكهف 88.

أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السّعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

القيد تكسير:

القيد الذي ينبغي أن يتمّ تكسيره، هو ذلك القيد الذي أنتجته المظالم والإقصاءات التي تحرم البعض من ممارسة حقوقهم بإرادة، وهو نتاج تلك الإجراءات التي تغيّب العدالة وتقوّيض الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وتُمكّن البعض من الهيمنة على ممارسة السّلطة واحتكار الثروة في مقابل حرمان البعض منها.

ولذا؛ فكلّ ما يُقيّد حرّية الإنسان يعدّ قيدا (فينبغي أن يُكسّر)، ومثل هذا القيد لا يكون إلّا بعلل أفعال وأعمال المظّالم، وهنا يعدّ القيد استثناءا، في مقابل القاعدة التي لا ترى الإنسان إلّا حرّا. ولهذا؛ فكسر القيد يدعم القاعدة ويقوّض الاستثناء.

والقيد مع أنّه مولود الفكرة، ولكنّه لا يعدّ قيمة، بل الذي يعد قيمة ومنبعا لتحقيق الآمال هو كسر القيد؛ ومع ذلك لو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لم يستطع ضبط نفسه عن إرادة، فكّر حتى أوجد قيدا لضبطه، وبعد أن قُيّد به، بدأ

يبحث تفكيرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيل، ومع ذلك بقيت حياته بين القيد وفكّه، ولذا فإذا أراد الإنسان الحرّيّة بلا قيود؛ فعليه أن يقبل التنازل عن عقله كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنا، وهكذا إذا أرد الاثنين معا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية:

(كل أ ليست أ)

فنحن بنو آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قف وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ؛ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلا، سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنّ السّجن هو السّجن؛ ولكن تدبّرا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله؛ فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

وإذا سلّمنا أنّ العقل الإنساني هو الذي يقيّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاء؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير؛ ولكن إن تمدّد؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدا ولا أملا.

ولمتسائل أن يتساءل:"

هل الأبوة والأمومة قيد أم أنّها منبع ولادة الإرادة الحرّة؟

الأبوّة والأمومة منبع إشباع العاطفة، وهي المأمولة في الذّاكرة الإنسانية، وهي مكمن ولادة المحبّة، وهي الحضن الدّافئ للأبناء، وهي القيد الذي لا ينبغي كسره، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[33].

ولهذا وجب طرح السؤال: هل (لا) تُعدّ قيدا أم أنّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

لقد ورد معنى (لا) في الآية السّابقة نهيا قاطعا، (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أي: لا حرّية لك في أن تقول لوالديك (أفّ) وهذا

[33] الإسراء 23، 24.

يعني أنّها قيد، وفوق ذلك فهي تعني ليس لك إلأ القبول. وليس القبول فقط، بل يجب أن تقول لهما قولا كريما (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) بمعني لا مجال للرّفض إلّا القبول، وفوق التقبّل أن تقول لهما (قَوْلًا كَرِيمًا)، وفوق القول الكريم أن تخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)، وفوق ذلك أيضا أن تسأل الله أن يرحمهما (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

إذن تعدّ (لا) قيدا يستوجب الاحترام والتقدير بعد الأخذ بما نهت عنه، ومع ذلك لا يعدّ القبول مطلقا، وفقا لكلّ قاعدة استثناء، والاستثناء جاء في قوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[34].

ولأنّ (لا) ناهية وقاطعة؛ فهي ناهية لما تنهى عنه استثناءا، وبمراجعة النهي السّابق نلاحظ أنّها تنهى عن معصية الوالدين، وتوجب طاعتهما، وفي هذه الآية نلاحظ أنّها تنهى عن طاعتهما في معصية أمر الله النافذ، (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) ومع أنّه لا يجب طاعتهما في أمر المعصية، ولكن يجب مصاحبتهما في الدّنيا معروفا حتى وإن ارتكبا فعل المعصية (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

---

[34] لقمان 15.

ومن ثمّ؛ فالتساؤل: هل (لا) تُعدّ قيدا أم أنّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

إنّ (لا) الملزمة غير ملزمة، أي أنّ (لا) التي يكون أمر نهيها ملزما، فأمر نهيها لا يكون إلّا استثناءا، بمعنى: لو لاحظنا أمر الأبوة والأمومة للاحظنا أنّ القاعدة هي: طاعة الوالدين، والاستثناء هو عدم طاعتهما، ولأنّ لكلّ قاعدة ما شذ عنها، فمن لا يطيع والديه يعدّ قدّ خرج عن القواعد القيمية المقدّرة، وبالتّالي يجب أن ينهى عن الخروج عنها، إلّا استثناء بعلل المخالفات المنحرف أصحابها.

ولهذا، فدائما (لا) النّاهية لا تأتي إلّا استثناءا، ولأنّها لا تكون إلّا استثناءا فهي قيد لا يجوز إلّا استثناءا. ومن هنا، تعدّ (لا) قيدا لا يكون إلّا في وجوبه (وفقا للقاعدة)، وفي المقابل، من يستخدم (لا) في غير وجوبها، ينبغي أن تكسّر حتى لا تكون عائقا بين الإنسان وما يمكّنه من بلوغ الآمال التي تحقّق له الرّفعة.

أمّا التساؤل: هل الدّين قيد أم أنّه منبع قيم ممارسة الحرّية؟

فأقول:

الدّين هو المغذي للقلب (طمأنة وسكينة)، والمغذّي للرّوح (أخذا وتجنّبا ونهيا)، والمغذّي للذاكرة بما يجب أن تكون عليه (تذكّرا

وتدبّرا وتفكّرا)، وهو ما لم يخالف الطبيعة الخَلقيّة لبني الإنسان، من أجل تطابق العلاقة بين الأمل والدّوافع الممكّنة من بلوغه، ذلك لأنّ قواعد الدّين كلّ شيء مشاع لك أو لغيرك (للإنسان أو لغيره من المخلوقات الأخرى) ولهذا فما يحرّم على الإنسان لا يحرّم على غيره من المخلوقات سواء المحللة له أو المحرّمة عليه، ولا قيود على المحلل، بل القيود على المحرّم والمجرّم؛ فآدم وزوجه اللذان خلقا في الجنة، خُلق معهما كلّ شيء من أجلهما مشاعا، أي كلّ شيء نافعا لهما لا قيود عليه، ولكن القيود النّاهية جاءت على كلّ ما يضر أو يترك ندما وألما، وهذا ما لم يعرفه آدم وزوجه {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[35]، ومن هنا جاءت الاستثناءات جنبا إلى جنب مع كلّ قاعدة.

وعليه: فإنّ المشاعية هي القاعدة، أمّا النهي فهو الاستثناء، ولذلك فالمؤمنون يأملون بلوغ مجمع النعيم المشاع (الجنة)، أمّا الاستثناء فلا يكون إلّا بعلل الشذوذ عن القاعدة.

ولأجل ترسيخ القيم الحميدة والفضائل الخيّرة وتبيان ما يجب وما لا يجب جاءت القوانين لتنظيم العلاقات، أقصد بالقوانين تلك القوانين المشاعة، التي ترسّخ الإنسان قيمة، حيث لا يُحرّم عليه شيء هو حقّ له، ولا ينهى عن أداء واجب ينبغي أن يؤدّيه، ولا عن

[35] البقرة 35.

مسؤولية تُحمل يجب أن يحملها ويتحمّل ما يترتّب على حملها من أعباء.

ومع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه لم يُخلق على الكمال، حيث لا كمال إلّا للخالق، ولهذا فمن يرى نفسه على الكمال فقد خرج عن القاعدة وأصبح استثناءا، وهنا يجب أن ينهى بأمرٍ وقانونٍ يجعله يتمددّ بحرّية إلى النهاية التي لا يكون فيها تمدّده على حساب تمدّد الآخرين.

والسؤال: هل القانون قيد أم أنّه نصوص لفكّها؟

أقول:

فلسفة القانون تمنح الإنسان فسحة التمدّد بحرّية حتى حدود الآخرين بلا تجاوز، أي: أنّ التمدّد هو المشاعية، وفي المقابل الانكماش أو التجاوز هو الاستثناء، بمعنى لا ينبغي أن تتمدّد إلّا في مجالك الواسع، ولا ينبغي أن تتمدد على حساب تمدد الغير. والهدف من ذلك هو: وجوب التمدّد وهذه قاعدة، أمّا الانكفاء فهو الاستثناء بعينه.

ولأنّ المجتمع البشري متضاعف الأعداد، ومتنوّع الرّغبات، وحاجاته متطوّرة وفي المقابل مشبعاتها بين كثرة وندرة وانعدام؛ فهو بين هذا وذاك أصبح مضطرا لتنظيم علاقاته، وضبط أعماله وأفعاله

وسلوكياته، وتنظيم حياته؛ ممّا دعاه إلى سنّ القوانين الضابطة لذلك، ولكن أيّة قوانين؟ هل هي فاتحة الآفاق لممارسة الحرّية، أم أنّها المقيّدة لمن يأمل ذلك؟

القانون وفقا للقاعدة الطبيعية لا تقييد فيه، ذلك لأنّه خالق التوازن والاعتدال، ولذا فمن لا يتوافق مع قوانين الخالق (القوانين الطبيعية) يجد نفسه منحرفا على غير اعتدال، ثمّ منعوتا بالشّذوذ عمّا يجب من قبل المتوازنين قانونا، ولهذا فالقوانين الطبيعية متلائمة مع طبيعة المخلوقات كونها خالقة التوازن والاعتدال، أمّا القوانين الوضعية؛ فهي بين توافق عن إرادة، وبين تكيف لا يكون إلّا بقبول تقديم المزيد من التنازلات.

ولذلك ووفقا للقانون الطبيعي فإنّ كلمة (قف) تعني الاعتراف بوجودك وتقديرك واعتبارك، ولكن إن لم تقف عند حدّك الذي هو حقّ لك؛ فستواجهك الصّدمة التي قد لا تكون متوقّعة من قِبلك، وهنا تكمن علّة التمدّد على حساب تمدّد الآخرين؛ فكلمة (قف) تدل على الإنذار ليس إلّا، ممّا يجعل الوقوف هناك عند نقطتها، بلا مظلمة.

ومن خلال معرفتنا العامة يقال إنّ الإنسان خطّاء، ولكن بالمعرفة العلمية من الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل، أم غير العاقل؟

أقول:

العاقل هو المعرّض للأخطاء، أمّا غير العاقل فخطؤه أمر طبيعي. وبما أنّ العاقل هو الذي يخطئ، إذن الذي يفكّر قد لا يخطئ، بمعنى لو فكّر العاقل في النتائج المترتّبة على الموضوع الذي يفكّر فيه، قد لا يخطئ، أمّا غير العاقل فهو (الحرّ) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا اتهم به نال البراءة من رؤوس العدالة.

ومن ثمّ متى ما انحرف العاقل عن قيد عقله تحرّر من اتجاهه، وإلّا هل هناك من يقول: نحن لم نخلق بعقل، ولم نسجن به؟

أقول:

نحن الذين خلقنا بعقل، ونحن الذين سجنّا به.

إذن فالسّجن ليس الجدران والقضبان، بل إنّه العقل الذي يفكّر. ولهذا كلّ من لا يفكّر حرّ بطبعه.

والسؤال:

هل العقل قيد (سجن) في حدّ ذاته أم أنّ القيود خارجة عنه؟.

إذا أجبنا بأنّ القيود خارجة عنه قد نسأل: لو كان الإنسان غير عاقل؛ فهل يمكن أن يفكّر في وضع قيود عليه؟ فإذا كانت

الإجابة بلا، إذن الإنسان العاقل هو الذي قيّد نفسه. وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلي صور وأشكال مادّية سُميت (السّجون) المحاطة بالجدران والقضبان الحديدية والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة.

ولأنّ الإنسان العاقل قد يتهرّب من ضميره كضابط عام؛ فوضع لنفسه قانونا لضبطه، وشرطيّا يقبض عليه متى ما خالف ذلك، وبعد تنفيذ القانون عليه، أحس الإنسان الذي أوجد القانون أنّه قد وضع على نفسه ضميرا ورقيبا خارجا عنه وقيدا عليه، فبدأ يفكّر في كيفية خداعه والتهرّب منه، ممّا جعل العلاقة بين الشّرطة والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة، ولهذا لم يؤت الإنسان من العلم إلّا قليلا، ولو أُوتى علما كثيرا لعرف أنَّ التنازل عن الضّمير هو تنازل عن العقل والحرّية، ولذلك لم يتطوّر إلّا بالقليل؛ فالإنسان الذي ولد كغيره من الكائنات الأخرى يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، ولد حرّا، ومع أنّه حر لكنّه لا يستشعر الحرّية، لكونه لم يدرك معناها بعد، حيث عدم نضج العقل الممكّن من معرفة الحرّية وكيفية ممارستها قانونا طبيعيا أو وضعيا.

وهكذا هي الحياة لا تكون إلّا على قوانين، ولأنّ الحياة مؤسّسة على القانون فلا يمكن أن يكون القانون قيدا إلّا إذا كان القانون استثناءا.

وبناء على ذلك فللمتسائل أن يتساءل: هل الزّواج الطبيعي هو قيد أم أنّه دليل شاهد على المشاركة محبّة ومودة؟

أقول:

الزواج قيمة حميدة تحقّق الرّضا متى ما كان الزّواج غير متخالف مع قوانين الحياة الطبيعية، وفي المقابل يفقد الزّواج قيمته الحميدة إذا حاد عنها، وأصبح على حسابها استثناءا.

وعليه: فالتساؤلات التي تحمل في مضمونها قيدا؛ فهي لا تكون قيود إلّا في حالات الاستثناء، وهنا لا تكمن العلّة في القوانين الطبيعية بل تكمن العلّة فيمن لا تكون اختياراته وفقا للقواعد الطبيعية التي تأسّست عليها طبيعة الخلائق. وهذه النتيجة تحتوي كلّ التساؤلات الآتية:

هل الدّين قيد على الحرّية، أم داعم لها؟

هل القانون قيد على حرّية العقل أم لا؟

هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرّية العقل أم لا؟

هل كلمة لا قيد على الحرّية أم لا؟

هل السّجون قيد من أجل الحرّية أم قيد عليها؟

هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟

وهل يمكن أن تتحقّق الحرّية إذا اعتبرنا هذه قيودا؟

وبناء على هذه الأسئلة، أتساءل:

متى ستتحرّر عقول النّاس من التفكير فيما يُقلق وينتج ألما؟

لا إجابة إلّا بالعقل الذي يفكّر ويتذكّر ويميّز بين الحقّ والباطل الذي لولاه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولولاه ما استعملنا كلمتي (قف، وسر) ولا كلمتي (لا، ونعم) فهذه الكلمات هي التي تنتج قولنا (نعم) لما نريد، (ولا) لما لا نريد.

وعليه ينبغي أن يكون الإنسان في عقله لكي يكون حرّا، وإذا خرج منه سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوّة، وعليه أن يفكّر، ولكن إذا كان العقل سجنا فهل سيحقّق تطوّرا؟

السّجن منه الانفرادي والجماعي والاجتماعي، ولهذا في الدّول التي تهدف إلى التقدم لا يسجن المجتمع، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلى التطوّر، أمّا في الدّول المتخلّفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنواهي التي تعيق حركته إلى التطور.

ومن هنا، فالعقل الذي يحقّق التطوّر هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفردية والجماعية والمجتمعية، أمّا العقل الذي لا يفكّر في محيطه؛ فهو في دائرة الاستثناء، ولهذا لا يحقّق التطور.

وإذا عُدنا مرة ثانية للإجابة على السؤال السّابق كيف يكون العقل سجنا ويحقّق التطوّر؟

أقول:

إذا سلمنا أنّ العقل هو الذي قيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فك قيده؟ وفي كلّ الأحوال إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحرّية ويمارسها بكامل عقله وفي نفس الوقت يكون على الإرادة والأخلاق؟

في اعتقادنا الإنسان بطبعه يغضب ويطرب، ويقبل ويرفض، وله حدود وفسحة امتداد، ومع ذلك قد يصعب عليه الالتزام والتوقّف عند الحدود، ولأنّه من الصّعب الالتزام بها، إذن فمن الصّعب ألا يسجن. ومن ثمّ يتأكد لنا بأنّ العقل سجن وعلينا احترامه لكيلا نسجن.

ومع ذلك لا يمكن أن يضع الإنسان القيد في عنقه بإرادة إلّا في حالتين: حالة الانتحار، وحالة فقدان العقل. وفي كلتا الحالتين هو في حاجة لمن يكسر القيد عنه حتى ولو كان بقيد آخر.

ولذلك ينبغي أن تكسّر القيود المكبّلة لممارسة الحرّية كونها شذوذا عن القاعدة الخَلقيّة التي خُلق الإنسان عليها في أحسن تقويم. أي ينبغي كسر القيد الذي وضعه الحاكم الظّالم في رقاب

المحكومين. ولهذا فالمساءلة ضرورة موضوعية تعيد المنحرفين عن انحرافاتهم سواء أكانوا حكّاما أم محكومين، ولكن نلاحظ في الوقت الذي فيه يخضع طرف إلى هذا الإجراء من أجل ممارسة الديمقراطية في الوقت ذاته يخرج طرف آخر عن مراقبتها وهنا تكمن العلل.

والمعادلة التي قد تحتاج إلى ضبط وإلّا سيختل التنظيم الاجتماعي هي أنّ الشّعوب في زمن ما قبل العولمة كانت غير قادرة على السّيطرة على الحاكم، وبالتالي كان الترحيب حارا من قبل شعوب الدّول النامية بتنظيرات العولمة التي يعرفون أنّها ستُمكِنهم من كسر القيد بالقيد، أمّا في الزّمن الذي ستزدهر فيه العولمة ستكون المعضلة كيف يمكن للحاكم أن يضبط الشّعب من الانفلات بعد أن فُكت قيوده التي من الصّعب أن يقبل بالعودة إليها. ولذا قد تتدخل قوّة خارجية من جديد تحت مبررات من أجل ضبط النظام واستقرار الأمن، وهذا ما سيكون متوقّعا إذا انتصر اليمين في أوروبا تمشيا مع انتصار الرّئيس الأمريكي دونالد ترامب.

إذن إذا أريد للعولمة النجاح فينبغي أن تكون مؤسّسة على كفتي اعتدال الميزان، الحرّية الشّخصية وفقا للقيم الاجتماعية والإنسانية في مقابل حرّية السّوق. وإذا لم يؤخذ ذلك في الاعتبار، فإنّ نظام السّوق سيكون قيدا بالضّرورة، ولذا فإن لم يحسم هذا

الأمر سيكون الصّدام بين من يحاول إملاء شروطه وبين الرّافضين لها.

وبما أنّ الأمر لم يُحسم بعد فإنّ الحوار على العولمة هو اللغة السائدة اليوم، وهذا الحوار سيترتّب عليه صدام وصراع إن لم يتمّ الإجماع على القبول أو الرّفض أو الانتظار، ومن هذه الصراعات المحتملة.

. الصّراع بين المواطنين كأفراد عندما يحسّ كلّ منهم أنّ الآخر هو قيد على حرّية ممارسته للديمقراطية.

. الصّراع بين المواطن الفرد والحاكم عندما يشعر المواطن بأنّ الحاكم يُشكل قيدا عليه وعلى ممارسته الحرّية، أو عندما يشعر الحاكم بأنّ المواطن غير مكتف بما أعطى له من هامش للامتداد.

. الصّراع بين المواطن الفرد وأداة الحكم، عندما يحس الموطن بأنّ الأداة الحاكمة تحتكر السّلطة ولا تسمح له بأن يمارس حقه مشاركة.

. صراع المواطن كفرد مع الدّستور والقوانين والنّظم عندما تصاغ بغير إرادة.

بناء على هذه النقاط المسببة للصّدام آجلا أم عاجلا جاءت تنظيرات العولمة لكسر قيودها، بهدف تحرير المواطن بناء على

ضمانات حقوق الإنسان، فمن حقّ الإنسان أن يكون حرّا ويمارس الدّيمقراطية بإرادة، ولذا يجب فكّ القيد عنه بإرادة، وإن لم يُفك بها يجب أن يُكسر بالقوّة. وكلمة يجب أن يُكسر بالقوّة تعني فيما تعني: وضع القيد في عنق من لا يودّ فكه بإرادة، ومن هنا تتولّد الصراعات التي منها:

. صراع الضّمير العام مع الأنا:

عندما تفلُت الأنا من ضوابط الذّات التي تشكّل قيدا عليها، يتدخل الضّمير العام كحكم بينهما بالنواهي والضوابط التي استمدّها من الفضائل الخيرة والقيم الحميدة. وهذه الضوابط بالنّسبة للأنا تُعد هي الأخرى قيودا إن لم تفكّ لابد أن يتمّ التحايل عليها وعدم الالتزام بها.

. صراع الضّمير العام مع الذّات الجماعية:

الذّات الضابطة للأنا في كثير من الأوقات هي في حالة صدام معها، ولأنّها ذات جماعية بشرية؛ فهي الأخرى تحيد في بعض الأحيان عن ضوابط الضّمير العام، الذي تعتبره الذّات سندا لها عندما تكون في حالة صدام مع الأنا، وفي ذات الوقت تعتبره قيدا عليها عندما تحاول الانفلات والانحراف، وذلك بمتابعته لها في كلّ أمرٍ، فكلّما قرّرت الانفلات منه يحدث الصّدام معها.

وإذا تساءل البعض: متى يحدث الصّدام بين الضّمير العام للمجتمع وبين الضّمير العالمي (ضمير حقوق الإنسان والحيوان)؟

تجيب العولمة عن ذلك بالنقاط التالية:

أ ـ عندما لا يستوعب الأنا الآخر.

ب ـ عندما لا تمارس الدّيمقراطية بإرادة.

ج ـ عندما لا تفتح البلدان كميادين ليمارس السّوق نشاطه فيها بحرّية.

د ـ عندما لا تكون الأديان والأعراف قيودا على من لا يُشرِّعون بها.

هـ ـ عندما لا يتمّ الحفاظ على البيئة.

ع ـ عندما يحاول البعض صمّ آذانه عمّا تقوله المنظّمات الدّولية.

و ـ عندما يحاول البعض الامتناع عن ارتداء قميص القيد الذّهبي الذي فصّلته العولمة.

وعليه: سيكون التدخل مباحا ومتاحا متى ما يتراء للذّات العالمية أن تتدخل في الشؤون الدّاخلية للبلدان والدّول، ولهذا كسر القيد بالقيد لا فرق فيه بين أن يكون حديديا أو ذهبيا، إلا أنّ القيد

الحديدي القديم الذي في كثير من الأحيان يتعرّض إلى الصّدأ سيتمّ استبداله بالقيد الذّهبي الجديد الذي لا يصدأ.

الفكرة ولادة:

تعدّ الفكرة التي هي من إعمال العقل، استمدادا لشيء مجرّد من الشّيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونية والطّبيعية، ولأنّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، ولّدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنّ الفكرة تخلّص من الحيرة، ولكنّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتولد مشوّهة، وبالتّالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنّ هذا الأمر يعدّ سالبا بالنّسبة للفكرة ارتقاء، ولكنّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، ولكنّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء، ولذلك؛ فالبحوث العلمية ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّزّ على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

ولا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يقتنص له حلّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشّيء استحالة أو إعجازا أو ممكننا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلّا.

ولا يعني ذلك أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلّ، وهذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدّي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدٍّ؛ فلا إمكانية لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم أنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة لآدم لم يكن مولودا، بل مخلوقا خلقا مباشرا بلا أب ولا أم، وكلّ ما وُجِدَ معه فهو المخلوق معه خلقا، ولكن بنوه؛ فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده؛ فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: أنَّ حالهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ومع ذلك في دائرة الممكن ينجز أهدافه تعلّما وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة لآدم هو حياته في كونين مختلفين على التّمام، كون الارتقاء (الجنّة) وكون الدّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا، وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا، بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ وفي ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى تلك الجنّة التي أهبط منها. وهي الحيرة ذاتها التي ألمت بابنه في

لحظة قتله أخاه، ولكنّه وقف قاصرا عن المعرفة حيث لا فكرة له عمّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابا ليريه سلوكا وعملا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا؛ فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ منها:

الأمر الأوّل، من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنّ آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاء.

فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصية، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة

لكلّ الأنواع تيسير جاذبية نوعيّة، وغريزية؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثاني، التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة، ذلك لأنّه لم يمرّ بزمن الحيرة الممكّن من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فآدم تقليدا: قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه: قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا، هي الحياة تطوّرا من الخَلق، إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا، بعث الله الأنبياء والرّسل بالنبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاء.

الأمر الثالث، النبأ العظيم: مع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه لم يُخلق على الكمال، ولهذا؛ فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا، معصية واقتتالا، ليفتح

آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمّ؛ تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع الممكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبياء والرُّسُل عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة لمن تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورا وجذعا وأغصانا وأوراقا وثمارا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصّورة. ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ارتقاء وأملا.

والفكرة في ذاتها مجرّدة، حيث لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة، ولذا؛ فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ؛ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى

ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهيئ لاصطيادها، أمّا التدبّر؛ فلا يكون إلّا نتاجها سلوكا وعملا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، لكنّها على أرض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم أنّها معرفة ملموسة مادّيّا، ومن هنا، كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرا، فمع أنّها لم تكن مخلوقة، ولكنّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرا من بعده تدبّر، وإنتاجا من بعده إنتاج؛ فهي القوّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، لكنّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءا زوجيا، كان وجوده وفقا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي لفتته إلى نفسه ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاء، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقلية تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي

تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيل ولا المعجز، حتى يستحيل تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب هي فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف أن لا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقلية معه كلّما حدثت عن تدبّر بفكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء، ولذا، ستظل الفكرة عقلية إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والذي يتجسّد في العمل والسّلوك.

ومع أنّ العقل مكمن الفكرة، ولكنّه أيضا منبع الأمل، ومع أنّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، ولكن الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسؤولية، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك؛ وراء كلّ غاية فكرة ووراء كلّ فكرة شيء جديد.

ولهذا؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية، عاش حياة الفطرة جنّة، إلى أن عصى ربّه؛ فأهبط به والأرض أرضا؛ فظلَّ من

بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده، يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك؛ فهم يعلمون أنّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة، ولذلك؛ فهم قبلوا التحدّي والصّعاب كلّ يوم تهزم صعوبة من بعد صعوبة.

ولذلك؛ فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه أملا.

ومع أنّ الفكرة مولود العقل، ولكن مستفزّها خارجية، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[36]. ولذلك؛ فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تعبث من العدم.

[36] الغاشية 17 . 21.

فالفكرة في ذاتها هي مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعا، أو رؤية، أو حلّا يمكّن من فكّ التأزّمات وكسر القيود، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنّها لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل المأمول.

ولهذا؛ فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلوما وليس مخلوقا؛ فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئا لا ينقص من المخلوق شيئا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تولد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف؛ فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعدّ صوغا عقليّا لمولودٍ لم يولد بعد؛ وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان، ولهذا؛ فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّئه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في

صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا، ذلك لأنّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثا، وتأملا، واستنباطا، واستقراء، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُفلية والانحدار.

ومع أنّ الفكرة تلد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجية، ولكنّها بعد أن تلد منه إنتاجا، تصبح وفقا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرا موجبا، أم سالبا، وعندما تكون الفكرة بنائية، تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونية. ومع ذلك؛ فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي:

تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائية أو هدمية)، ولكنّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النّاس موضعيّا، ولا إمكانية أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقا (حُجّة بحجّة)، ولذلك؛ فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسؤولية من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوئها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقين، وللفكرة السّيئة مسوّقين، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعية راجت فكرته حتى وإن كانت هدمية، وإن لم يكن له مقدرة إقناعية انكمشت فكرته وإن كانت بنائية، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، وبين من يسعى للدّونية والسُفلية، أي: فمن أراد ارتقاء؛ فعليه أن

يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمّا من أراد سُفلية؛ فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك، تعدّ الفكرة ارتقاء مصدرا للرّؤية البنائية، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم أنّها كانت عملية، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظرية أم عملية، تخلق جدلا بين مُنظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

فالفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفية تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر في ما يخالفها غاية؛ فأوجد كيفية تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير. ذلك لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاء من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاء عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء.

فنحن بنو آدم عرفنا أنّ الشّيء في أساس خلقه قد خُلق من غير موجود، وعرفنا أنّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشيء من الشيء معجزة، وعرفنا أنّنا نعرف ما عرفنا ارتقاء، ثمّ عرفنا أنّنا في حاجة لمعرفة المزيد والأمل لا يفارقنا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. الخَلق من العلم، وبالأمر كن، ومن هنا؛ فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم، ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في ثناياه فروعا؛ فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروعا متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فكرا متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

وتعدّ الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصاد واجتماع، أمّا الدّين؛ فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلّا من خالق؛ ذلك لأنّ الدّين لم يبن على الفكرة، مع أنّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلّا منه، أي: كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر، لا يكون إلّا من مفكّر، والدّين

ليس كذلك، ولهذا؛ فلا فكر ديني كما يعتقد البعض، بل الدّين لا يكون إلّا علم من عليم، ولهذا؛ فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة، التي تتنزّل نباء ورسالة تنسب لخالقٍ، ولا تنسب لمفكر.

وتعدّ الفِكَر من إنتاج العقل؛ ويعدّ الفِكْر من إعماله، ولأنّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأن تصنّف بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار، ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة، أم متلقيها؛ فهو المخيّر قبولا، أو رفضا، أو حيادا.

ولأنّ الإنسان مخيّر، فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان وجودا مستحيلا، أم معجزا أم ممكنا؛ فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعمال فكره ليكون عقله متهيأ ومتأهبا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر أمره. كما أنّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَره (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه

من فِكَر. ولهذا، فالفِكْر، هو: إعمال العقل، أما الفِكَر: فهي إنتاج العقل، وكلاها تقود المفكرين إلى ما يحقق أملا من ورائه آمال.

التكيّفُ موائمة:

التكيّف موائمة مبدأ قيمي لا يكون إلّا ضرورة من ضرورات الحياة؛ فالتكيّف الذي يعني المواءمة يستوجب في كثير من الأحيان تنازلات من المتكيّف إلى الموضوع المتكيّف معه، أو المتكيّف من أجله، وهذه التنازلات لا يمكن أن تتمّ إلّا للضّرورة، وبما أنّ الضرورة تستوجب ذلك، إذن، قد يحدث التكيّف ولا يتحقّق التوافق.

وبمعنى آخر، قد يحدث التقارب النفسي، أو التقارب في وجهات نظر المختلفين نتيجة مصلحة أو ضرورة سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية أو فكريّة، ولكن في معظم الأحيان لا يحدث التطابق بين المختلفين على الموضوع.

ومع ذلك قد يحدث التكيّف، ولكنّه لن يكون عن رغبة، كما هو حال السّجين الذي لا رغبة له بأن يكون داخل جدران السّجن مقيّد الحرّية، ومع ذلك عبر الزّمن سيتكيّف السّجين مع السّجن كأمر واقع، فالتكيّف في كثير من الأحيان يعدُّ قيدا على المتكيّف بغير إرادة، ولهذا؛ فشعوب الاتحاد السوفييتي تكيّفت بالقوّة مع النظام الماركسي اللينيني سبعين عاما، دون أن تكون لهم إرادة حرّة.

ولأنّ التكيف بأسباب الضّرورة، فلا يمكن أن يكون إلّا بعد القبول بتقديم تنازلات مادّية أو معنوية؛ فعلى سبيل المثال: تعدّ مهمة البوليس والجيش هي الحفاظ على الأمن في الداخل والحفاظ عليه من الخارج؛ فيجنّد الشّباب للجيش والشّرطة، ولكن للأسف الشّديد في الأنظمة غير الديمقراطية، الشّباب يجنّدون لمواجهة من لم يتكيّف مع النظام وحكومته المحكومة بأمر قمّة السّلطان غير العادل، وبذلك يُقمع الشّعب إن لم يتكيّف مع توجهات الحاكم وآرائه وسياساته الخاصّة.

وفي الأنظمة الدكتاتورية، تُعد مهمّة رجال البوليس، ورجال الجيش مهمّة وضع القيد على من لا يتكيّف مع الأمر الواقع.

ومن هنا؛ فالتكيف يستوجب تعديلا في السّلوك تجاه ما يتراءى للمختلف والمخالف، وإن لم يتمّ تعديل السّلوك؛ فالتكيف لن يتحقّق حتى مع البيئة الطبيعية كالجبال والوديان، والبرد القارس، والحرّ الشديد؛ فالإنسان عندما يضطرّ عن غير رغبة إلى العيش في بعض من أماكن الطبيعة؛ فهو بالزّمن سيجد نفسه متكيّفا مع المناخ والطقس المتغيّرين، وبالتكيّف يتأقلم ويكتسب مناعة، ولهذا فلا تكيف إلّا من أجل البقاء.

إذن، اكتساب المناعة هو الأساس في عملية تحقيق التكيّف من عدمه؛ فعندما يكتسب الإنسان المناعة من سياسات الأنظمة

القمعية يستطيع التعايش معها بلا مصادق؛ فيَتعمّد أن يُظهِرَ ما لا يُبطن حتى لا يشتدّ القيد عليه أكثر من غيره من الرّافضين، الذين بأسباب التكيّف يظهرون ما لا يبطنون.

وعليه، أصبح المواطن في بعض البلدان يتكيّف مع الحاكم، ونظامه، وأعوانه، وفي الوقت ذاته يتكيّف مع أعدائه، وهذا الأمر عوّده على أن يتكيّف مع الصّواب كما يتكّيف مع الخطأ.

ومع ذلك؛ فالتكيف قد يكون سالبا، وقد يكون موجبا؛ فعندما يكون مع الظّلم، والفساد، ومع السّلوك الانحرافي المخالف للدّين، والعرف، والقيم الحميدة، يُعدُ سلوكا سالبا. أمّا عندما يكون مع الخير والعدل وممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي، ومع الأخلاق التي يرتضيها الجميع، فيكون تكيّفا موجبا، وهكذا سيكون موجبا كلّما كان نتيجة للتوافق[37].

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

---

[37] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلافا واختلاف، ص 45 . 47.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم، ولذلك؛ فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ومع أنّ الكائنات خُلقت على خصائص وصفات، ولكن للمفاجآت أثر عليها، فبالرّغم من المفاجآت، غير أنّ الكائنات خُلقت على التهيؤ (التهيؤ الخَلقي، والتهيؤ السّلوكي)؛ ومن هنا، فالتكيّف يولد مع الولادة خَلقا، ثمّ، يتولّد بعد ذلك تدبّرا؛ فالكائنات كلّما أحسّت أو شعرت بما يعرّضها لما يُقلق، أو يشكّل خطرا عليها، تتهيأ لمواجهته حيطة وحذرا. ولذلك نجد بعضها يتلوّن مع ألوان البيئة تكيّفا واختفاء، وبعضها يتكيّف مع التغيرات الفصلية والمناخية، وبعضها العاقل يتكيّف مع ما يواجهه من إجراءات وأعمال في دائرة الممكن، ومع ذلك يبقى للفعل المضادّ أثره. فالبيئة وإن تكيّفت الكائنات مع متغيراتها، يظل لمتغيراتها صفات وخصائص خُلقيّة، مثلما للكائنات صفات وخصائص خلقية، ولهذا، فالكائن الضّعيف لا يستطيع أن يصمد كثيرا؛ فكثير

من النباتات والحيوانات تعيش في بيئة معينة، وتضعف في بيئة ثانية، ولا تنمو في بيئة ثالثة، أو لا تنضج ثمارها في بيئة رابعة.

فالتكيّف عملية ملائمة ومقدرة على التحسّن في بيئات مختلفة من أجل المحافظة على الحياة وبقاء الأجناس والأنواع، وقد يكون باكتساب خصائص جديدة، أو فقدان خصائص كانت سائدة. ممّا يجعل المتكيّف على حالة أو صفة معيّنة لم يسبق له أن كان عليها، وهو قدرة الكائن الحي على الاستجابة للمؤثّرات الطّارئة أو أيّ سلوك تطوّري بهدف البقاء.

ومع أنَّ النّشوء خَلقي، لكنّ بقاء الخلائق لا تساوي فيه؛ فهناك من يبقى متكيّفا حتى النّهاية، وهناك من يزول عدما، ومن ثمّ؛ فالتكيّف adaptation لا يكون إلّا عن قوّة، سواء أكانت قوّة بدنية أم عقلية أم مناعية.

ومع أنّ التكيّف قوّة، لكنّه يكون مع السّالب، ممّا يستوجب تقديم التنازلات من أجل البقاء؛ فالسّجين على سبيل المثال: إن لم يتكيّف مع السّجن سينتهي حيث لا مقاومة (لا قوّة).

فالتكيّف موائمة نفسية بين الأفراد والجماعات والبيئة التي تحيطهم، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع ضرورة التكيّف؛ فالسّجين الذي في بداية أمره سجين

لا يمكنه التكيّف مع السّجن، ولكن بمرور الزّمن يتكيّف معه كأمر واقع لا مفرّ منه، غير أنّه مهما تحقّق له من تكيف مع السّجن والسجّانين، لا يمكنه التوافق معهم ولا مع السّجن، وهنا، الفرق كبير بين التكيّف الذي لا يتمّ إلّا بتنازلات وعن ضرورة، وبين التوافق الذي لا يتمّ إلّا عن رغبة وإرادة؛ فالذين بأسباب الضّرورة يتحقّق لهم تكيّف مع السّجن، لا يمكن أن يكون لهم حنين إليه بعد أن يقضوا مُدد الأحكام الصادرة بشأنهم، ولذلك؛ فالتكيّف ميل يدفع تجاه تعديل السّلوك، أو تغيير اتجاهه وفقا لِما هو كائن.

والتكيّف كما يحدث مع الأمر السّالب يحدث مع الأمر الموجب، ولكن لا يحدث إلّا للضّرورة، ممّا يجعله بين ظاهرٍ وكامنٍ، ولذا؛ فعندما تنقلب المفاهيم، تنقلب السّلوكيات، ويصبح التكيف الظّاهر لا يعبّر عن الكامن، ومن ثمّ، يصبح الكامن متربصا بفرص النّجاة وقد ينتهزها.

فالتكيّف لا يكون غاية طالما هو قائم على تقديم التنازلات، بل الغاية تحقيق التوازن في عملية تفضي إلى المحافظة على النّوع أو الحياة الخاصّة.

وهذا ما حدث مع بائع الخضراوات (التشيكي) الذي كتب على المحل المرخّص له ببيع الخضراوات فيه (يا عمال العالم اتحدوا) وهو لم يعرف الأبعاد الفكرية لهذه المقولة، ولكنّه يعرف أنّ كتابة

هذه المقولة قد تقيه شرّ الحكومة وظلمها من أجل أن يبيع خضرواته بسلام، وهو غير مكترث بمضمونها الفكري، وهذا يدلّ على شعور داخلي مفاده:

أيّها المشترون أرجو المعذرة، أنا أعرف أنّ معظمكم مثلي لا يحبّ هذا الشّعار، ولكن الضّرورة الحياتية جعلتني أضعه على واجهة محلي لكي لا ترفعوا رؤوسكم إليه مرّة ثانية، ولكي تتمكّنوا من اختيار أحسن الخضراوات، وعليكم أن تراعوا ظروفي. لقد وضعته من أجل أن يقال إنّي صادق، ومن أجل سلامتي وسلامتكم، وأعرف أنّ أكثركم يعارضه سرّا. ولكن عليكم أن تعرفوا أنّ كتابتي هذه تعني: معارضتي العلنية له، من أجل أن أكون صادقا معكم، وكاذبا مع الحكومة التي يرضيها ما لا يرضيكم[38].

ومع أنّ التكيّف عملية تأقلم من أجل البقاء، وفيه من التنازلات ما فيه عن بعض الصّفات، لكنّه لا يعدّ ضعفا ووهنا، بل الضّعف والوهن يلحق من لا يستطيع تأقلما مع البيئات المختلفة؛ فينتهي بلا ثمن.

ولذلك؛ استنتج داروين ما عُرف باسم قانون الانتخاب الطبيعي؛ فمتى ما يوجد تنازع على البقاء بين الأفراد، واختلاف

[38] الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، 1988م، ص 26.

وتمايز في الصّفات، فإنّ هذا سيؤدّي إلى أنّ الكائنات التي تتمتع بصفات تميزها على غيرها كسرعة الحركة أو قوّة العضلات أو طول الرّقبة كالزّرافة مثلا، ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء وإنتاج مواليد جديدة، في الوقت الذي يفنى فيه خصومها ويزولون. ومن ثمّ، يرى أنّ التنازع على البقاء له تأثير انتخابي في إزالة غير الصّالح من الأفراد وفي الاحتفاظ بالصّالح، وحيثما يبقى الصّالح حيًا ويتكاثر، يهلك الضّعيف[39].

ولهذا؛ فالتكيف ارتقاء يُمكّن من الصّمود وتحدّي الصّعاب، ومن يتحمّل أعبائه، يتهيأ إلى بلوغ المأمول ولو طال زمنه.

التّوافق انسجام:

التّوافق قيمة اجتماعية وإنسانية بلوغها ممكن ولكنّه ليس سهلا؛ فمن بلغه تجنّب المظالم وأمّن الآخرين واطمئنَّ معهم، والتّوافق لا يكون إلّا بتطابق المطلب مع الرّغبة، وتطابق الحاجة المتطوّرة مع مشبعاتها المتنوّعة وظروفها الموضوعيّة، وهو المحقّق للرّضا دون تقديم تنازلات بغير حقّ.

[39] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 . 571.

فالتّوافق انسجام إرادي، تتطابق به الأقوال والأفعال مع الموضوع بين الأنا والآخر، ويحقّق انسجاما وتطابقا بين أراء وأفكار ووجهات نظر المشاركين في الموضوع الواحد ممّا يجعل المشاركة بين الطّرفين أو حتى الأطراف موجبة لتساوي كفّة التوافق إرادة. وهذا لا يعني ألا يكون التّوافق سالبا؛ فمثلما يتوافق الإصلاحيّون كذلك يتوافق المفسدون، ولكن الفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه.

ومع أنّ التّوافق واحد، إلّا أنّ للتوافق أنواعا موضوعية كتوافق الزّمن مع الزّمن وتوافق المكان مع المكان وتوافق الظّرف مع الظّرف وتوافق الودِّ مع الودِّ وتوافق الظّلم مع الظّلم، وهكذا التّوافق لا يتعدّد ومواضعه ومعطياته تتعدّد، حتَّى في القصاص لا حلَّ للمشكل ولا حكم فيه عدلا إلّا بالتّوافق، {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[40].

ولكن متى سيكون التّوافق سائدا بين الأفراد والجماعات والمجتمعات؟

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الإفساد ولا يعتدون.

[40] المائدة 45.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم المودّة.

. بعد أن يقدّروا الغير احتراما واعتبارا وأن يتقبلوهم ويتفهمون ظروفهم ثمّ يستوعبونهم (هم كما هم) من أجل مستقبل إنساني يأمله الجميع.

. بعد أن يلغوا من قواميسهم الفكرية أفعال الحرمان والهيمنة والإقصاء.

. بعد أن تصبح العدالة هي الحكم فيما هم فيه مختلفون.

. بعد أن يُصَحِّحوا المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة. وكذلك عندما لا يتمسّكون بوجوبيّة تماثل القيمة مع الواقع وكأنَّ القيم تمتلك مطلقية الثّبات؛ ففي بعض الأحيان الواقع يتقدَّم على القيم ممّا يستوجب العمل على تقييم القيم وتقويمها لكي تواكب حركة التغيّر والتقدّم إلى الأفضل والأجود والأنفع، وفي البعض الآخر الواقع يتخلّف كثيرا عن معطيات القيم ممّا يستوجب عدم الرّكون إلى الواقع المتخلّف والتمسّك بالقيم المستمدّة من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة.

ولأنّه التوافق؛ فيجب أن يُقبل ويتم الإقدام عليه، ولا يرفض، ذلك لأنّ الرّفض يتعلّق بما يكره حيث لا عدالة، بل في كثير من

الأحيان تكون الغاية من الرّفض بلوغ التوافق بين الأنا والآخر، ولذا فالرّفض للظلم خير يجعل النَّاس متحابين على الحقّ والعدل.

فالتوافق قيمة نفسية واجتماعية وإنسانية إذا سادت بين النَّاس كانت دليلا على انتشار الودّ بينهم، وإذا انعدمت قيمة التوافق لن يكون الود إلّا في خبر كان.

ولهذا؛ فمتى ما انتهت الخلافات بين النّاس سادت بينهم المودّة والمحبَّة، ولكن إن سادت بينهم المظالم وعمّت تماثلوا في ارتكابها، ومع أنَّ النّاس يتماثلون في ارتكاب المظالم، ولكنّهم لا يتّفقون ولا يتوافقون على ارتكابها، ولهذا فهم مختلفون وسيظلون كذلك إلّا من رحم ربّك.

والتساؤل:

ما هي مُحقّقات التوافق؟

أقول:

كثيرة، ومنها:

1 . تقبُّل الآخر وتقديره وتفهُّم ظروفه المتعدِّدة.

2 . استيعاب الآخر (هو كما هو) والعمل من أجل بلوغ ما هو أفضل للجميع.

3 . الاتّفاق في وجهات النّظر أو القرار أو الفعل أو العمل المشترك، دون ضغوط من أحدٍ على أحدٍ.

4 . عدم تقديم التنازلات على حساب ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليّات.

وذلك فالتوافق لا يكون إلّا بين العقلاء، أمّا التكيّف فينسحب على العقلاء وغيرهم كالمكان والأشياء التي نتكيّف معها ولا نتوافق معها على الرّغم من اشتراك المفهومين بمعطيات كثيرة، ذلك أنّ التكيّف غالبا ما يكون اهتمامه ماديّا، أمّا التوافق فينصبّ على الجانب الرّوحي والعقلي والمعنوي من حيث الأفكار والمعتقدات والآراء والطموحات والآمال؛ فهو جانب فكري عماده العقل، بينما التكيّف يكون ماديّا مرحليّا، كأن يتكيّف الإنسان مع الغُربة أو السّجن أو يتكيّف مع جلسة معيّنة تُفرض عليه بوضع معيّن لمدّة محدّدة؛ فيجد نفسه مضّطرا للتكيّف في فترة زمنية معيّنة لظرف خاصّ ليس له فيه رغبة ضمن بيئة فرضت نفسها عليه، ولهذا تنتفي فيه الرّغبة على الرّغم من القبول بالواقع، ومن هنا يكون التكيّف قائما على التنازلات، قلّتْ تلك التنازلات أم كثُرتْ، وبما أنّ التكيّف لا يتمّ إلّا بتقديم التنازلات، ماديّة حينا بدفع ثمنٍ مادي، ومعنويّة حينا آخر كأن يوضع الإنسان في موقف لا يرضاه لنفسه

مع القبول به، أو ينزل منزلة هي أدنى من منزلته فيتكيّف معها إلى حين انتهاء الظّرف والضّرورة.

أمّا التّوافق؛ فيقوم على الفكرة سواء أكانت مؤدّية إلى الرّفض أو القبول، انطلاقا من إرادة ومبدأ يستهدف غاية مؤسّسة على الرّغبة والأمل. وهذه الرّغبة تدفع إلى بناء جسور تلاقٍ وإقامة علاقات قويّة مع الآخرين والتوافق معهم، بحيث تقوم على أساس قناعة العقل حجّة وبرهانا.

ومع أنّ من غاية التوافق تحقيق التفاهم والتعاون والانسجام والسّلام، ولكن في بعض الأحيان لا يتحقّق ذلك إلّا بإعداد العدّة المرهبة للخصوم، ومن هنا تظهر غاية من غايات الإرهاب التي تصبو إلى تحقيق الأمن والسّلام والطمأنينة في إقامة علاقات طيّبة بين فرد وآخر، أو بين مجتمع وآخر أقرب إلى التفاهم منه إلى الصّراعات والنزاعات، إسعادا للإنسان بمعطيات الخير التي تُجنى من التوافق، وطرد الشرّ ومعطياته بمعطيات قمعيّة، ذلك أنّ الإنسان بفطرته نزّاع إلى الخير يقوده في ذلك عقل يجيد التدبّر.

وعليه؛ فالفرق كبير بين التكيّف الذي يستوجب تقديم التنازلات، وبين التوافق الذي يحقّق الانسجام رغبة وإرادة، ومن هنا؛ فالتكيّف لن يكون غاية طالما هو قائم على تقديم التنازلات بالإكراه، بل الغاية هي التي تؤدّي إلى القبول والرِّضا في عملية توازن

تفضي إلى المحافظة على المال والنفس والكرامة التي تُشعر بالتّوافق بين جميع الأطراف على أساس ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات من قبل الذين يتعلّق الأمر بهم.

وهنا؛ فالتوافق غاية إنسانية لا تكون سائدة بين النَّاس إلّا بتقدير قيمة الإنسان الذي من حقّه أن يقبل ويرفض، ويأمر وينهى، ويتكلّم ويعبّر، ويقرّر ويقدِم على تنفيذ ما يقرّه دون أن يكون على حساب حقوق الآخرين ومجالات امتدادهم، ولذا فمن حقّه الانتقاد كما من حقّه التقييم والمحاسبة والتقويم والتصحيح والإصلاح والبناء والإعمار، ولا يجوز لأحدٍ أن يقصيه أو يحرمه من ذلك، ومن يحاول ذلك ينبغي أن يزاح من الطّريق الذي لا يعبّد إلّا من أجل مستقبل الجميع دون فرقة ولا فوارق.

والتوافق لا يكون بين النَّاس قيمة سائدة إلّا عن إرادة، ومتى ما بلغ النَّاس التوافق، بلغوا الحلّ الذي يجد الإنسان نفسه به مقدّرا ومعتبرا، فقمّة السُّلطان عندما يكون صوته صوت النَّاس يكون هذا الصّوت دليل التوافق التَّام بين الشّعب وقمّة السُّلطان، وعندما تختلف الأصوات بين الشّعب وقمّة سلّم السُّلطان لن يعلو صوت

على صوت الرّفض الذي ينقل أصحابه من التسليم بغير حقّ إلى العمل المحقّ له[41].

المكانة ترسيخ:

المكانة تبوء مقام على الرّفعة المأمولة من أهل الدّراية والمعرفة، وهي ما يبلغ بالكلمة الحجّة والعمل المنتج والخُلق الرّفيع، وهي التي تنال التقدير والاعتبار من قِبل النّاس، والنّاس تأملها وتسعى إلى ترسيخها قيمة.

المكانة لا تكون إلّا على الرّفعة، ولا تترسّخ ارتقاء إلّا بها، ومن ثمّ؛ فمن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائلا، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائلا؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء مأمولا.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيما وفضائلا؛ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد، شهد حقّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلّمَ علّمَ، وإذا اكتال أوفى، وإذا رأى فتنة بين النّاس أصلح، وإذا غضب

[41] عقيل حسين عقيل، الرفض استشعار حرية، ص 84 . 92.

تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفو.

ولذلك؛ فالتمسّك بالقيم لكونها قيما، لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولا وسلوكا، ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربية وتعلّما وتعليما حتّى يجسدوها سلوكا كما جسدها أهل المكانة.

فأهل المكانة هم دائما في علوٍ قيمي قولا وسلوكا؛ علوٍ عن الرّذيلة وما يؤدّي إلى ارتكاب أفعالها وأعمالها التي ترفضها القيم الحميدة والفضائل الخيّرة.

ولأنَّ الكبرياء تعظيم شأن؛ فهي التي تجعل أهلها مسؤولين وكراما أمناء، وفي المقابل من لا يكون عليها قيما وفضائلا لا يكون إلّا في دونية وسُفلية، ولهذا فإنَّ أوطان المتخلّفين تتخلّف بأسبابهم حيث لا مسؤولية ولا أمانة لديهم ولا إخلاص للوطن ولا كبرياء لهم عن النّواقص والرّذائل والمفاسد وما يُعيب وما يشين.

إذن المكانة والكبرياء تعظيم شأن؛ فالكبرياء كونه قيمة حميدة لتعظيم الشأن؛ فهو الذي به يتمّ بلوغ المنزلة العالية والمكانة الرّفيعة، في مقابل آخرين لا ينزلون إلّا في الأماكن الدّونية التي لا تليق بأصحاب مكارم الأخلاق.

ومن بلغ المكانة العالية بلغ الرّفعة التي يأملها من خُلق في أحسن تقويم ولم يخالف، ومن بلغ المكانة عملا وسلوكا نال الاحترام والتقدير والاعتبار من قِبل الغير، ولهذا فالمكانة تعظيم بما هو عظيم، ورفعة قدرٍ بما هو رفيع، فأهل المكانة يتّعظون بما هو عظيم ويأخذون العبر من كلّ عبرة ومعتبر.

ولذا؛ فأهل المكانة لهم من الكبرياء ما لهم، فأصحابها يتكبّرون عن كلّ ما من شأنه أن يسيء للقيم والأخلاق والأعمال والأقوال، فالكبرياء تعالٍ عن كلِّ ما يؤدّي إلى الفتنة، أو يسيء للنّاس، ممّا يجعل الكبرياء هو المحقّق لرفعة المكانة المقدّرة والمعتبرة، ويجعل لصاحبها شأن بما اختار أن يكون عليه بذوقٍ رفيع.

وعلينا أن نميّز بين قيمة التكبُّر والاستكبار؛ فالتكبّر قيمة حميدة لتعظيم الشأن بعدم النزول في منازل السّافلين، كالتكبّر عن القول الزّور وعن أيِّ نعوت لا حقائق تسندها، وهو التكبُّر عن الأفعال التي لا تليق بمكارم الأخلاق، وهو الإخلاص في العمل مع وافر الأمانة، وهو السّلوك المثال الذي لا يقدر عليه إلّا من له مكانة مقدّرة. أمَّا الاستكبار فهو الاستعلاء عن الحقيقة والجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجّة دامغة؛ فالمستكبر يقف على الحقيقة ويغض النّظر عنها، بعدم اعترافه بأنّها الحقّ، مع العلم

أنَّ هذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقيقة، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حقٍّ.

وهذا يعني أن للتكبّر صفتين:

الصفة الأولى: هي التكبُّر بالحقّ، عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، وهذه من صفات الذين يقولون الحقّ ويعملون على إحقاقه، أي أنَّهم الذين يتعالون عن المكر والكيد وسفك الدّماء في الأرض بغير حقّ وإن حكموا بين النَّاس حكموا بالعدل، وإن قالوا صدقوا، وإن عملوا أصلحوا وإن عاهدوا أوفوا.

الصفة الثانية: التكبُّر عن الحقّ، بالحياد عنه والميل كلّ الميل إلى ما يؤدّي إلى إخفائه ومغالبته بالباطل، والمتكبّرون عن الحقّ همّ الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي النَّاس، وهؤلاء همّ الذين إن قالوا كذبوا، وإن عملوا أفسدوا وإن عاهدوا أخلّوا ونقضوا.

وعليه: فإنَّ للتكبّر مبرراته لكونه قيمة حميدة، ولا مبرّرات له أن لا يكون قيمة حميدة، ولهذا تُحرّف القيم وتقوّض من قِبل أولئك الذين ضلُّوا فافسدوا فظلموا فطغوا وتكبّروا كما طغى وتكبّر من قلبهم المتكبّرون بغير حقّ، ولكن دائما التَّاريخ يمدّ بالعبر فمن أراد

أن يعتبر فعليه بالتَّاريخ لأخذ العبر منه، ومن لم يرغب في ذلك فالحاضر يكفيه درسا حيّا.

ولذا فالمفسدون همّ الذين يتكبَّرون عن الإصلاح، أمَّا المصلحون أهل المكانة فهم الذين يتكبَّرون بفعله، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[42]. إنَّ استكبار إبليس كان استكبارا عن الحقّ، أمَّا تكبُّر الملائكة فكان تكبرا بالحقّ، وهنا فالسّجود يدلُّ ويُعبِّرَ عن الطَّاعة وبلوغ المكانة الرّفيعة التي تؤمل من الخيرين.

والمتكبّر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقيقة يأبى إظهارها، ولا يأخذ بها، أمَّا المتكبّر بالحقِّ فإن دعي لنقيصة تكبُّر عنها، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر، ولذا فالتكبّر صفة محتملة للإيجاب والسّلب؛ فتكبُّر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي قيمة إيجابية، وفي المقابل ارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض قيمة سلبية، ذلك لأنَّ الكبرياء لا يكون إلّا نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق ورفعة مكانته، والذَّات التي فيها كبرياء المجتمع، وكبرياء الضّمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية، ولذا ينبغي أن يتكبّر الإنسان عن:

---

[42] البقرة، 34.

الجهل:

فالجهل أساس كلّ داء يصيب المجتمع الإنساني تخلّفا، لأنَّ الجهل من شأنه أن يؤدّي بالإنسان إلى الانحطاط في أماكن الرّذيلة والمفاسد، والذين يتمسّكون بالجهل بأسبابه؛ فهم في حاجة لمنقذ يخرجهم من ظلماته إلى نور الإيمان والعلم والمعرفة التي بها يرشدون.

ولأنَّ الصّراع من البدء الخلقي هو صراع بين جهل وعلم (شرّ وخير) لذا فبالعلم تتحسّن الأحوال وبالجهل تسوء، ولأنَّها كذلك فالصّراع بين الخير والشرّ لم يحسم أمره بعد؛ فهو باقٍ ما بقي الجهل في مضادة العلم، ولهذا فالذين يجهلون حقيقة أنّ استقرار أمن الوطن يكمُن في حقوق تمارس وواجبات تؤدّى ومسؤوليّات يتمّ حملها، فهم لن يناموا ساعة واحدة نوما هادئا وهنيئا، والذين يعلمون حقيقة ذلك ينامون في أوطانهم نوما آمنا هنيئا بمشاركة النَّاس فرحتهم بالممارسة الفعلية للحقوق والواجبات والمسؤوليّات؛ مع توسيع دوائر المراقبة والمحاسبة والمسائلة للجميع حيث لا قمّة سلطانية إلّا من الشّعب، ممّا جعل الحكّام في دول ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي يختارون عن إرادة لفترة محدّدة دستورا، وهم بذلك يقبلون ولا يتجاوزون قرارات ودستور الشّعب قمّة. ولهذا لا وجود للمؤامرات ولا الانقلابات ولا المظالم التي تدور رحاها في أوطان التكميم.

الشهوات:

إنَّها الشّهوات التي خلقها الله تعالى فينا، ولكنّ البعض لم يحسن فهمها وتهذيبها وضبطها والسّيطرة عليها، ممّا جعلها هي المسيطرة والقائدة للباطل والمفساد، قال تعالى: {زُيِّنَ للنَّاس حبّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[43]؛ فالشّهوات متوافرة في الحياة الدّنيا، ولكنّ البشر تفاوتوا في التعلّق بها، فمنهم من اشترى الحياة الدّنيا بما تحويه من هذه الشّهوات، ومنهم من اشترى الآخرة بما فيها من خير عظيم وفوزٍ دائم، ولأنَّ الإنسان خلق ليكون إنسانا بحقّ في هذه الحياة الدّنيا، فلا ينبغي أن يقصر شهواته على الدّار الآخرة كما لا يقصرها على الدّار الدّنيا، ذلك لأنَّ الخالق خلق الإنسان في أحسن تقويم ليكون وارثا في الدّارين، ولهذا لا ينبغي أن ينسى نصيبه من الدّنيا، ولكن لا ينبغي أن يتجاوز الحدود القيمية والفضائلية التي أقرَّ لها الخالق حدواد، ليكون فائزا في الدّارين.

وعليه: نلاحظ عندما تبدأ الدّعايات الانتخابية في أوطان المتقدّمين علما وثقافة تُكشف الأوراق من قِبل الجميع حتَّى لا يكون الرّئيس المنتخب متّهما بارتكاب المفاسد الأخلاقيّة والسياسية والاقتصادية، ولهذا يكون الاختيار بين الأفضل ومن هو أفضل منه،

[43] آل عمران 14.

وبين الأقدر والأكثر مقدرة، أمَّا في بلدان الغير؛ فغير ذلك، الحاكم يورّث حكمه أوّلا لأبنائه، وإن لم يكن له أبناء فلإخوته، وإن لم يكن له إخوة فالأقربون الأقربون، وهكذا حتَّى بلوغ القبيلة والعصبيّة.

إذن عندما يقبل الإنسان أن تسيّره الرّغبة فبصيرته تعمى وتقوده نحو الانحطاط، لذلك لابدَّ للإنسان من الترفّع عن هذا الانقياد الأعمى للشّهوات ورفض سيطرتها عليه، وأن يتكبّر عن هذه المفاسد المدمّرة، فبتكبّره الإيجابي هذا سينال المنزلة الرّفيعة والمكانة العالية، وسينال احترام نفسه واحترام النَّاس من حوله؛ فالشهوات عندما تجعل الإنسان عبدا لها لا يملك لنفسه شيئا أمامها سوى الضّعف والوهن والقبول بالانقياد أمام ما يشبع الشّهوة ولو كانت مفاسد بيّنة[44].

ولأنَّ أمر المكانة متعلّق بالرّفعة وتحقيق الأمل؛ فمن يبلغ المكانة بلغ الأمل الذي لم يبلغه الغير، ومع ذلك وراء كلّ مكانة مكانة لآمال أرفع.

المُمكنُ ارتقاء:

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي،

[44] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم من التكميم إلى تفجّر الثورات، ص 60 . 66.

وفي المقابل هناك من يرى الارتقاء تطوّرا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقية لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك؛ فالأمل لا يفارقه، ولهذا؛ فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدّي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم، ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا

بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، لكنّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنّه الأمل في الزّمن الحاضر، لكنّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيا، وجهدا ينجز وفقا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات

مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم،

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدا من الاحترام والتقدير والاعتبار، وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّد على حساب الآخرين.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجود لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه المِمكِن ارتقاء؛ فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه، لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقّع؛ فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن، ولهذا، إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع، يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتا. ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبّباته لاحقا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع.

فالمتوقّع وغير المتوقّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقّع يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقا لما هو موجب متوقّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط، ولذلك؛ فهم دائما يفاجئون لكونهم لم يحدّدوا لغير المتوقّع موضعا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات وفقا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجبا وما هو متوقّع سالبا، وما هو غير متوقّع موجبا، وما وهو غير متوقّع سالبا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلا؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقّع مثلما يخطط للمتوقّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وبين ارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيات ويعدّ البرامج وفقا لِما هو متوقّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث، ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنّ دائرة الممكن هي التي ينصهر فيها الزّمن حاضرا، أي: أنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي ذات الوقت يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرا. أي: إنّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يراه وكأنّه الآن يواجهه تحدٍّ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا، ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه

مغالبة، حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة المأمولة ارتقاء.

فالممكن احتمالا يسبق ما يمكن أن يكون محتملا أو غير محتملٍ، ولهذا؛ فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلا؛ فالممكن المتوقّع وغير المتوقّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل، ومن ثمّ، يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا، يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطله.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذا؛ فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكن، ولكنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدودية إمكاناته، وبالرّغم من ذلك؛ فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء. ولذلك؛ فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقّع مع غير متوقّع، ولكن تظل دائرة الممكن واسعة؛ فمهما فكّرنا؛ فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكن، ما كان البحث عنه، ولهذا؛ فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس؛ الذي كان الأمر بالنّسبة له غير متوقّع، وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقّعا من قبل الذين قدّموا

له الإهانات، ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقّعين فعل ثالث غير متوقّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفأ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن على من قمّة السُلّم السّلطاني.

إنَّ العلاقة بين المتوقّع وغير المتوقّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازما معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها؛ فليس له إلّا المزيد من المفاجآت.

الصّعب تحدّي:

ولأنَّ الارتقاء ممكن؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا وجب العمل على تدليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، ولكن لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمّا الاستثناء: (الاستسلام إليها).

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن لتحدي الصّعاب ارتقاء يُمكّن من أداء العمل الموجب، وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل؛ فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدّافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات، ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته؛ فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

ومن تهيّأ واستعدَّ لتحدي الصّعاب وأقدم عليها ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيها، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادا؛ فلا إمكانية، حيث لا إرادة، ولذلك؛ فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصّعاب؛ أي لا تحدّي بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب لتحدّي الصّعاب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء عن عزيمة بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّذ ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله تعالى.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذا؛ فمن يتأهّب لأداء الفعل الصّعب ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّت فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر عند تحدّي الصّعاب ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاح مساندا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنّها غايات، ولكنّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية بعد أمل.

الاقتداء اتباع:

الاقتداء اتباع لِسُبل بيّنة، ذات معاني ودلالات تطمئن الآخذين بها إذا ما اقتدوا بما يرشد إليها وجوبا، ذلك لأنَّ الاقتداء ارتقاء لا يؤدّي إلّا لموجب، وفي المقابل الاقتداء انحدار لا يؤدّي إلّا لسالبٍ، ومن هنا، يتولّد الحوار بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار؛ فالذي يؤدّي إلى الارتقاء لا غاية من ورائه إلّا اتباع الحقّ، والاقتداء به، وبمن يتّخذه سلوكا وعملا مفعولا، أي: أنّه الاقتداء الذي لا يخضع للبيع والشراء، ذلك لأنَّ ما يباع ويشترى يُدخِل أصحابه في خانة التبعيّة والانقياد وفقا للثّمن المباع به أو الثّمن المشترى به؛ فالاقتداء ارتقاء يستوجب اتباع الحقّ الذي لا يضع مُتّبعيه في خانة الدّونية، {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[45]، بمعنى: اتبعوا من جاء من أجلكم دون أن يسألكم مقابلا، أي: اقتدوا بمن يراكم قيمة في ذاتكم لا من لا يراكم إلّا بما تقدّموه بيعا أو شراء.

ولذلك فالاقتداء الحسن قوّة لا يكون إلّا من قِبل الذين لهم من العزيمة ما لهم، ولهم من الآمال الحسنة ما لهم، وفي المقابل لا يؤدّي إلى الانحدار إلّا الضّعف الذي له من القيم السّلبية ما له،

[45] يس 21.

كالشّهوة، والشّخصانية، والطّمع، والاتّكالية والنّفاق والجبن والخيانة، ومن ثمّ؛ فالاقتداء لا يكون اتباعا إلّا عن رغبة وإرادة.

ولهذا؛ فالاقتداء اتباع لا يكون إلّا بتوفّر الحُجّة المحقّة للحقّ والمدحضة للباطل،، وهو لم يكن تقليدا مورّثا بغير حُجّة؛ ذلك لأنّ التقليد المورّث في بعض الأحيان لا يزيد أصحابه إلّا دونية وانحدارا، {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}[46] ومع ذلك؛ فالذين لا حجّة لهم، هم الذين يجب حوارهم وجدالهم حتى يتحرّروا من قيود التقليد الحائل بينهم وبين الارتقاء، ولذلك؛ فاتباع العقل اتباع قدوة وحُجّة، وليس اتباع موروث وأشخاص؛ فالموروث الذي لا يُمكّن من أخذ المواعظ والعبر من التّاريخ، هو مورث مُفلس حيث لا قيمة، وهذا الأمر يجعل البعض كمن يلكّ العلكة ثم يخرجها من فمه ليتركها لمن بعده لعلّه يلكّها، وهذا ما يؤدّي إليه التقليد المفسد للقيم، وإن لم يدرك هؤلاء البعض من النّاس مخاطر ومفاسد التقليد عن غير دراية، سيجدون أنفسهم يعيشون عصرا قد تجاوزته العصور، {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[47].

فالتقليد الذي ينبغي الأخذ به، هو الممكّن من تجاوز ما يؤلم، أو ما ينذر بألم، وهنا، وجب التمييز بين ما يمكن أن يكون تقليدا

---

[46] الزخرف 22.

[47] الأعراف 142.

لإظهار القدوة الحسنة، وبين ما هو أهواء بمبررات مجهولة، {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[48]؛ فينبغي أن يكون التقليد والاتباع للفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، والنّاس القدوة، كما كان إبراهيم الذي وُصِفت قدوته بالأمّة، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}[49]، أي؛ فمن أراد أن يكون قدوة حسنة؛ فعليه أن يستوعب القيم الحميدة للأمّة كلّها، ثم يجسّدها في سلوكه كما جسّدها إبراهيم عليه السلام، لتكون من بعده بين أيدي النّاس رحمة تجمع الشّمل على الكلمة السّواء.

فالاقتداء الذي ينبغي أن يتّبع هو الذي أساسه الحُجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وليس تقليدا للأفراد في ذواتهم، ذلك لأنَّ الفضائل والقيم تبقى، أمّا النّاس فزائلون، {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[50]. أي: اتبعوا ما يبقيكم على المكانة والرّفعة، ولا تتبعوا الزائلين، وإن أردتم أن تكونوا قدوة حسنة وخلائف في الأرض؛ فخذوا ما أمر الله به ارتقاء؛ لتجعلوه تقليدا لمن خَلفَكم، وهو التقليد الذي يمكّن مَّن خلفكم مِن تنظيم حياتهم على المحبّة والوفاق، ويمكّنهم من العمل المنتج بلا مظالم.

---

[48] الجاثية 18.

[49] النحل 120.

[50] الأعراف 3.

ومع أنّ الاقتداء بالفضائل لا يكون إلّا في مرضات الله، ولكن حتى وإن أخذ الإنسان بكلّ ما قاله الله؛ فلا يمكن له أن يكون الله، بل يكون قدوة حسنة في مرضاة الله، وهو الذي خُلق الإنسان من أجله، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الخالق قد خَلق العباد لمعصيته؟

وكذلك، وإن أخذ الإنسان بكلّ ما جاءت به الرّسُل؛ فلا إمكانية لأن يصبح أحد رسولا، ولكن تقليدا بإمكانه أن يكون قدوة حسنة. {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[51].

ولهذا؛ فالتقليد الحسن يجعل من المقلِّد قدوة حسنة، وفي المقابل التقليد السّيء، لا يجعل من صاحبه إلّا سيئا. ومهما بلغ التابعون من التقليد؛ فلن يكونوا مبدعين إن اقتصر تفكيرهم على التقليد فقط، ولذا؛ فالقدوة الحسنة يمكن أن يكون من الذين قضوا نحبهم كما هو حال الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[52]، وكما هو حال رجالات التاريخ مثل الشيخ عمر المختار، والشيخ عبد القادر الجزائري وغيرهم كثير؛ فهؤلاء ومن كان مثلهم مع أنّهم ليسوا على

[51] الأحزاب 21.

[52] الممتحنة 4.

قيد الحياة، ولكنّهم خير قدوة، ولكلّ رسالته التي بقيت حُجّة بين أيدي المقتدين به.

أمّا القدوة على قيد الحياة فإلى جانب كونه قدوة فضائل وقيم، ولكن ينبغي أن يضيف إلى ما جعله قدوة، ما يجعله قدوة أكثر ارتقاء، وهكذا يصبح الاقتداء من حسنٍ إلى ما هو أحسن من أجل بلوغ القمّة قيما وفضائل.

ومع أنّ التقليد لا يكون إلّا لسابق، ولكن دائما من أجل الارتقاء التقليد الحسن يتجدّد، والتقليد ارتقاء دائما للأحسن حتى وإن جاء ممّن هو أقل مكانة، كما هو حال ابن آدم الذي كان الغراب أكثر منه معرفة بما يُمكن أن يُقلّد؛ فابن آدم الذي قَتل أخاه ولم يكن يعرف كيف يواري سوءته، وقف عاجزا في حيرة من أمره إلى أن بعث الله غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه، {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[53].

إذن، التقليد ارتقاء لا يكون إلّا بالمعرفة المرشدة لما هو أفضل، وممّن تكون؛ فالأشخاص لو لم تكن لديهم المعرفة الكافية والواعية؛ فلا إمكانية لأخذهم قدوة، وعندما يفتقر الإنسان إلى المعرفة

[53] المائدة 31.

الحسنة؛ فلا إمكانية لأن يكون قدوة، ومن هنا؛ فمن تكون له المعرفة ارتقاء يكون قدوة حسنة[54].

ومن ثمّ؛ فالأخذ بالقيم والفضائل تقليد يخلق القدوة الحسنة التي تأخذ بالاقتداء والاعتزاز الذي يجعل للإنسان قيمة؛ فالأبناء أوّل من يقتدون به قدوة هم آباؤهم إن كانوا قدوة، ومدرسوهم إن كانوا قدوة، ثمّ ينضجون بحثا عن مكانة تليق بهم وفقا لما يأملونه ارتقاء، ولذلك؛ فالقدوة الحسنة تترك أثرا طيبا لدى الأجيال، في مقابل ما تتركه القدوة السيّئة من أثر غير حميد؛ فمن يقتدي بالقول والسّلوك والفعل والعمل الطيّب يجد نفسه مقتديا بما هو مرغوب فيه قيمة وفضيلة، ومن يقتدي بغير ذلك سيجد نفسه على غير قيم حميدة ولا فضائل خيّرة؛ فالقدوة الحسنة تبقى قدوة حتى وإنْ انتهى أصحابها؛ فالأنبياء كونهم قدوة حسنة هم أحياء (حجّة وعقيدة، وفعل وعمل وسلوك)، وهكذا رجالات التاريخ وصنّاعه قدوة.

وعليه:

فالمربّي يكون قدوة حسنة، متى ما نقل للنشء تجاربه الموجبة، وخبراته النّافعة، وقيم المهنة الرّاقية، وفضائل المجتمع الخيّرة، وفي المقابل

[54] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون، ص262 . 266.

قد يكون قدوة سالبة إذا لم يتطابق قوله وسلوكه وفعله وعمله مع أخلاق المهنة وقيم المجتمع وما ترتضيه الإنسانية.

وهكذا المعلّم قدوة حسنة، متى ما نجح في حمْل المعلومة المتجدّدة ارتقاء، وكذلك الأم قدوة حسنة موجبة، متى ما نجحت ارتقاء في غرس مشاعر الأمومة في أبنائها، وفي المقابل تكون قدوة سيئة متى ما انحرفت منهجا وخُلقا وسلوكا، وكذلك الأب يظل قدوة حسنة متى ما غرس عاطفة الأبوة في أبنائه جنبا إلى جنب مع قيم المجتمع المفضّلة، ويكون قدوة سلبية متى ما انحرف عمّا تفضّله الإنسانية من قيم.

وبما أنَّ القدوة الحسنة حلقة وصل تربط الأجداد بالأحفاد، إذا؛ فتواصل الأجيال يتطلّب القدوة، وتواصل الحاضر مع الماضي يتطلّب الذّاكرة، وهكذا تواصل الحاضر مع المستقبل يتطلّب الأمل الذي تحفّزه القدوة الحسنة لما يجب أن يكون عليه ارتقاء.

الأهداف إنجاز:

الأهداف لا تكون إلّا بعد وضوح رؤية تجاه ما يجب الإقدام عليه، ولهذا فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ

ارتقاء. وفي هذا الشأن الأمر لا يزيد عن كونه أملا، وسيظل أملا، لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين في خصوصياتنا وفي آمالنا وإن اتفقنا في بعض منها، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[55].

فالاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية،

[55] هود 118، 119.

ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة مأمولة.

إذن وجب التدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، ولهذا لا يمكن أن تبلغ الغايات العظام بلا أهداف والأغراض من ورائها حافز ودافع.

الغايات بلوغ:

ولأنّه لا تمدّد إلّا لغاية، إذا؛ فمن الذي يعلم تلك الغاية؟

يعلمها الذي يدركها قبل بلوغها؛ فهي لم تكن هدفا مشاهدا، بل هي ذلك المجرّد الذي يدرك ولا يشاهد، والغاية من التمدّد على مستوى الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يتمّ بلوغها بعد إنجاز الأهداف وتحقيق الأغراض.

ولذا؛ فالغاية من التمدّد المطلق لا يعلمها إلّا العليم المطلق؛ فمعرفة الغاية من تمدّد الكون هي متجاوزة لدائرة الممكن؛ فلا تدرك إلّا من خارجها (من قِبل من بيده العلم المطلق) الذي خلق ويخلق وسيخلق، {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}[56].

يفهم من هذه الآية: أنّ ما اكتشفه علماء الفيزياء من تمدّد كوني، لا مفاجئة فيه لمن يعلم أنّ صفة الخالق هي الخلق بلا انقطاع؛ فهو الذي خلق الكون (السّماء والأرض)، وهو الذي خلق الأكوان (السّماوات والأرضين)، وهو الذي خلق التمدّد الكوني بلا انقطاع (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) وهو الذي بيده نهاية الكون {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[57].

---

[56] الذاريات 47.

[57] الأنبياء 104.

فعلماء الفلك والفيزياء وكذلك المؤمنون بالرّغم من خلافهم على خَلقِ الكون، لكنّهم يتَفقون على أنّه لم يعد بعد بلوغ الغايات إلّا النّهاية، ولذا ينبغي أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد الغايات وبلوغها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أولا بأوّل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا؛ فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي تحديد أهداف أهم من التي أنجزت، ثم من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء والغاية المأمولة من الآملين.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا، لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة وأمل.

إنَّ قاعدة تحديد الأهداف مؤسّسة على الإنجاز، وإلّا لا داعي لتحديدها، أي: كلّ ما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهمية، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية.

ولذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدفه، ولكنّه لا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية؛ وكذلك هناك

من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالأهداف ارتقاء: ينبغي أن يكون من ورائها أغراض تكمن من ورائها غايات واسعة.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء يُنجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

ومن ثمّ؛ فمن يريد أن يبلغ الغايات العظيمة؛ فعليه أن يجعل أهدافه درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأوّلى، ولذا؛ فلا ينبغي أن يغفل أحد من بني آدم ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطاما؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاء.

ومن ثمّ، ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

وكلّما أنُجز هدف، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف أهداف من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا أنّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما عملوا وفقا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه قمّة.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدفا فوق هدف، وغرضا فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاء. ومع ذلك؛ فهذا الأمر لا يزيد عن كونه أملا، وسيظل أملا، لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[58].

إنّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض

[58] هود 118، 119.

والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

الاختلاف قبول:

الاختلاف قيمة تميّز وخصوصية، حيث لا تطابق بين المخلوقات، وكان الاختلاف أوّل ما كان، ألا يكون المخلوق مثل ما خلق منه، فآدم كونه من تراب لم يكن ترابا، ومن يحاول المقارنة بينه وبين الطينة التي خلق منها فلا يلاحظ تماثلا، بالرّغم من أنّ عناصر خلق آدم قد تمّ التعرف عليها ترابا.

ولهذا؛ فالذي خُلق من تراب لم يبق على طينة خلقه الأوّل، بل اختلف عنها كلية؛ فأصبح خَلقهُ من نطفة، ولا إمكانية للتّطابق، وهكذا كان الاختلاف خلقا (ذكرا وأنثى) وظل الاختلاف اختلافا مغريا لإيجاد علاقات متنوّعة بين المختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[59].

[59] هود 118، 119.

ولأنّهم مختلفون وسيظلون مختلفين، جعل الخالق لكلّ جنس ونوع عقلا يميّزه عن غيره؛ فالطّيور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما اتخذ من الجبال بيوتا، ولو لم يكن للفئران عقلا ما أرهقت الفئران عقل القطط، وهكذا الغربان ذكاء عقولها تجاوز معرفة الإنسان.

ولأنّ الاختلاف أساس النّشوء الخلقي؛ فالاختلاف أساس التشابه، وحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، الذي هو دليل الخصوصية والتميّز والتنوّع بين الأزواج جميعها.

ولذلك؛ فالنّشوء تشابه حياتي واختلاف خصوصيات، ومهما كان التشابه متقاربا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات؛ فهو لا يعني تقاربا في كلّ الصّفات والخصائص؛ فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابها مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فلا شكّ أنّ هذا الأمر لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

إنّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه

الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة ويمكنهم من تحقيق آمالهم عدلا وارتقاء.

ومن هنا، كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، وبين من يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاء، وبين من يتخلّى عنه دونيّة وانحدارا، وبين من يرى الحرّيّة حيث لا إكراه، وبين من يراها تمدّدا خارج الحدود، وبين من يرها لا تكون إلّا وفقا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها حقوقا تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين، وسيظلون إلّا من رحم ربّك.

ولأنّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم؛ فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف البعض بعضا، ولا استغراب أن يتصادم البعض مع البعض، ولكن الاستغراب ألا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلّ حيثما حلّ.

وعليه:

في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء، أمّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافة؛ فلا نبي ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أنزل، وبقى الأمر بين النّاس شورى، سواء أكان أمر النّاس سلما أم حربا، أم سياسة داخلية، أم سياسة خارجية؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدّر ويحترم ويعتبر؛ فيقر ويؤخذ به عملا وفعلا وسلوكا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه لكونه معوجا.

فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرّسُل، قد تأسّس على الفضائل الخيّرة التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله، حيث {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[60]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[61]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[62].

فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون قدرات ومواهب واستعدادات وميولا واتجاهات، ولهذا؛ فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خلقوا عليه خلقا، ولكن بينهم تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد وسياسة، وآداب،

---

[60] البقرة 256.

[61] الشورى 38.

[62] الكافرون 6.

ومع ذلك؛ فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ومن هنا اتسعت دائرة الاختلاف بين التقليد المرتبط بالسلوك وبين الفطرة المرتبطة بطبيعة الخلائق، ولذا؛ فالفطرة ليست هي الخلق، بل هي نشوء فيه، وهي الحالة التي تجعل المخلوق العاقل بين تسيير وتخيير؛ فما هو مسيّر لا إرادة فيه، وما هو مخيّر فالإرادة مركزه في ذهن العاقل، الذي بإمكانه أن يرتقي إن أحسن اختياره وتدبّره، ولكن إن لم يحسن اختياره وتدبّره؛ فلا سبيل له إلّا الانحدار الذي من بعده يكون النّدم والألم، وهما: إن ألما بالإنسان جعلاه في حاجة لمنقذ.

ومع أنّ التقليد على علاقة بالفطرة، ولكن هناك فرق بين تقليد الإنسان، وبين تقاليد الكائنات الأخرى، ذلك لأنَّ تقليد الإنسان هو بين تسيير وتخيير، أمّا تقليد الكائنات الأخرى؛ فهو التقليد المسيّر حيث لا مجال فيه للتخيير، كما هو حال النّمل والنّحل وبقيّة الكائنات الأخرى في تنظيم علائقها (تقليد فطرة) لا تقليد تذكّر وتدبّر وتفكّر كما هو حال الإنسان؛ ولهذا؛ فتقليد الكائنات، تقليد مراوحة في المكان الواحد، أمّا تقليد الإنسان؛ فهو تقليد البحث عمّا يُمكّن من إحداث النُقلة إلى ما هو مأمول ارتقاء.

ولأنّ الاختلاف فطرة خَلقيّة؛ فلا مفرّ منه، بل ينبغي المفرّ إليه مع الآخر وطي صفحات الخلاف معه، وفي المقابل تترك صفحات الاختلاف مفتوحة فطرة وصبغة، ولذلك سيظل الإنسان هو المتصدّر للاختلاف تخييرا (رغبة وإرادة)، ولا تبديل لفطرة الاختلاف، ومن هنا، نجد الأصوات تُرفع على الأصوات تقليدا وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت، ولأنّه كذلك؛ فلا داعي لرفعه، ومن هنا ينبغي أن يترك الحقّ يعلو تقليدا وارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، ولهذا فإن كان خصمك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته؛ فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

وعليه يجب قبول الاختلاف، الذي به تُميّز طبيعة الأجناس والأنواع، وبه تترسّخ الخصوصيات، وتشبع الحاجات المتطوّرة بلا ملل؛ فالاختلاف مرسّخ لهويّة الخلائق بشكل عام، ولذلك؛ فما يخصّ الإنسان يُصطبغ به، وهو يختلف عمّا يخصّ بقيّة الكائنات تنوّعا، أي: ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ليس هو ما ينبغي يكون عليه الحيوان أو الطّير أو السّمك، وكذلك ما ينبغي أن يكون

عليه الرّجل ليس هو ما ينبغي أن تكون عليه المرأة، ولهذا؛ فلا تبديل لخلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}[63].

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي بذر بذرة الخلاف والاختلاف؟

أقول: بذرة الاختلاف بذرة خَلق، خُلق الإنسان عليها؛ فكانت من فطرته وفقا لمشيئة الرّب، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[64].

ولأنَّ الرّب جعل النّاس مختلفين خَلقا؛ فهو بلا شكّ يريدهم على الاختلاف بقاء إلى النّهاية، ولذلك، سيظلون على الاختلاف حتى النّهاية، ولا إمكانية لتبديل خلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[65].

ولأنَّ النّاس مجبولون على الاختلاف فطرة، فهل الرّبّ يجعل خلقه على ما يسيء لِفطرة صُنعهِ؟

أقول:

---

[63] الروم 30.

[64] هود 118، 119.

[65] الرّوم 30.

لو أنّ الله خلق النّاس بلا اختلاف، لكانوا على الكمال، وهذه من صفة الله وحده، أي: لو لم يُخلقوا على الاختلاف ما كان أحد في حاجة للآخر، ولولا الاختلاف ما كان التنوّع مغريا، ولو لم يكونوا مختلفين ما كان للأمومة معنى، وللأبوة معنى، ولا للأخوة والعمومة والغير معانٍ، وهكذا، ليس الذّكر كالأنثى، ولأنّهما كذلك كان للمودّة دلالة ومعنى، ولهذا، كان الاختلاف بين النّاس رحمة؛ فينبغي أن يسود بينهم رحمة.

ولو لم يكن الاختلاف فطرة بين النّاس ما كان العقل متدبّرا؛ فالاختلاف خلقا هو أساس الوحدة بين النّاس، وأساس التذكّر والتدبّر والتفكّر، أي: لو لم يكن النّاس مختلفين لكانوا آحادا، وليسوا أزواجا، وجماعات، وشعوبا.

ولهذا؛ فلاختلاف ارتقاء لا تضاد فيه، لكونه الممكّن من الاعتراف بالخصوصية (أنا وأنت)؛ فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، وما الاختلاف بين الألوان إلّا زيادة الجمال جمالا؛ فالألوان مع أنّها تتعدّد جمالا، ولكنّها عندما تُنسج بساطا تلاحظ أنّها أرقى بكثير عمّا كانت عليه قبل أن تُنسج في وحدة من الجمال.

والإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم؛ فهو بدون شكّ إنسان واحد، ولكنّه لم يكن نوعا واحدا (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدراته وظروفه ومعارفه متساوية؛ فالاختلاف تنوّع ألوان، وأشكال،

وأراء، ومعارف، ومع ذلك؛ فالتّشابه والتّماثل ارتقاء لا ينقطع؛ فالنّاس من بعد الرّسل لو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن لأنّهم خُلقوا على الاختلاف، اختلفوا ثمّ تخالفوا على ما جاءت به الرّسل؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ارتقاء، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ انحدارا. ولو لم يختلف النّاس بما اختلفوا به لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة؛ وهذا الأمر يجعل الحياة مُمِلّة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل (حياة لا تشدّ الرّغبة إليها) ولا تثير اهتمام الباحثين والذين يأملون الأفضل.

ومن ثمّ؛ فالخلاف لا يكون إلّا بما تعمل أيدي النّاس، أمّا الاختلاف فالنّاس مفطورون عليه خَلقا، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[66]. ولذلك؛ فالاختلاف رحمة، أمّا الخلاف فنقمة، لا ينبغي الالتجاء إليه إلّا من أجل ما يرسّخ قيمة الإنسان وكرامته وسلامة حياته ومعتقده وحرّيّته.

فالخلاف مع المخالف لما يجب يعدّ ارتقاء، والخلاف معه على ما لا يجب يعدُّ انحدارا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم إلّا أنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث، قد يجد نفسه في دائرة الممكن في مواجهة مع غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن

[66] الروم 30.

يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر ارتقاء، وإلّا ليس له إلّا الانحدار الذي تكمن فيه معطيات الألم.

فالتفكير ارتقاء يُحدث النُقلة المأمولة تقدّما، وما دونه يجعل الفكرة غير فاعلة، والتفكير غير مُفعَّل.

ولأنّ العلاقة متداخلة بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة تناول أحدهما بمنعزلٍ عن الآخر؛ فالتفكير يولِّد الفكرةً التي متى ما كانت راقية أضافت معارف جديدة نافعة، ومتى ما كانت على غير ذلك، تؤدّي إلى ما يترتّب عليه ألم.

ولذا؛ فمن لا يفكّر في مستقبله مع المختلفين عنه، لا يمكن له أن يسعى لتأمينه، ومن لم يفكّر في صناعة مستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرّصيف متسوِّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة المتطوّرة، وعدم معرفته كيف يفكّر تعاونا مع المختلفين، فينبغي أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر، وعليه ألا يغفل عن اختلاف الغير عنه، وأن يعلم أنّه مثلما هو مخيّر هم مخيّرون، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[67].

[67] الكهف 29.

وبما أنَّ الإنسان قد خُلق مخيّرا؛ فلا استغراب من الاختلاف، بل الاستغراب ألا يكون مختلفا، فالنّاس بطبيعتهم يرضون عن تخييرهم، ولكن البعض صدورهم من الاختلاف تضيق، وهنا تكمن العلّة التي لا تتمشّى مع الفطرة التي خُلق الإنسان عليها مخيّرا بين اختلاف وخلاف، وهكذا هي الحياة جدل من بعده جدل من بعده أمل أعظم.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما يتميّز غيره عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[68]؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا

[68] هود 118، 119.

وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاججة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

ولمتسائل أن يتساءل:

وماذا تعني سيادة الخصوصيّة ارتقاء؟

إنّها سيادة الاختلاف، وهو الذي خُلق الإنسان عليه خَلقا، ولذا؛ فكلّ من يحاول أن يلغي الاختلاف يجد نفسه في مواجهة مع طبيعة الخَلق التي لا يمكن أن تتبدّل، وكلّ من يحاول أن يلغي أو يطمس الخصوصيّة، وكأنّه يحاول أن يلغي الاختلاف، ومن هنا، تصبح المواجهة مع كلّ من له خصوصيّة.

والخصوصية لم تكن العادة ولا العرف؛ فالعادة والعرف بالزّمن والتعلّم قابلان للتغيير، أمّا الخصوصية؛ فهي الاختلاف الذي لا يتغيّر. إنّها الهويّة المميّزة للجنس والنّوع، والمميّزة للجماعات والشّعوب والأمم (إنّها المستمدّة من فضائل الدّين، وقيم المجتمع، وطبيعة المكان، والظّرف السياسي، والاقتصادي، والنفسي، والذّوقي، والثقافي)، وهذه ستظل، وسيظل النّاس مختلفين حتى ولو كان الأمل بينهم واحدا.

ولذا؛ فالحلّ، هو اعتماد الاختلاف قيمة ضامنة للارتقاء، كما هو قيمة ضامنة لممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام.

فالاختلاف والخلاف لن ينقطعا بين النّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، وبين من يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة. ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطوفان، وهنا تكمن العلّة.

الاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس عيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتل ابني آدم حيث سيطرة الشّهوة والرّغبة الشخصانية على أحدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنّها العلل المفرّقة بين الإخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من أجل البناء نموّا يطوى الهوة بين الأرض والسّماء عملا لا اتكالية فيه من أحدٍ على أحدٍ.

الخلافُ تفادي:

الخلاف فعل مترتّب على محاولة إظهار الخصوصيّة على حساب خصوصيات الغير، ممّا يجعل المواجهة ضرورة ولا غاية من ورائها سوى التوقّف عند حدود الاعتبار لكلّ الأطراف المتخالفة، تفاديا لوقوع ما يؤلم أو يترك ضررا.

فبنو آدم بالرّغم من خَلقهم في أحسن تقويم، وبالرّغم من اصطفاء واجتباء الأنبياء والرُّسُل منهم وإليهم، لكنّهم لم يُخلقوا على الكمال، وهنا تكمن العلّة، التي تجيز لهم ارتكاب المخالفات والمعاصي وارتكاب الخطايا التي منها ما يُغتفر ومنها ما لا يُغتفر، ومع ذلك فكلّ ما يقدمون عليه هو باختياراتهم المسؤولة وغير المسؤولة؛ فإن كانت مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه كلّ ما يحققّ لهم الارتقاء رحمة، وإن كانت غير مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه ما يؤدّي بهم إلى الانحدار والدّونية. ومن هنا، يلد الخلاف خلافا، فتشتدّ

الخصومات والصّدامات بين من يرى المسؤولية ارتقاء، وبين من لا يرها إلّا انحدارا.

ولذلك، عندما تغيّب المسؤولية، يحضر الفساد والسّلب والنّهب والغدر والاقتتال المؤدّي إلى الدّونية كما هو حال ابن آدم عندما قتل أخاه ظلما. إنّه أوّل انحدار بعد تلك المعصية التي اقترفها أباه عندما أكل من تلك الشّجرة المنهي عنها، وهي أوّل جريمة قتل حدثت على الأرض الدّنيا.

ولأنّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة، حيث اختياراتهم بأيديهم، ولذلك فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[69]، أي: أنَّ الضّعف والوهن هما مكمن العلّة الآدمية؛ فمن يقوى من بني آدم ينهض ويرتقي، ومن يضعف يستكين ويعوجّ انحرافا؛ فبعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام، يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة؛ فكان نوحٌ آية، وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكن قومه في معظمهم كان الضّعف فيهم آية؛ فكذّبوه وكفروا به، وبما جاءهم به هداية ورحمة.

[69] النساء 28.

فتلك الفترة التي بُعث إليها آدم نبيا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل؛ فبعث الله نوحا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقا أمام هداية الكثيرين منهم؛ فكان الطّوفان حلّا فاصلا بين من اتبع الحقّ هداية ورحمة، وبين من ضلّ عنه ضعفا وانحرافا. {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[70]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا أملا إلى ما يُمكّن من النّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء؛ فغرقوا ضعفا ووهنا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية وقوّة وارتقاء، ولكن لأنّ الذين أهبط بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف بين بني آدم لا مهمة له إلّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف والوهن الآدمي حيث بقاء الشّهوة، والرّغبة الجامحة في نفوس بعض النّاجين، ممّا ولّد فيهم ما ولّد من خلافات وانحرافات وشدائد وتأزّمات، وكأنّ الطّوفان لم يُحدِثْ آية؛ فضلّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيا ورسولا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظام؛ فكان خاتمهم محمّد نبيا ورسولا بالرّسالة الخاتمة، وللنّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين حيث تبيّن الرّشد من الغي.

---

[70] هود 40.

أمّا بعد انتهاء فترات بعث الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم، وفقا لرؤاهم، ومدى ارتقائهم وأخذهم بالفضائل الخيّرة التي أمر بها الخالق؛ ولذا؛ في زمن الرّسل لا وجود للأنظمة الحاكمة؛ بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل). أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل؛ فأصبح الأمر بين النّاس شورى، وفقا للإرادة والرّغبة والمقدرة والحاجة المتطوّرة، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[71]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ؛ فعليه بها ديمقراطية بلا مكاره.

ومن هنا، كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، وبين من يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاء، وبين من يتخلّى عنه دونيّة وانحدارا، وبين من يرى الحريّة حيث لا إكراه، وبين من يراها تمدّدا خارج الحدود، وبين من يراها لا تكون إلّا وفقا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها حقوقا تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين، وسيظلون إلّا من رحم ربّك.

---

[71] الشورى 38.

ولأنّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم؛ فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف البعض بعضا، ولا استغراب أن يتصادم البعض مع البعض، ولكن الاستغراب ألا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلّا حيثما حلّ.

ولذلك؛ فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرّسُل، قد تأسّس على الفضائل الخيّرة التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله، وتلك الفضائل ارتقاء قد جاءت إنسانية، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاء إنسانية، ذلك لأنّها فضائل طي الهوة التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم علّة.

أمّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل؛ فأصبح للقيم الاجتماعية تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانية. أي: أصبح للخصوصيّة الاجتماعية أهمية ومكانة، ولتنوّع اللغات أهمية ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النّاس أهمية وضرورة، ومن ثمّ، أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهمية مقدّرة بين الأمم والشّعوب، ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهمية تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل

عن أهمية ذلك، سيجد نفسه شريكا في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدمات المؤلمة التي لا تكون إلّا على أيدي المعوجين عمّا يجب أن يكون بين النّاس محبّة ومودّة وارتقاء مأمولا.

ولأنّ الاختلاف فطرة خَلقيّة؛ فلا مفرّ منه، بل ينبغي المفرّ إليه مع الآخر وطي صفحات الخلاف معه، وفي المقابل تترك صفحات الاختلاف مفتوحة فطرة وصبغة وحكمة، ولذلك سيظل الإنسان هو المتصدّر للاختلاف تخييرا (رغبة وإرادة)، ولا تبديل لفطرة الاختلاف.

ومن هنا، كانت بداية الخلاف والصّراع والاقتتال بين بني آدم بما تثيره الشّهوة والرّغبة تحت مظلة الغفلة، ثمّ أخذ الخلاف والصّراع منحى دينيا بين من يأخذ بالنّبأ والرِّسالة، وبين من يكفر بهما. وهكذا ظل العداء بين بني آدم وكأنّ العداء قد خُلق معهم على الفطرة والتقليد، وهكذا ظلّ القتل من بعد تلك الحادثة (قَتلُ ابن آدم لأخيه)، وكأنّ الأنبياء والرّسُل لم يبعثوا بعد.

وما يُلفت النّظر هنا، أنّ الذي قُتل من بني آدم هو من اتّقى ربّه هداية ومخافة، ممّا جعل البقاء لمن لم يتّقيه بما عملت يداه، ومن هنا، أصبحت كفّة المغالبة راجحة تجاه (بنو من قتل أخاه ظلما)،

ولهذا، {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[72]، ولكن لو كُتِبَ البقاء للذي اتّقى ربّه في نفسه وأخيه، لكان الأمر في دائرة المتوقّع غير ذلك، ومن ثمّ، اتسعت دائرة العصاة بقتل المسالم وبقاء الظالم، وظلت الفتنة على التكاثر مع تكاثر بني آدم إلى يومنا هذا، وحتى النّهاية. أي: لا يمكن أن يقف الاقتتال، والمفسدون والمخالفون والعصاة والمجرمون في الأرض هم الذين أهبط بهم والأرض أرضا.

فالفساد في الأرض كَثُر بما عملته أيدي النّاس، ومع ذلك لم يبق الفساد على حاله؛ فبعث الله نوحا نبيا لينذر قومه الذين أفسدوا في الأرض، {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}[73]، ومع أنّه لبث فيهم هذه السّنين، ولكنّ أكثرهم ظلوا ضالّين، إلى أن صدر حكم الله عليهم غرقا، وهو غرق من لم يتّعظ ولم يعتبر ولم يهتد للتي هي أحسن؛ فغرقت تلك البقعة من الأرض بمن عليها خلافا، إلّا المؤمنين بما جاء به نوح من عند ربّه، كُتبت لهم النّجاة على ظهر سفينة النّجاة، التي حُمِلَ فيها من كلّ زوجين اثنين {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[74].

---

[72] الأنعام 111.

[73] العنكبوت 14.

[74] هود 40.

إنّها بداية حقبة جديدة لنشوء مجتمع إنساني جديد، كلّه على الهداية والإيمان؛ فكان البقاء للحقّ، ولا وجود للباطل، ولكن يظل للتخيير والاختلاف والإرادة والرّغبة والشهّوة أدوار مؤثرة على الفعل والعمل والسّلوك البشري؛ ممّا يجعل بني آدم بين تطوّر وارتقاء، وبين سُفلية ودونية، ومن ثمّ؛ فإذا كان الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لم يستطع البقاء على حُسن تقويمه اختيارا، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[75]؛ فكيف بمن خُلق من نطفة من زوجين مختلفين؟

ومن هنا، حصلت الانتكاسة من بعد نوح والطّوفان؛ فأصبحت الكثرة على الضّلال والقلّة على الإيمان؛ فبعث الله إبراهيم ومن بعده الأنبياء تترى، من أجل الهداية والإصلاح وبلوغ الحلّ فيما هم فيه مختلفون، {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}[76].

وأصبحت الشرائع بين النّاس تنظّم العلاقات الإنسانية على الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، سواء أكان النّاس مؤمنين، أم غير ذلك، وذلك وفقا لقاعدة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[77]. أي: أصبحت الأديان هي المصدر الأوّل لتنظيم العلاقات بين الأمم

---

[75] طه 121.

[76] المؤمنون 44.

[77] البقرة 256.

والشّعوب، فهي قد لفتت النّاس إلى آيات الخالق في كونه وفي المعجزات التي بعث بها رُسُله؛ فكان الجدل حجّة بحجّة، حتى وُلدت الفلسفة في عقول النّاس بحثا عن الحقيقة المجرّدة. ولا شيء في دائرة الممكن يعيق العقل عن البحث والتقصي بما أنّ العقل قادر على الإعمال فكرا.

وسيظل الخلاف بين النّاس ما ظلّت الحاجة والجهل والإقصاء والتهميش والهيمنة والظلم والعدوان.

والاختلاف والخلاف لن ينقطعا بين النّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، وبين من يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة. ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطّوفان، وهنا تكمن العلّة.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، لكنّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة للمستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة لدائرة الممكن؛ فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقا للإرادة والمقدرة.

فبمرور الزّمن كان التكاثر البشري بين اختلاف وخلاف حتى أصبحت الهوة بين النّاس تتسع صداما ونزاعا واقتتالا؛ فبعث الله

الأنبياء والرُّسُل مبشّرين، ومنذرين، ومحرّضين، وداعين للكلمة السّواء، ومع ذلك كفر من كفر، وأشرك من أشرك، وآمن من آمن، ومن هنا، اتخذ الاختلاف والخلاف أوجها جديدة بين من يؤمن بالله، وبين من يكفر به أو يشرك، حتى وُصف هذا الصّراع بأنّه الصراع بين (الخير والشّر).

الذّاكرة تفطّين:

تعدّ الذّاكرة مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، وهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية من خلال عمليات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاء؛ فالعقول دائما في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة. ولهذا؛ فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا؛ فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُقلة لكلّ مأمول نافع، فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي الارتقاء فكرا وعلما ومعرفة وخُلقا، وأسلوبا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، وبين الحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أملا وارتقاء.

ومع أنَّ الذاكرة حافظة، ولكنّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمّدها بالحيويّة المحفّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيا حيث لا إمكانية للعيش منفردا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة، وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل، حيث لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقا، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[78]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب

[78] البقرة 33.

من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يساهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيّا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُّفلية ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

فالذاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي؛ فالتاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبا

من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكل أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيا للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدائم متحقِّقا في كلّ زوايا الماضي، ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولا مهمة، إلا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحققا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذاكرة وعيا ويقظة.

ومع أنَّ في الذاكرة يدخل الماضي حقل التراث، ولكنّه لم يكن من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح الموقظ لما يجب أن يكون في دائرة الممكن المتوقّع

وغير المتوقّع، فالإنسان يمر بظروف تكاد تتشابه كثيرا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة ممّا يطرح في الذاكرة وجود آراء مختلفة؛ تجر إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرا حتى في القضية الواحدة، إذ تحكمه الكثير من الظروف التي تتنوّع فلا تقف عن حدٍ معين؛ فيكون الارتماء ممثّلا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور في الذاكرة إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلّا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها، ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول؛ فالذّاكرة تحمل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيِّ صعيد، فلم يكن هناك حلّا واحدا لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من أطروحات، ولهذا نجد يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به

الإنسان، ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرا، وتنشيطها تذكّرا وتفكّرا.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتّاريخ من حيث إنّها محفظة أحداثه وقضاياه، ولكن التّاريخ دائما يطرح مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائما إلى حلحلة ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السير في هذا الرّواق منكفيا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتدادا مطلوبا، والتاريخ فيه من السّعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة (التاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنّها كما نعتقد أنّها لا تمثّل تشكيلا عاما في هذا النسق الإنساني، ولذا وجب تفطين الذاكرة لكي لا يضيع التاريخ ولا يزوّر، ومع أنّ الذاكرة حاوية التاريخ وحافظته، لكنّها لم تكن جزء منه، ولهذا أحداث التاريخ تتكرر والذاكرة لا تتكرر؛ فالتكرار قد يحصل لكن هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التّام، لأنّ هذا الأمر يكون من الصّعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتّجارب الإنسانية متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يساهم بشكلّ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وكلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف في الذّاكرة حاضرا فيه، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة، ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر لكي تكون النّهاية ملبّية للخوف الأوّل الذي كان محفّزا بدرجة جعلت من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف، وما سبقه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من

متناقضات تاريخية؛ فهي دائما في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ[79].

الحاضر تدبّر:

التدبّر حُسن إدارة وجودة عمل، به ترسم السياسات والخطط وتُتّخذ التدابير الممكّنة من إيجاد معالجات لأيّ طارئ؛ فالتدبّر دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكنّهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُقلة سياسة واقتصادا وعلما ومعرفة، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل في الزمن الحاضر دون أن تترك أثرا سلبيا.

ويتّسع التدبّر ارتقاء ليكون حضوره ملبّيا أو محتويا للأحداث الحاصلة، إلا أنّه لا يكون حلّا نهائيا؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولا دائمة، لكنّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك

[79] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 . 127.

الإنسان رُقيّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث.

ففي الزّمن الآني يحدث الكثير من الأحداث التي يكون وقوعها ممثّلا لكارثة أو لأمر غير متوقّع؛ فتكون المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة.

فالتدبُّر حلّ للمفاجآت التي يمكن أن تحصل، ولهذا لا يكون الحلّ نهائيا، بل وقتيّا من أجل تجاوز المرحلة المهمّة، ومن الشّواهد التي رأينا فيها التدبّر مثالا حاصلا بالكيفية الآنية ما حصل في تشيلي لعمال المناجم بتاريخ 14 أكتوبر 2010، فبعد أن أصبحوا في غياهب الظلمات في مسافة تزيد عن ستمائة متر تحت الأرض، فما كان من السلطات التشيليّة إلّا بحثت عن حلّ سريع يكون به النّجاة لهؤلاء العمّال، وفي كلّ تفاصيل الإنقاذ كان الخوف حاضرا بدرجة كبيرة، ممّا استوجب ضرورة لحسن التدبّر، فأدوات النجاة وطرقها كان يرافقها الخوف ممّا أفضى ذلك إلى أن يكون النجاح حليف عملية الإنقاذ، واستعملت في عملية الإنقاذ كبسولة أطلق عليها اسم (فينكس) نسبة إلى طائر (الفينيق) الأسطوري، وبلغ قطرها 53 سم. وخضعت هذه الكبسولة للتجريب حيث عمد عمال الإنقاذ إلى إنزالها مرّتين في باطن الأرض قبل بدء عمليات إنقاذ العمال. فما كان من الخوف إلّا أن يكون حاضرا في جميع

تفاصيل مهمة الإنقاذ؛ فالبداية تدبّرا كانت باحثة عن كلّ الأساليب التي تجعل العمال يبقون على قيد الحياة سالمين، كالغذاء والاتصال وغير ذلك، أمّا المهمّة الثانية؛ فكانت في تفاصيل وسائل الإنقاذ بداية من الحفر عن أقرب مكان يصل إليهم إلى الكبسولة التي تقلّهم إلى سطح الأرض؛ فالتدبّر في حاضره كان في كلّ شيء يساهم في الإنقاذ، والكبسولة حيطة وحذرا لم تكن واحدة بل كانت أكثر من واحدة، ووسائل الحماية المتوفِّرة فيها تدبّرا كانت خاضعة لمقاييس الخوف من أجل أن يصل العامل إلى سطح الأرض بكلّ سلامة، ولم يكن الخوف والتبّر قابعا تحت الأرض فقط، بل كان حاضرا عند سطح الأرض في توفير كلّ المستلزمات الصحيّة التي تحافظ على صحة العمال بما فيها النظّارة الشمسية الخاصّة التي كانت البداية متمثّلة فيها.

ويتّسع التدبّر ليكون حضوره ملبّيا أو محتويا للأحداث الحاصلة إلاّ أنّه لا يكون حلّا نهائيا، أو أن يتكرّر الحدث بتكرر الحلّ نفسه، ولذا أنَّ كلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولا دائمة، لكنّها في وقتها قد تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، وهو بهذا يسير نحو إيجاد حلول منفتحة ومكتسية بثوابت افتراضية ممّا يكون مستقبلها حاصلا ومنتميا لهذه الافتراضات.

ويسهم الحلّ الآني تدبّرا في خلق فروض متعدِّدة منتمية إلى مخاوف مفترضة، وهنا يظهر الخوف كمؤسّس حقيقي لفرضيات تسهم بشكلّ كبير في إيجاد مساحات جديدة فيها من التدبّر والمتناوبات المختلفة التي تشير بشكلّ أو بآخر إلى وجود افتراقات في المنجز الافتراضي، وهذا يبعث في الرؤى العامّة المتحقّقة روح الامتداد المستفيض الذي يخلق تبعات واضحة تجد صداها عند كلّ فرضية موجودة سواء أكانت متحقِّقة أم كانت في طور الانتماء العام لفرضيات أخذ الحيطة والحذر من أجل سلامة المتدبّر من أجله.

ويكون التدبّر المتعاقب في هذا المنجز الافتراضي أداة فاعلة في بناء استمرارية حقيقية تكون رافدة للعملية المطلوبة، فالانكفاء غير حاصل لكونه يخلق انزواءات غير فاعلة تسهم بشكلٍ كبيرٍ في انضواء أنساق عديدة يكون لها دور مهم في الإيضاح والتفاعل والخلق والمبادرة، فتستحيل كلّ ملاحظاتها إلى برامج تتابعية ترشد وترسم ما سيكون وفق عملية نجد فيها تشاكلا واضحا ينضح بكلّ السياقات التي يكون حضورها فاعلا ومؤثّرا.

وعليه تكون المساحة المطلوبة لهذه الفرضيات منتمية إلى الاتساع الذي يجب أن يكون، وهنا تظهر المدارات بأنواعها كي تشغل حيزا واضحا في هذه المساحة التي تتّسع لكلّ الأطراف، أمّا

حدود هذه المساحة فهي مفتوحة لكونها تريد أن تكون نهايتها مفتوحة كي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث، لأنَّ الواقع يفيض بالمفاجآت؛ فتكون معالجتها تدبّرا غير منضوية تحت أيّ إدراج، وبغضّ النّظر عن الوسائل التي تُستخدم، ممّا يسمح لها باستقطاب الحلول التي تنقلها من واقعها الذي هي فيه إلى واقعٍ جديدٍ يكمن فيه الانتشال المطلوب.

إذن يوجد التصاق بين التدبّر الإنساني وبين الزّمن الحاضر، أي لا تدبّر إلّا حاضرا، وهذا الأمر جعل من التدبير يدور في المعاجم التي تنتمي إليها الحلول الآنية التي لا يمكن معاودتها مرّة ثانية، لأنّها لم تنتم إلى دائرة الثبات التحقّقي؛ فهي تزاول نشاطها ضمن مساحات محدودة يدفعها الخوف باتجاهات ترتبط به وبدون أن يمنحها حقّ التراجع، لأنّها في حقيقة الأمر لا تمتلكه كونها تابعة للخوف بوصفه المانح لكلّ الرسوم التي تُسيّر الحلول في زمنها الحاضر وفقا لما هو ممكن.

وهنا يباشر التدبّر وجوده من خلال الارتماء في حضن الواقع الذي يكون فيه المشكل حاصلا بكيفية متوقّعة وغير متوقّعة؛ فتنبري الحلول المستدعاة تدبّرا بتقنيات مختلفة، إذ تدور كلّها حول إيجاد حلّ سريع وملبّي للواقع، ويكون الزّمن مفتوحا ضمن مدى يقصر وقد يطول بحسب الاحتياج المطلوب، فتتعالق عوامل متعدّدة

ومتنوّعة تسهم بأشكال مختلفة من أجل الوصول إلى الحلّ المنشود أملا.

والإنسان في حاضره يبحث عن سبل كثيرة يريد من خلالها الوصول إلى مبتغاه تدبّرا، ويكتنف هذا البحث تبعات في حالة الحصول على المبتغى؛ يكون حسن التدبُّر موجّها للعقل ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، فالمتوقّع يكون حافزه ليس بالكبير كونه حاصلا وحدوده يمكن تبيانها ووضع علامات لها، وتكون مدعاة للتقييم، ومن ثمَّ تكون قابلة للرصدّ والتحليل وللتمثّل، إلّا أنَّ غير المتوقّع تكون حدوده غير واضحة المعالم؛ فيكون الاستغراق الفكري حاضرا في إيجاد افتراضات مستمرّة تحاول أن تجيب عن كلّ ما يُطرح، وهذا بدوره يخلق حالة من الارتدادات المعرفية التي يكون فيها التسابق حاصلا للوصول إلى كنف جديد يكون ملبّيا للمراحل المرادة، فالانزواءت غير مطلوبة، والعبثية غير مطلوبة، والتوقّف غير مطلوب، والتسليم بما هو موجود غير مطلوب، ذلك أنَّ التدبّر يمرّ دائما بحالة من الحضور المغاير ممّا يحمله على البحث عن كلّ ما يمكن أن يكون فيه الحلّ المرجو[80].

[80] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 127 . 131.

المستقبل صُنع:

المستقبل زمن لم يأت بعد، وهو الذي ترسم الخطط وتوضع الاستراتيجيات من أجل بلوغه عملا وإنتاجا ونهضة وتقدّما؛ ممّا يجعل الزّمن ليس غاية، بل الغاية تفادي ما يمكن أن يكون فيه حاصلا سلبيا. والمستقبل غير منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاء، وهو الذي بدونه لا يجد الأمل حلّا.

ولأجل النّهوض ارتقاء، وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل، وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبا مرنا، وطريقة تستوعب التاريخ تجربة ومنهجا ووسيلة.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة؛ فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضا؛ والإنسان بين قاعدة واستثناء لا ييأس، ولهذا أوجب العمل الذي يمكّن من بلوغ الغايات العظام التي يأملها؛ فالإنسان متى ما فقد الأمل فقد المستقبل المنقذ.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق ما دمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارا، ولهذا؛ فلا داعي للقلق بما أنّنا نرث الثلثين (خلقا وارتقاء)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذا؛ فلا إمكانية لبلوغ الحلّ كمالا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاء بغاية إنتاج الفِكْر الممكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنّ الارتقاء رغبة وأمل؛ فسيظل أملا يسعى في الزّمن المستقبل نهوضا وهو لا يُمكن أن يلاحق إلّا بالعمل إنتاجا وإعمارا وبناء وبحثا علميا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النّاس.

إنَّ التفكّر في المستقبل يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهمية كبيرة في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجية التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضية الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، وبذلك يكون التفكّر عنصرا مهمّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدما نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي

تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيّ انكفاء، بل تكون الأمور عامّة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعلية تثري التفكّر وتمنحه أبعادا مختلفة ومهمة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة كي يكون الاتساع المرافق ملبّيا للادراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شمولية مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر.

ومع ذلك فالمستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموضا معيّنا يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرؤية المطروحة، وهنا يكون الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطموحات وحتى التداعيات التي تخلف انفراجا وإن كان وقتيا إلّا أنّه قد يكون سببا في حلّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنّ التشكيل العام لهذه الرّؤى يكون مطويا خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكانا

بين الحضور الحاصل، إلّا أنّ مكمنها قد لا يبدو واضحا نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمة ألا وهي التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة، إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجا يكمن فيه التحقّق المطلوب، ويكون الحذر حاضرا في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالحذر يقف عند كلّ النقاط المهمّة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبلية المطلوبة؛ فتكون الآليات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الحذر وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها معالم الحذر في كافة جوانبها؛ فيكون الظهور المتحقّق وفق هذا التفكّر ملبيا للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه كي يصل التفكّر إلى هذه المرحلة وما بعدها ارتقاء.

وينفتح الحذر على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب كي تكون الصورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلّ التغايرات التي يمكن أن تحصل، فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامنا مع التفصيلات التي يكمن فيها الحذر من أجل تحقيق مستقبل أفضل، وهذا يسير بوتيرة إفضائية تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثلاث، ولأنَّ النّهاية مفتوحة سيبقى الحذر مفتوحا ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليته؛ فالنّهاية المفتوحة

تكون حافزا على خلق استمرارية في البحث تتّجه دائما نحو شمولية يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلّ الأساليب التقليدية التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنّها تمثّل النّهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالفا للحياة التي نعيشها؛ فهي قائمة على استنهاض مستمر، وبحث مستمر والأمل لا يفارق، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكا وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة أبدا، وفي المقابل تفطين الذاكرة لاحتواء ما يُنتج عبر الزّمن ماضيا وحاضرا، يقود بسلام إلى تطلّع مأمول لا يتحقّق إلّا بالعمل في دائرة الممكن مستقبلا.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق فهو من باب أنّ التفكّر لا يمكن له أن يكون سائرا بالاتجاه الصحيح دون أن تكون له قاعدة يتكئ عليها، تمدّه بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظرية أم عملية؛ فتوجه الحذر يكون متماشيا مع هذه الامتدادات كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيّ ارتكاز تريده.

وعليه يكون التفكّر واقعا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعية إلا أنّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الحذر من

أجل صناعة المستقبل المأمول متغلغلا في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب، لأنّ هذه الصّفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعادا مهمة تساهم بفاعلية كبيرة في خلق مستقبل غير مسبوق، لأنّ السّابق متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك الافتراقات التي تخلق بناءا مغايرا مبنيا على تشعبات استبطانية وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجّه نحو إيجاد البدائل أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألا يكون.

إنَّ التفكّر في المستقبل يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النّهوض المأمول الذي يمنح النّاس جميعا حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع كونه يرتبط بأخذ الحيطة والحذر؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابية المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزا مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائما إلى وجود خروقات طبيعية وغير طبيعة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي

يكون استشعاره باعثا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود من أجل بلوغ مستقبل أنفع، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرا يمنح الإنسان وعيا مستمرا أيضا، ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق؛ فيكون الخزين العام منساقا نحو هذه الزيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكرية المطروحة؛ فيكون الاغتناء الفكري قد وجد له تمويلا مستمرا يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل،[81].

وعليه:

لا يمكن أن يُصنع المستقبل إلّا بالتفكّر، ولهذا فعلينا به تخطيطا، مع السّماح للبحاث بالتفكّر حتى بلوغ الخوارق، وبلوغ المعرفة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا، ومن معرفة المعجز معجزا، ومن معرفة الممكن ممكنا حتى وإن كان غير متوقّع، ولهذا فصناعة المستقبل المأمول تمكّن من معرفة المجهول وكشف خفاياه.

[81] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 131 . 135.

المجهول معرفة:

المجهول هو ما لم يكن معلوما بعد، ممّا يستوجب البحث من أجل كشفه والتعرّف عليه ليكون إضافة جديدة للمعارف والعلوم السابقة؛ فينبغي على البحاث أن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ؛ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلمية؛ فلن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها؛ فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

أمّا التساؤلات؛ فهي أسلوب بحثي معمّق يمكّن أصحابه من معرفة الجديد المجهول، {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}[82]؛ فقوله: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ!) هو تساؤل، ولم يكن سؤلا، ولم يكن استفسارا؛ ذلك لأنّ السّؤال دائما يلاحق إجابة سابقة عليه، بهدف إعادتها ثانية أو أكثر من ذلك، وكذلك الاستفسار لا يكون إلّا عابرا ومن العموم، أمّا التساؤل؛ فهو يستوجب بحثا علميّا وتقصٍّ دقيقا من أجل معرفة المجهول.

---

[82] النبأ 1 . 5.

ولأنّ المشركين يتسألون عن المجهول؛ فكانت المعلومة من العليم، أنّ ما تختلفون فيه، هو: النبأ العظيم الذي يتنزّل تنزيلا، أي: أنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ ما جاء به محمّد عليه الصّلاة والسلام، لا يمكن أن يكون منه، وهنا كانت علامات الاستغراب تدور في أنفسهم كما تدور بينهم، وهم يتسألون؛ فأنزل الله المعلومة حُجّة، (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)، وستكون الشواهد على ذلك متوالية، وسيعلم الكفار بذلك شواهد دالة على أنّه الحقّ المنزّل، (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ). أي: أنّ المعجز إن تمّ الاستفسار عنه؛ فلا يبلغ إلّا تنزيلا، أمّا الممكن فلا يبلغ إلّا بحثا معمّقا.

ولذلك، وجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل؛ فالشّطحات عندما تكون موضوعية؛ فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفية التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية؛ فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعا بين ما هو مستحيل، وبين من ينبغي أن يتمكّن الإنسان من معرفته وإدراكه.

ولذلك؛ فالتّطّلع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ، إذا اردنا معرفة

المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة قفّ أمام التفكير العلمي لبني آدم. بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملا متحقّقا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع؛ فينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ؛ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب، ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك أنّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقّع.

ولأنّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني والذوقي، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[83].

[83] الكهف 88.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان مطلبا ورغبة واختيارا، ولذلك، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقا، ولأنّه كذلك؛ فلا يكون إلّا إعجازا، حيث لا إمكانية لخلق الشيء شيئا إلّا بمشيء، وحتى إن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على أنفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنّنا نقول الخالق، إذن؛ فلا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ؛ فكلّ شيء يُخلق؛ فهو ليس بالخالق، ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودا قبل أن يخلق الخلائق، ولذلك؛ فالسؤل ليس في محلّه، لأنّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا

تكمن العلّة، حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانية له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك؛ فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن): كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان؛ فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان؛ كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنا، حتى يسأل عنه كيف كان، ولذلك؛ فالكائن لا يكون إلّا على هيئة

يراد له أن يكون عليها؛ فيكون. وبالتّالي فأيّ كائن لا يكون إلّا على هيئته ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علما، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من الخروج منه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون باعتبارنا جزيء فيه أو حتى أنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق؛ فهو على غير هيئة كونه على غير صورة، وبالتالي لا إمكانية لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السّؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسّؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه. بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا أنّه من نطفة ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنّه يعلم أنّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف، لعلّك تعرف كيف خُلق، وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق، ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك لعلك تعرف كيف خُلقت، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق، ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك عن وعي، لا شكّ أنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

الخوارق إبداع:

الخارقة، هي بلوغ ما لم يكن متوقّعا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي أنّها الممكِنة، ولكنّها غير عامّة؛ فهي تحتاج إلى مقدرة عقلية تتجاوز بصاحبها ما يمكن تدبّره إلى ما يمكن بلوغه لكونه لم يكن مستحيلا ولا معجزا. والخارقة تقود أصحابها فكرا إلى الإبداع الممكّن من معرفة ما كان مستغربا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة تحدٍّ تقود إلى العمل المبدع، والعمل المبدع بداية قد يصفه البعض بالمستحيل بالرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة؛ فالهبوط على القمر، البعض كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه، لكونه أصبح حقيقة لا تخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعدّ عملا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكّنة من الارتقاء وبلوغ الخوارق.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم؛ فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها؛ فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل أن لا تعملوا ارتقاء من أجل بلوغها.

وهنا لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاء؟ ومن يرى غير ذلك؛ فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاء؛ فمن يغفل عن ذلك؛ فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس وما ستبنيه من حضارات؛ فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النّاس، وبما غفلت عنه، ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط الممكّنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاء عقلا وحسّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ بإصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء.

فالارتقاء حركة دءوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجر على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء ثانية؛ فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطّموح، ويمكّن من بناء حضارات أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علما وفكرا وقيما وفنّا وثقافة وإعمارا وبناء.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت وحلّت محلّها حضارات أخرى؛ ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة؛ فهي بالرّغم من تنوّعها، ولكن، وكأنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علما ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك؛ فالإنسان دائما في حاجة للارتقاء؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رفاهية ورقيّا؛ فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزّمات تحدث، ونُظم تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّية.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا (السُفلية)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير، وألا يخاف فالخوف ضرورة من أجل

مستقبل ناهض وسلامة وأمن يمكنا من بلوغ الخوارق تحدٍ للحاضر بما هو أكثر جودة.

ولذلك؛ فالاختلاف لن ينقطع بين النّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، وبين من يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة، ومع وجود الاختلاف، فلا وجود لما يعيق ولادة الخوارق، بل الاختلاف هو المحفّز تحدٍ ومنافسة على ولادة المزيد من الخوارق تحدّ لكلّ الصّعاب.

ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطوفان، وهنا تكمن العلّة، وحتى لا تكون الأنانية القاتلة؛ فعلينا بتضافر الجهود والنّهوض سويّة حتى نقضي على عوامل الشّد والتخلّف ونرتقي تقدّما ونهضة من بعدها نهوض مع أملٍ ناهض.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف؛ فينبغي بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء سويّا إلى مستقبل مأمول؛ فالفرد وإن خُلق فردا؛ فهو لم يُخلق وحيدا، ولهذا، لا ينبغي أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاء بغاية ما يجب.

ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي؛ فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه؛ فقوّة القرار تكمن في ما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاء مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاء يُمكِّن من إحداث النقلة.

ولأن صُنع الخوارق لم يكن مستحيلا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدٍّ للعقل بملكاته العقلية؟ فالعقل دائما هو مَكمن الخوارق؛ فمن بلغ عقله عقلا عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع؛ فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

التّجادل حُجّة:

التجادل لا يكون إلّا عن عزيمة وإصرار، لكونه لا يكون إلّا عن قناعة بالموضوع أو القضية المتجادل بشأنها، وهو لا يكون إلّا بامتلاك الحُجج ذات المصادق؛ ممّا يجعل وراء كلّ حُجّة حُجج أعظم.

والتّجادل حُجّة منبعا الفكر المستوعب للغير (هم كما هم) بهدف أخذهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه وعيا ودراية ومعرفة ومكانة. ومع أنَّ الإنسان خُلق من طين، لكنّه خُلق معدّا للتفكير؛

فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم، (آدم) ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه. ولذلك، يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن

كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل أن لا تظل تائها عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربطك به علاقات.

فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشذّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك؛ فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المحاجّة تطوّرا وارتقاء فيها من المجادلة ما فيها؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[84]؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

[84] العنكبوت 46.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المحاجّة والمجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المحاجّة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المحاجّة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنّطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[85]؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهم لم يخف علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم

[85] مريم 42 . 45.

مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[86].

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدلائل والبراهين لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[87]؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجال بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل، أن الإماتة هي القتل، ولهذا، أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتلته، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي

[86] يونس 99.

[87] البقرة 250.

يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[88]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[89].

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات، ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض؛ فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من ورائه تنازلات.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا

---

[88] البقرة 158.

[89] يوسف 26.

تستفزّ أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ومن ثمّ؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة؛ فيصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

وعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال؛ فالجدل وما فيه من شدّة يعدّ هو منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض

تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطّلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما يتميّز غيره عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[90]؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

---

[90] هود 118، 119.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

ومع أنَّ الجدال حُجّة تسنده الحقائق، ولكن عبر العصور لم تكن الحجّة هي الحجّة؛ فهناك من يعتقد أنّ تفسيره للمعلومة هي الحقيقة في الوقت الذي لا يميّز فيه صاحبها بين الحقيقة كونها معلومة أو نتيجة، وبين ما يتراء له تفسيرا ليس إلّا؛ ففي تلك الأزمنة الأسطوريّة كانت الثّقافة شفويّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها، فيها الحقائق تزوّر، والأكاذيب تسوّق، والأنا شاهد على كلّ الشواهد، أمّا كفّة ميزان الغير؛ فهي على الدّونية، في الوقت الذي فيه الغير قد لا يكون كذلك.

إنّه العصر الذي سادت فيه الحكاية والسّرد الخيالي، واللجوء إلى مظاهر الطبيعة الكونية، وكأنّها كما يراها اليوم العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ خالقة لا مخلوقة، وبالتوقّف عند هذه العلّة تفحُّصا

نلاحظ وكأنّ زمن الأسطورة ليس ببعيد عن زمننا، حيث انعدام وجود الحجّة دليلا شاهدا بين أيدي النّاس.

ففي ذلك الزّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف، حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنّه الدّليل والحجّة. ومن هنا، قد يأخذ البعض بتفسير العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ مع أنّه بلا دليل، ولا شاهد علمي، سوى الاستنتاج تفسيرا.

وفي المقابل تفسير العقل والمبدأ تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي (مقدمات ونتائج صادقة)؛ وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها؛ فهو كمن يفسّر الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسا لوجهة نظر المفسّر. ولهذا؛ فالمعلومات غير قابلة للتفسير، أمّا النتائج فتفسّر. ولذا؛ فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج؛ فنتائجه غير موثوقة.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على القصّ (الحكي) الشفوي الإغرائي مع سيطرة الخيال على الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعية أو في المعامل والمختبرات، ولهذا؛ فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد وتنافر وتعارض، ومن هنا، فالحجج قابلة للقياس الذي يزيل الشكّ عنها.

المستحيلُ خَلق:

المستحيل خَلقا هو ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنّه كائن؛ فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنّه لا وجود له. إنّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) وبين الممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقّع، أمّا المستحيل؛ فلا إمكانية حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِد نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنّه القوّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره. ومع ذلك؛ فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلا.

فالكون لو لم يكن عملا مستحيلا ما كان انفجاره أو فتقه عظيما، ومع أنَّ المستحيل شيء يتحقّق، لكنّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئا ما تحدّثنا عنه، ولأنّه شيء ونتحدث عنه؛ فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن وراءه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره؛ فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ؛ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمّا الأعظم من النّاس؛ فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يخترق، ومن هنا كان المستحيل نبع الحياة.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوّة؛ فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملا قابلا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجزا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنّهم عاجزون عن معرفة نقطة صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها، ومع ذلك يرى البعض أنّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعا، أي: لا إله من ورائه، وكأنّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق وأن فُتقت لتعود إلى حالتها الطبيعية التي خُلقت عليها عوضا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقا.

وبما أنّ الفزيائيين واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصية؛ ليس بحكم علميّ، بل مجرّد أراء لا تتعدّي نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن، وفقا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء شيئا كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلا لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملا؛ فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمّا المستحيل كذات؛ فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازا حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النّاس في كلّ جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها.

ولذا؛ فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلا، ومن هنا تنبع الحياة معرفة واعية وتسليما مطلقا، بأنّ الخلّاق خلقه لم يتوقّف؛ ممّا يستوجب بذل

الجهد بحثا بهدف معرفة المزيد من المخلوقات التي لازالت مجهولة مع أنّها على قيد الحياة وجودا؛ فالكون الذي قالوا عنه خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق وليس للشيء المشار إليه بأنّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنّ وجود الكون شيئا مستحيلا؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا، يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوّل (الخالق) وبين ما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق مستحيلا، لكنّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا؛ فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يخَلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلقا مستحيلا؛ إذن؛ فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق، ولهذا، كان خلق الكون مستحيلا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوّة اختراق لكلّ قوّة وإن اجتمعت، فقوّة الكون تمدّدا وتسارعا ستقف وتنتهي انكماشا أو انفجارا عظيما، أو

رتق أعظم، وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقف له، أو مفجّر، أو راتقا له، حيث لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي، يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها. ولذلك؛ فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانية لرؤية المصوِّر المطلق لكونه لا يُصوَّر، ولهذا؛ فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئا، إذن، فكيف للكون لكونه شيئا أن يكون مشيئا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئا من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنّهم قد خُلقوا من ترابٍ. وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب

وهم يعلمون أنّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنّ آدم من تراب، ولم يكن ترابا؛ فمن الذي خلقه آدم؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه إنّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونا عظيما كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[91].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[92]. فكيف بمن لم يكن سابقا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

---

[91] الأنبياء 30.

[92] الزّمر 62.

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها. وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه لا إمكانية أن يخلق الشيء نفسه. أي: كيف لمن يعرف أنّه خُلق من نطفة أن يقول شيئا غيرها؟

ولأنّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذا؛ فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء (تراب أو نطفة) ليستقرا بهما خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. أنّها المسلّمة لمن يدرك أنّه لم يَخلق نفسه، لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنّ أبويه (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنّهم يؤمنون بخلق الأشياء، ولكنّهم عندما وقفوا عند أكبرها (الكون)، قالوا: إنّه شيء، ولكنّه خالق. وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

. هيئة الشيء تسبق الشيء وجودا.

. وراء كلّ شيء مشيئة.

. وراء كلّ مخلوق خالق.

. الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا؛ فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونا، والخَلق لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[93].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك؛ فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن ثمّ؛ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارعا في تمدّده، ثمّ خُلق منه وفيه ما خلق مستحيلا، وكلّ ما خُلق استحالة، لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلا؛ إذن؛ فلا إمكانية لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلا، ومن هنا، استقراء علماء الفيزياء والفلك، وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع أنّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، ولكنّ ما هو أعظم: أنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة. {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ

[93] البقرة 31.

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[94]؛ فقوله: (كيف خلق) هنا يكمن المستحيل حيث لا إمكانية لمعرفة الكيفية التي بها خلقت الأكوان طِباقا، ولأنّ معرفة (كيف؟) أمر مستحيل؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[95]. أي: بعد أن كان الكون ملتحما سماوات وأرضين، فُتق مستحيلا إلى سبعة سماوات وسبعة أرضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلا بعد مستحيل، ومعرفة من بعدها معرفة أوسع، وأملا من خلفه غايات أعظم؟

ولذلك؛ فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى إن خُلِقّ الشبيه؛ فسيظل شبيها، ولذلك؛ فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئا مفعولا، إذا؛ فالمستحيل عندما يتجسّد في عمل يصبح مفعولا شكلا أو صورة أو شيئا مشاهدا وملاحظا، ولأنّه المفعول؛ فلا يكون إلّا بفعل الفاعل، ولأنّه بفعل فاعل المستحيل؛ فهو لم يَخلق

---

[94] نوح 15.

[95] الأنبياء 30.

نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي؛ فعقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُقلة.

ولذلك؛ فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنّها تتدرّج من الأصعب إلى الصّعب؛ فخَلق الكون وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل، ولذلك؛ فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنّ الخلق من لا شيء (خلق الكون) يبدو وكأنّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلق منه.

ومع أنّنا ندرك أنّه لا صعوبة بالنّسبة للخالق، لكونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالة استمددنا مثالنا توضيحا

للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقا ومفعولا من خالق يَخلقه ويفعله، ولذلك؛ فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدا وتسارعا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونا مرتقا.

ولذا؛ فعندما تُرتق الأرضون والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوّل مرّة، {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[96]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعل، ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمّا الفعل؛ فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال، حيث لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات

[96] الرّوم 11.

عيني فقط، أقول لأبنائي اصمتوا، أو اجلسوا، أو اخرجوا؛ فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيلٍ، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلِّ ما لم يكن مستحيلا هو ممكن، والفرق بينهما، هو: أنّ الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون، ولذا وجب البحث المتواصل حتى معرفة اليقين يقينا، وخير اليقين ما تدركه الأبصار والقلوب والعقول، ذلك لأنّ كلّ شيء ممكن.

ولهذا، لو لم يكن الممكن ممكنا ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

أمّا المستحيل: فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث، ولكنّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته، ولذلك؛ فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء. وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى؛ ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق، في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لا بدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنها، والمرض آتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنّه آت وإن أطلنا في أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنين؛ فكلّ ذلك ممكن علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وأن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانية، وهنا يكمن المستحيل، أي: أنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرا نافذا؛ فلم لا يؤمن من لم يؤمن بعد؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم السّبت فإنّ يوم الأحد سيأتي غدا وفقا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن مستحيلا يمكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو سينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة، ولن يأتي الأحد غدا كما هو متوقّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه؛ فالممكن لا يكون إلّا وفقا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل؛ فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك؛ فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل؛ فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرا ولا تقتصر عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع؛ فهو البحث عمّا يُحدث النُقلّة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاء.

ولذلك؛ فالتّطّلع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ، إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة قفّ، أمام التفكير العلمي لبني آدم. بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملا متحقّقا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ؛ فوجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب، ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل، والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك أنّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقّع[97].

المُعجز نشوءا:

النّشوء خَلق من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، ومُعجز قابل للنمو؛ فالخَلق لكونه غير مسبوق، هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرا، ولذلك فالخَلق فعل يسبق المخلوق تحقّقا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء؛ فهو الخلق ممّا خُلق إعجازا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[98].

أمّا النّمو في ذاته؛ لا يكون نموّا إلّا في ذات غيره نشوءا، حيث لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عملية ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّدا وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

---

[97] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون (الخلق . النشوء . الارتقاء) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م، ص 276 . 282.

[98] يس 36.

ولذا؛ فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازا (نضجا وعمرا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه كي ينمو قولا وعملا وإرادة وسلوكا، أي: يجب أن ينمو تذكّرا حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلا وإعجازا، بهدف استجماع القوّة من التّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات والتجارب والقصص والمواعظ والعبر، التي تمكّنه عن تدبّر من إنشاء شيء جديد يفوق ذلك الماضي ارتقاء، ومع ذلك؛ فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة لمن تدبّر أمره في حاضره ارتقاء، هي: بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء، ولهذا؛ فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكنا؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان؛ فهو يعلم أنّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها، ولهذا؛ فلا ينبغي أن يتوقّف نموّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازا؛ فهو غير المتوقّف نموّا وازديادا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعا؛ ولذلك؛ فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءا معجزا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نمو، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنّ فعل المستحيل بيد الخالق؛ فالخالق لو لم يفعل مستحيلا، ما نشاء الخلق وجودا مُعجزا، وما أمكن للإنسان ارتقاء. إنّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى؛ فحيثما كان الخلق كان النّشوء، وحيثما كانا (الخلق والنّشوء) كان الارتقاء، أي، لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا، نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وبين ما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وبين ما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلق من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم وزوجه من تراب، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[99]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورا مشاهدا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضرب لهما في الأرض إلّا سلالة، ولهذا؛ فخطاهما، تمشي عليها استقام قامة.

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهمية الأرض كونها الأم الأولى، والوطن الأوّل، الذي فيه بنو آدم إخوة مختلفون،

[99] نوح 17.

ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس بعيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتل ابنا آدم حيث سيطرت الشّهوة والرّغبة الشخصانية على أحدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنّها العلل المفرّقة بين الإخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من أجل البناء نموّا يطوى الهوة بين الأرض والسّماء عملا لا اتكالية فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنّ النّشوء منبت الحياة نموّا معجزا؛ فهو لا يتوقّف خَلقا، ولأنّه كذلك؛ فَلِمَ لا يكون كذلك لا يتوقّف ولا يتخلّف على أيدي بني آدم، تعليما، وصحّة، وزراعة، وصناعة، وبناء وإعمارا، وإصلاحا، وغزوا للفضاء حتى بلوغ الحلّ الممكّن من بلوغ الجنّة نعيما وفردوسا.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق، والنّشوء، والارتقاء علاقة ارتباطية؛ فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلقَ والنّشوء والارتقاء، علاقة بين مستحيل ومعجز وممكن؛ فهي علاقة اعتمادية بين السّابق (الخَلق)، والتابع (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)، ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق، لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه، ما هو المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة (ذلك الماضي الّذي نشأ فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا؛ فإنّ التفكير في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع أنّ الزّمن في أذهاننا مقسّما بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، ولكن التفكير تدبّرا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا. ولذلك؛ فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم أنّه سيعود إلينا ثانية.

ولهذا وجب التفكير في خلق الكون، وما خُلق فيه من معجزات؛ فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ. وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن؛ فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية، (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) التي لا يمكن لنا

معرفة كيفيّتها، لأنّ أمر معرفة الكيفية الآخِرة مستحيلا، ولأنّه أمر مستحيل؛ فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنّه خارج دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فلا إمكانية لتصوّره؛ ولا إمكانية لمعرفة كيفيّته، ولذلك؛ فسيظل المستحيل مستحيلا وإن علمناه مستحيلا، {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[100].

أي: أنَّ نَشأة أخرى قد حُدّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا، هي التي لا تكون إلّا ممكنا بين يدي الله، حيث لا استحالة أمامه، ولأجل معرفة المعجز معجزا علينا بالبحث انطلاقا من المشاهد إلى المجرد.

ومن ثمّ؛ فبنو آدم يعرفون أنّ أساس النّشوء الآدمي، هو من الأرض، وكذلك، هم يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرا باليا، ويدركون أنّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ إنّ للموت نهاية (موت الموت)، ولهذا؛ فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفية أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلا، حيث لا نعلم، (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

---

[100] الواقعة 61.

ولذلك؛ فلا نشوء خَلقي مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقي إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا؛ فلا يولد الشيء المعجز إلّا من الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنّه وجود آخر، لكنّه لولا الوجود الأوّل ما كان شيء آخر، ولذا؛ وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[101]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل (الطّين) المعجز ثمّ (النّطفة) المعجزة، وبين النّشوء الآخر جنين متكامل معجز؛ فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولولا النّطفة ما كان المولود شيئا آخر، وهنا، يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزا واستحالة.

---

[101] المؤمنون 12 . 14.

ومع أنّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، ولكن نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات، ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوءا وارتقاء؛ فالإنسان الذي يعلم أنّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل؛ فلا ييأس من بلوغ غير المتوقّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن لا تقتصر على المتوقّع فقط؛ فلِمَ لا ينتبه الجميع ويعملون على تحقيق غير المتوقّع تعليما، وإنتاجا، وعدلا، ورفاهيّة، وغزوا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، ثمّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة، بحيث كلّما التفت الإنسان إلى الأرض

معجزة، اكتشف شيئا جديدا يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة، تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءا وارتقاء معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونية التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية، لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه لازال يحاول وهو بين أمل ويأس. أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من بعدها شيء؛ تعدّ هذه النقطة صفرية حيث لا

شيء من بعدها إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية[102].

المُمكنُ ارتقاء:

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يراه تطوّرا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقية لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك؛ فالأمل لا يفارقه، ولهذا؛ فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا

[102] المصدر السابق، ص 288 . 293.

بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم، ولذلك؛ فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقائه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، لكنّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنّه الأمل في الزّمن الحاضر، لكنّه

يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيا، وجهدا ينجز وفقا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم،

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدا من الاحترام والتقدير والاعتبار، وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّد على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجود لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه الممكِن ارتقاء؛ فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه، لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقّع؛ فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن، ولهذا، إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع، يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتا. ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبّباته لاحقا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع.

فالمتوقّع وغير المتوقّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقّع يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقا لما هو موجب متوقّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط، ولذلك؛ فهم دائما يفاجئون لكونهم لم يحدّدوا لغير المتوقّع موضعا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات وفقا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجبا وما هو متوقّع سالبا، وما هو غير متوقّع موجبا، وما وهو غير متوقّع سالبا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلا؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقّع مثلما يخطط للمتوقّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وبين ارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيات ويعدّ البرامج وفقا لِما هو متوقّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث، ولذلك؛ فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: أنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت

الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي ذات الوقت يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرا. أي: أنّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يره وكأنّه الآن يواجهه تحدٍّ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا، ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة، حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالممكن احتمالا يسبق ما يمكن أن يكون محتملا أو غير محتملٍ، ولهذا؛ فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلا؛ فالممكن المتوقّع وغير المتوقّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل، ومن ثمّ، يضل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا، يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذا؛ فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنّه في حاجة لمزيد من المعرفة والارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكن، ولكنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدودية إمكاناته، وبالرّغم من ذلك؛ فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية وأمل مرغوب.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء. ولذلك؛ فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقّع مع غير المتوقّع، ولكن تظل دائرة الممكن واسعة؛ فمهما فكّرنا؛ فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنا،

ما كان البحث عنه، ولهذا؛ فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس؛ الذي كان الأمر بالنّسبة له غير متوقّع، وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات، ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقّعين فعل ثالث غير متوقّع، إلّا وهو الثورة، التي لم تطفأ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن على من قمّة السُلّم السّلطاني.

ولذا؛ فالعلاقة بين المتوقّع وغير المتوقّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازما معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها؛ فليس له إلّا المزيد من المفاجآت، وحينها لن تنفعه علامات الاستفهام والاستغراب.

وبما أنَّ الارتقاء ممكن؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لا بدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم تحمد عقباه

ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، ولكن لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

إذا؛ فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي تودّ الوقوف عليه.

ولأنّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرِع بحركة إحداث النُقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا، لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في

حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضا.

ومن هنا، كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن العب بذيلي بدلا من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكّر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل ألا يتكرّر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيا النّاس، ويموت الموت، الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس، والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليات أن تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع. ودون أن يكون من

بعد العلم جهل بذلك الصّفر الذي من بعده أصبح الكون وجودا متمدّدا ومتسارعا[103].

الارتقاء عمل:

الكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناء وإصلاحا وإعمارا مع ارتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيءِ، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علما وتقنية وحُسن إدارة؟

ولأنّ الارتقاء لا يكون إلّا عملا؛ فينبغي على من يرغب ارتقاء أن يقدِم على العمل النّافع، وينبغي أن يجوِّد منتجاته لتكون منافسة لمنتجات الغير، ذلك لأنّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانا في أسواق المستهلكين.

---

[103] المصدر السابق، ص 296 . 299.

وهذا يعني: إن لم تقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّامين ندم.

فالعمل ارتقاء يجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة، ولذا؛ فمن رغب مكانة ويأمل تبوأها فعليه بالعمل المنتج ويحرّض من تربطهم به علاقة على العمل لتكون المكانة فردية وجماعية، {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ}[104]. فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جميعهم يعملون ويحرّضون النّاس على العمل، ويحبّون من يعمل من أجله وأجل من تربطه بهم علاقات، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[105].

وهكذا جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ

---

[104] الأنعام 135.

[105] التوبة 105.

فأخرج به هبوطا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة، التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه إرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق؛ فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا؛ فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر لكونه لم يكن كذلك، فغزا الفضاء اكتشافا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء، أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، لكنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق

السّماء، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد ارتقاء، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخش شيئا سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرّفعة والمكانة قمّة.

ومن هنا؛ فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى.

المعلومة تصحيح:

المعلومة متنوّعة المعاني والمفاهيم، ولها من الدلائل ما لها، وهي التي تؤسّس للمعرفة، وهي دائما في حاجة للتقصي والاختبار، ولا تعدّ مسلّمة إلّا بعد التبيّن، ولهذا فكثير من المعلومات تحتاج إلى معلومات تصحّحها.

وتصحيح المعلومة الخاطئة يستوجب توفّر معلومة صائبة، والمعلومة الصّائبة تتطلّب لسان حقّ لقولها، ومستمعا منصتا لها بكلّ

اهتمام، وحَكما بها يفصل بين النّاس. ولذلك فالقاعدة المنطقية والعلمية تنصُّ على أنّ:

. المعلومة متأرجحة بين صائبة وخاطئة.

. المعلومة تصحّح بالمعلومة.

. المعلومة السّالبة انحرافية.

. المعلومة الموجبة بنائية.

. التصحيح وجوبي.

ولأنّ الانحراف نتاج معلومات خاطئة.

إذن، الإصلاح في حاجة لمعلومات صائبة.

ولهذا، وجب العلاج بتصحيح المعلومات التي جعلت من المنحرف منحرفا؛ وإذا لم تُصّحح المعلومات الخاطئة، يصبح المجتمع مهددا بتفشي الانحرافات فيه.

فالإصلاح في حاجة لمعلومات صائبة، ولذلك، ينبغي أن تَحِلّ المعلومات الصّائبة محلّ المعلومات الخاطئة، ثم تُدعم المعلومات الصّائبة بأخرى أكثر صوابا حتى يتمّ تثبيت القول الصّائب، والفعل الصّائب، والسّلوك السليم الذي ينال التقبّل والتقدير من الغير،

لكونه لم يكن مخالفا للفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي تُمجّد من قِبل النّاس.

وعليه؛ فالمعلومة الصّائبة بنائية: حيث احتواؤها للقيم والفضائل التي يرتضيها المجتمع الإنساني. ولذلك؛ فالذات الإنسانية تُبنى بقيم وفضائل المجتمع التي تترسَّخ في العقول والقلوب، وتتجسّد في السّلوك والفعل، وعلى ضوئها تُبنى الشّخصية المتطلّعة لِما هو أفضل وأجود وأحسن، حيث الاستيعاب لكلِّ مفيد ونافع.

ولأنّ المعلومة الصّائبة تحمل في مضمونها قيما إنسانية؛ فهي التي تُمكِّن الإنسان من بلوغ المستوى القيمي الموضوعي، الذي ببلوغه تصبح شخصية الأفراد خالية من قيم التعصُّب والانحياز بغير حقّ.

وفي المقابل المعلومة الخاطئة، لا تنشئ الشخصية البنائية، بل تؤدّي إلى ظهور الشّخصية الانسحابية التي لا تصمد؛ فالشخصية الانسحابية هي التي تتخلّى عن بعض القيم التي يريد لها المجتمع أن تسود بين أفراده وجماعاته، وباستمرار الشخصية الانسحابية في الانسحاب من قيم المجتمع وفضائله التي يرتضيها، تصل إلى المستوى الأناني، الذي فيه لا يفكّر الفرد إلا في نفسه.

وعليه؛ فالفرق كبير بين من تشرَّب معلومات صائبة، وبين من تشرَّب معلومات خاطئة، ولأنّ المعلومة الصّائبة ذات حُجّة (مصادق)؛ فهي الأقوى، ولأنّ المعلومة الخاطئة تفتقد للحجّة؛ فهي الأضعف، ولذا؛ فهي لا تصمد أثناء المواجهة مع المعلومة الأصوب (الأقوى)، ولأنّ المعلومة الصّائبة بنائية؛ فهي التي تصمد بقوّة حجّتها حتى تهزم المعلومة الخاطئة وتحلَّ محلّها.

وعليه؛ فالقاعدة العلمية تقول:

. الانحراف عن الانحراف السّالب يُعدّ عودة إلى القاعدة، ولذا؛ فهو الموجب.

- الانحراف عن الانحراف الموجب يُعدُّ خروجا عن القاعدة، ولذا؛ فهو السّالب.

. الانحراف السّالب يُعد موجبا بالنّسبة للمنحرفين (الخارجين عن قيم المجتمع وفضائله).

. الانحراف السّالب يُعد سالبا بالنّسبة للمتمسّكين بقيم المجتمع وفضائله الخيّرة.

ومن هنا؛ فالقاعدة المنطقية والعلمية تعدّ تأسيسية لكلِّ بناء، ومنطلقا لكلّ هدف، ومرجعية قيمية لكلّ مجتمع، ولهذا، تعدّ التربية على قيمها واجبة، ويعدّ إصلاح حال الأفراد وعلاجهم على قيمها

الحميدة، ضرورة اجتماعية وإنسانية، ولهذا؛ فالإصلاح والعلاج واجب على المسئولين والأخصائيين الاجتماعين والنّفسيين وعلى التربويين وعلى الأطباء، وضرورة للمريض والمنحرف عن القيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية، وكما هو ضرورة لهم؛ فهو ضرورة لذويهم وللمجتمع الإنساني عامّة.

ووفقا لدائرة الممكن؛ فإنَّ الخروج عن القيم التي يرتضيها المجتمع هو متوقّع، ولا ينبغي الاستغراب بما أنّنا نتوقّعه قبل حدوثه في أيّ مجتمع من المجتمعات البشرية.

المعلومة تؤثّر في المعتقد والفعل:

ولأنّ المعلومة تؤثّر في المعتقد والفعل، إذن؛ فالتأثير السّالب نتاج المعلومات الخاطئة، والتأثير الموجب نتاج المعلومات الصّائبة.

فنحن بنو الإنسان نتعلّم بالمعلومة التي تشغل المساحة بين مُرسل ومستقبل، وبين منتج لها وبين مستخدميها، وبها يبلغ المختلفون الاتفاق، أو الخلاف؛ وهي العابرة للعقول والعابرة للحدود، ومن ثمّ؛ فهي لا تسجن، وإن سُجن أصحابها المصدِّرون أو الموردون لها.

ولأنّ المعلومات هي التي تشكّل آراءنا وقناعاتنا بما تحمله من حُجج وبراهين؛ فهي التي تشكّل معتقداتنا أيضا، ولذلك ستظل

المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع سواء أكانت سالبة أم موجبة.

ولأنَّ كلّ شيء ممكن ولا استغراب ولا يأس. إذن، وجب على النّاس التبيّن قبل إصدار الأحكام، وعليهم بعدم المكابرة عن التصويب إن اكتشفوا أنّهم كانوا من المخطئين، أو أنّ خصمهم كان من المخطئين وقد تبيّن. وعليهم دائما بالمعرفة الواعية حتى لا تجرّهم العاطفة وينقادوا وراءها إلى حيث ما لا يجب. وعليهم أن يميّزوا بين المعلومات الصّائبة والمعلومة الخاطئة وذلك لأنّ:

– المعلومة الصّائبة في دائرة المتوقّع، تُظهر القوّة البنائية والأخلاقية والإنسانية والإصلاحية والوقائية والعلاجية والاستثمارية، وتُقدّم الحقائق هي كما هي، ويترتّب عليها الفعل المرضي الممكّن من التسامح.

. المعلومة الخاطئة في دائرة المتوقّع، تُظهر القوّة الهدّامة، والمؤذية، والمؤلمة، ولا تُقدّم الحقائق هي كما هي عليه، فيترتّب عليها فعل النّدم. ولهذا، ينبغي على الإنسان:

– أن يُميِّز بين ما هو ظاهر، وما هو كامن.

– ألا يغفل عن الكبيرة ولا الصّغيرة في دائرة الممكن.

- ألا يستغرب الأقوال والأفعال والسلوكيات حيث كلّ شيء ممكن.

- أن يُدحض الحُجَّة بالحُجَّة.

- أن يحافظ على اتزانه وتوازنه أمام المعلومة الخاطئة وأمام الأفراد.

. ألا يستعجل بأيّة تصريحات في حالتي الفرح والألم؛ ففي حالة الفرحة قد يلتزم بأشياء وهو لا يستطيع الوفاء بها، وفي حالة الألم قد يصرّح بما لا يجب؛ ممّا يرتّب على تصريحه ألم لاحقّ.

ولهذا ينبغي أن يكون العلاج للفكر المعوج الذي تشرّبه من تشرّبه من النّاس وأثّر في سلوكهم، فإذا تمت معالجة المعلومات والأفكار الخاطئة أو المنحرفة بمعلومات وأفكار سوية صائبة، يتغيّر أصحاب الاتجاهات السلبية إلى الاتجاهات الموجبة، ومع أنّ أساس المعلومة الصّواب، ولكن النّاس هم الذين حادوا بها عن مقاصدها ومراميها، ومن ثمّ، أصبحت المعلومة المشوّهة من بعدهم هي السبب في المظالم والمكائد بين النّاس، ممّا يجعل المعلومات الخاطئة التي تشرّبوها هي المسبب في ذلك، فلو تعلمنا فكرا معوجا ونحن لم نتبيّن نقاط اعوجاجه؛ فإنّنا سنسلك سلوكا معوجا، وإذا تعلمنا معلومات صائبة بقوّة الحُجّة التي تحملها، تصبح معارفنا وسلوكياتنا صائبة.

ولذا؛ فمن أراد الإصلاح بين النّاس؛ فعليه بإصلاح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة[106].

الخوف حذر:

الخوف توقّع حذرٍ قبل وقوع الفعل؛ فهو يستوجب اتقاء ما سيقع، وقد يُحدث أمرا غير مُرضٍ، أو أنَّه يُحقّق ألما، والخوف هو ما ليس بجُبنٍ، فالجبن لا يكون ساكنا إلّا في نفس من يعرف الحقيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقّع من أجل الإقدام على، أو الانتهاء عن، دون تأخّر ولا جُبن.

والخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرا سالبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ولأنَّ الخوف موجب فكلّ عاقلٍ منّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنّ للمرض دواء؛ فكلّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجل الحصول عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للنّاس عن المرض استباقا، خوفا من حدوثه، أمّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت، ولا يُعدّ الموت مخيفا لكونه يتحقّق بلا

[106] عقيل حسين عقيل، العفو العام والمصالحة الوطنية، ص 162 . 176.

مظلمة ولا وساطة، وذلك لأنّه الحقّ الذي في النّهاية سيلاحقه الموت (موت الموت).

ولأنّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنّنا نخاف من الوِحدة، فنسعى جميعا من أجل تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين أبوة وأخوة وعمومة وقرابة وجيران، وكلّ ذلك كي لا يلمّ بنا ما يخيف.

ومن هنا يكون للخوف علاقة مباشرة باليقظة والفطنة والحذر؛ فهو ناقوس يدقّ في عقل الإنسان كلّما كان هناك استقراء للمستقبل؛ وبذلك فهو استطلاع مستقبلي للمخاطر التي ينبّه عليها العقل قبل أن تأتي، ممّا يجعل الإنسان يفكّر في إيجاد موانع وحواجز تدفع المخاطر المستقبلية وتمنع وقوعها، وبهذا تكون عاطفة الخوف قد دفعت بالعقل إلى البحث عن الأسباب التي يمكن أن تحقِّق ما يُمكّنه الأمان والتطلّع إلى الأفضل.

إنّ عاطفة الخوف مثل بقيّة العواطف تبقى قائمة في النفس إلى حين استحضار ما يهدّؤها ويعيدها إلى مكمنها عن طرق العقل، ولذا يكون اضطراب النّفس مصاحبا لمجاراة العواطف والانفعالات الإنسانية التي لا مناص منها في الأزمات، ومهما جاشت لن تدوم، بل ستخفت وتهدأ بعودتها إلى مكمنها، والذي

يبقى هو الحقائق التي تنكشف للعقل عن طريق تنبيه الخوف له؛ فيستلم العقل هذه الحقائق ويعيد على أساسها البناء النفسي في عملية تهيؤ واستعداد لمواجهة الحدث والتعامل معه، ولكون الخوف نقطة صفرية في النفس الإنسانية، فهو لا ينبّه على المكروهات والمخاطر فقط، وإنّما ينبّه على المحبوبات والموجبات، وبهذا ينبّه الخوفُ الإنسانَ على ما يمكن أن يدركه من مخاطر فيلحق به الأذى، وينبّه على ما يمكن أن يفوته ممّا يحمل له فائدة ومنفعة؛ فالخوف لا يقتصر تحذيره على المساوي، وإنّما يتعدّى ذلك إلى المحامد والمحاسن خوف فواتها، ولهذا يثير الخوف العواطف التي تتعلّق بالمكروهات والمحبوبات من المخاطر والمطمئنات، وكلّ عاطفة عبارة عن مجموعة انفعالات.

فعندما يستشعر الخوف المطمئنات، يستثير مجموعة انفعالات سارة نحو الحدث خوف فواتها ورغبة في الاستحواذ أو الإعجاب أو الشّهوة، أو السّرور أو الرّاحة أو الامتنان، فيجيّش عاطفة المحبّة رغبة في ذلك.

وعندما يستشعر المساوي، يؤجج مجموعة انفعالات غير سارّة تجاه الحدث كالخطر أو الضّيق، أو الاشمئزاز أو البغض أو الحقد؛ فيدفع بعاطفة الكراهية تجاه هذه الأشياء.

فالخوف تهيؤ وجداني واستعداد فطري يجعل صاحبه قابلا للانفعال، ولاتخاذ موقف معين في السّلوك تجاه الموضوع أو الحدث الخارجي الذي نبّه عليه الخوف ضمانا وأمنا للمستقبل.

إنّ الخوف المؤسّس على استقراء المستقبل في اللحظة الآنيّة، يستوجب مترتّبات دفع المخاطر التي نبّه عليها الخوف، لأنّ الخوف في الزّمن الآني هو استشعار ما يأتي من الخطر في المستقبل، وهو في زمنه (اللحظة الآنيّة) يكون شعورا سالبا، لأنّه يؤدّي إلى نوع من الاضطراب مصحوبا بالقلق على الرّغم من محاولات البحث الجارية التي تؤمّن الاطمئنان المستقبلي.

وهذا الاطمئنان الذي يجدّ العقل في البحث عن مستلزماته، يكون ناتجا عن تلقي المعلومات الواقية التي يستنبطها العقل إمّا من تجربة يمتلكها سابقا، وإمّا أنّه يستنتجها من تداخل العمليات العقلية في معالجة تجارب متعدّدة ويدفعها للإرادة التي تعود بالنفس إلى حالة التوازن والاستقرار، ممّا يسمح باستنهاض بقية الملكات العقلية من الذاكرة عن طريق التذكّر في الموازنة واستنتاج جديد كلّما جاءت معلومة جديدة، وكذلك الملكات النفسية القائمة على التهيؤ والاستعداد والإعداد والتأهّب، وبهذا يكون الخوف قد دفع قوى الإنسان العقلية والنفسية والرّوحية في الاتجاه الموجب الذي يحقّق التوازن مع العامل الخارجي الذي نبّه الخوف على مخاطره.

إنّ الخوف جزء من العاطفة عند البشر، وهو شعور متحقّق لدى الإنسان لا نقول إنّه ينتابه عند استشعار المخاطر، وإنّما عند استشعار المخاطر يخرج من مكمنه في النفس الإنسانية كجزء من العاطفة، ويترتّب على الخوف بالنسبة للعقلاء أخذ الحيطة والحذر إلا من غفل عن ذلك، وهنا ليس الذّنب ذنب الخوف كما يظن البعض، وإنّما مردّ ذلك إلى أمرين:

الأوّل: ضعف الشّعور الذي لم يصل بصاحبه إلى مرحلة الاستفزاز.

الثاني: قلّة خبرة العقل وضعف تجربته التي لم تسعفه تلك التجربة أو الخبرة التي يحتفظ بها في الذاكرة لأنْ يرتقي إلى مستوى الحدث الذي يشكّل الخطر.

ولذا فهناك من الخوف ما يؤدّي بأصحابه إلى المساهمة في صناعة التّاريخ وبلوغ الجنّة عندما يكون أصحابه مجاهدين في سبيل الحقّ، وهناك من الخوف ما يدفع بأصحابه إلى ارتكاب الجرائم التي تلقي بأصحابها في قمامة التّاريخ ومن ثمّ تؤدّي بهم إلى جهنّم.

ذلك أنّ الخوف الذي يكمن في العاطفة والتجربة التي يحملها العقل هما المسئولان عن تحديد حجم المخاطر التي يثيرها الخوف داخليا بما حفّزه العقل بداية بمثيرات خارجية من معلومات

استنهضت الخوف من النّفس، ومن ثمّ تنعكس على النّفس وما تحمل من عواطف بحيث تكون هذه العواطف منبّهات للعقل في اتخاذ الإجراء المناسب بما يحمل من معلومات تتمثّل في الخبرة والتّجربة التي يضعها في تصرّف الإرادة وإن كانت الإرادة أحد ملكاته، إلا أنّه جانب تخصّصي من مهام الإرادة.

إنّ تجربة العقل وخبرته هي صاحبة القول الفصل في اتخاذ القرارات للتغلّب على المخاطر أو إيجاد أسباب تلافيها، وهذا لا يعني عدم الخوف بحال من الأحوال، وإنّما تعاظم التجارب المخيفة وكثرتها أدّى إلى زيادة الخبرة العقلية، ومن ثمّ الاحتفاظ بهذه الخبرات في الذّاكرة، بحيث يستدعيها من الحافظة عن طريق التذكّر واستحضارها لاختيار ما يناسب منها في مواجهة المخاطر المطروحة من قبل الخوف، وإن استنتج العقل أنّ أيّ تجربة من التجارب التي يحتفظ بها لا تقوم في مواجهة الأخطار المتوقّعة؛ فإنّه يلجأ إلى استنتاج آخر يكون نتيجة تجربتين أو أكثر يقدّر أنّها قادرة على مواجهة الخطر المتوقّع.

ومن بواعث الخوف الموجبة المقدّرة للمخاطر، عندما نادى الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلّم بقوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي

أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}[107].

إنَّ طلب موسى من ربِّه أن يزودّه بما يكون له عونا على أداء رسالته إلى فرعون وملئه، كان بدافع الخوف المشروع الموجب من أجل تحقيق الغاية مستقبلا، حيث إنّ خوف موسى صلى الله عليه وسلّم أبدى له المخاطر المحتملة عندما قارن إمكاناته مع المهمّة التي أمره الله بها، وهذا الخوف نبّهه على أشياء ضرورية للوصول إلى الهدف وتحقيق الغاية؛ فطلب من ربّه أن يشرح له صدره، وييسّر له أمره، ويحلل عقدة من لسانه، وأن يجعل له وزيرا من أهله، وهو هارون عليه الصّلاة والسّلام، ولا يمكن لقائل أن يقول: إنّ الخوف يقدح في تمام التوكّل عند موسى، لأنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكّل، ولا يكون قادحا فيه بحال، كما أنّ الخوف من المخاطر لا يعني عدم مواجهتها، وإنّما يعني التهيؤ والاستعداد للمواجهة، والخوف ممّا تحمله المخاطر لا يقدح في شجاعة المرء، أو أنّه يُعدّ نقيصة في حقّه، بل هو فطنة وإدراك وأخذ بالأسباب الموجبة التي توصل إلى الغاية المرادة، وبهذا الخوف يكون قد استكمل عدّة المواجهة في تأدية الموجب، وهذا يدلّ على أنّ الخوف يستلزم الفعل

[107] - الشعراء 10- 14.

الموجب، وهنا وجب التمييز بين الخائف والمخيف، وكذلك بين الخائف المخيف على النّحو الآتي:

الخائف:

الخائف هو من يعرف أن كفّة النّزاع والصّدام مع الغير الظّالم غير متكافئة ولا متماثلة ولا متطابقة، وفي مقابل ذلك قد يقبل بتقديم التنازلات إلى حدٍّ معينٍ، ولكنّه لا يستطيع أن يقدّمها إلى النّهايّة، وذلك لأنَّه خائف على أسرته إن كانت له أسرة، أو خائف على شرفه وعِرضه، أو خائف أن يُقتل بدون ثمن، ولهذا فهو لم يكن خائفا من أجل الخوف، بل هو خائف لأنّه لم يمتلك القوّة بعد، ولهذا فتقديم التنازلات هي علامة لكسب الوقت الذي به يتمّ امتلاك القوّة التي بها يُدمغ الباطل ويُزهق، وإلى ذلك الحين سيظل الخوف سائدا في السّلوك الظّاهر، والكره سائدا في العقل الباطن، ولا حلّ لمشكلة الخوف إلّا إعداد العُدّة المرهبة التي تعيد الاتزان النفسي والتوازن المادّي (عُدّة في مواجهة عُدّة).

المخيف:

المخيف هو الذي يعتقد أنّ الخائف قادر على تقديم التنازلات إليه بلا نهاية، ولهذا قد يستمرّ في الضّغوط عليه من أجل نيل المزيد من التنازلات كما يعتقد، إلّا أنَّ الاستمرار في هذا الأمر

الظّالم هو الذي يقوّي العلاقة بين الخوف والخائف حتى يصبحا صديقين يألف بعضهما بعضا، أي: يصبح (الخوف مصادقا للخائف) وعندما يصبح الخوف صديقا للخائف بعدها لن يُعَد الخوف مخيفا لمن كان خائفا، ولهذا يتمّ التحفّز إلى رفع الصّوت الخافت إلى صوتٍ جهورٍ خالٍ من التلعثم مع فائق الوعي والإدراك بقبول ما يترتّب عليه من أفعال، (سالبة أو موجبة) وبخاصّة إذا عرف الخائف أنَّ قبول الموت بالقوّة هو المنقذ له من الخوف والموت معا.

الخائف المخيف:

الخائف الذي يقف عند حدّ الخوف خائفا ولا يتدبّر أمر خوفه؛ فلن يكون مخيفا، أمّا الخائف الذي يتدّبر أمره، ويفكّر في مستقبله الذي يجب أن يبلغه أمنا، لا شكّ أنّه سيعدّ العدّة التي بها سيرهب من كان مصدر خوفه، ومن هنا يصبح الخائف مخيفا.

إذن، العلاقة بين الخائف والمخيف هي علاقة بين من يمتلك مقاليد القوّة وبين من فقدها، فالخائف الذي هُزم في ميادين المعركة، إن لم يقف عند حدّ الهزيمة، جنبا إلى جنب مع المنتصر عند حدّ النصر، لا شكّ أنّه سيكون مخيفا بأسباب خوفه الذي يحفّزه ويدفعه إلى التدبّر والتذكّر والتفكّر في شئونه وأمره.

وكذلك المنتصر إن امتدّ قامعا، أو ظالما، أو معتدٍ على الخائف، ولا يقف عند حدّ النّصر؛ فإنّ الخائف ليس له بدّ إلّا تحدّي الخوف؛ فتتبدّل صفته من صفة الخائف إلى صفة (الخائف المخيف) وذلك بقبوله الموت ثمنا للحياة الكريمة.

ويتّضح من هذا المثال أنّ المنتصر خائف مثله مثل المنهزم، وهو كذلك مخيف مثله مثل المنهزم، حتّى وإن اختلفت العلل والأسباب وراء كلّ خائف ومخيف.

ولأنّ دلالة مفهوم الخوف واحدة؛ فالخوف لا يقع في الأنفس إلّا في الزّمن الآن، ولا يكون إلّا من أجل مستقبل، ولذا؛ فإن كان المستقبل من أجل الجميع هو الأفضل والأجود والأنفع؛ فلا خوف، ولكن إن كانت المعطيات والدلائل والمؤشرات غير مطمئنة فالخوف هو الملجأ والمنقذ.

ومن ثمّ؛ فالخائف والمخيف هما الطّرفان (المنتصر، والمنهزم) ولكلّ مبرراته، وللموضوعية مبرراتها؛ فالمنتصر يرى نفسه يمتلك القوّة المادّية التي بها تمكّن من امتلاك القرار تنفيذا، ويرى في الخصم عدوّا له حتى وإن تمّت مغالبته، وفي المقابل الذي تمّت مغالبته بالقوّة يرى المنتصر عدوّا له لكونه قد ألحقه هزيمة، ولم يتوقّف بعد عن تقديم المزيد من الإهانات له، وبهذا يستفزّ؛ فيتحفّز إلى ما يدفعه إلى البحث عن امتلاك العدّة الممكّنة من امتلاك القوّة التي بها تعاد

الكرامة؛ فالمنهزم لا شكّ أنّه يعيش مرحلة نفسية ممتلئة بالغبن، ما يجعله متوسّعا في تحدّيه اللفظي، ومُقدما على العمل السرّي أكثر من العمل العلني.

ولهذا فالمبررات الموضوعية بينهما منعدمة، ذلك لأنّ الموضوعية تستوجب منطقا، وحجّة، وعدالة، ورقيّا ذوقيّا، وهذه بين الغالب والمغلوب منعدمة، فالحقّ يجب أن يحقّ والباطل يجب أن يزهق.

ولأنَّ الموضوعية تستوجب الاعتراف بالآخر؛ فلم لا يتمّ الاعتراف به؟ وتستوجب احترام الآخر؛ فلم لا يتمّ احترامه؟ وتستوجب استيعاب الآخر؛ فلم لا يتمّ استيعابه؟ وتتطلّب تفهّم الظروف الشخصية والجماعية والمجتمعية والأخلاقية؛ فلم لا يتمّ تفهّمها؟

وهنا بالتّمام تكمن المشكلة، وهنا بالتّمام يكمن الحلّ.

إذن، المخيف هو من لا يتّقي الحقّ في الآخرين وما يتعلّق بهم من أمر، أي: هو من يعرف الحقّ ولكنَّه لا يعترف به؛ فيتطاول ويعتدي على حقوق الآخرين بالقوّة.

وبناء على ما تحمله هذه المصطلحات من مفاهيم موضوعية، وبناء على ما جرى عبر التاريخ، وما سيجري من صدامات ونزاعات واقتتال واحتلال، فإنّ الأمر سيتجدّد ويتكرّر إذا لم يمتلك

الضّعفاء القوّة كما يمتلكها من بلغ القوّة من قبل، وذلك ليقف كلّ عند حدّه.

فعلى سبيل المثال: كلّ الحركات والجماعات التي وُلدت من رحم الخوف وتكوّنت بأسبابه، هي المولود من أجل بلوغ الطمأنينة، وبأيّة وسيلة، وبأيّ أسلوب وطريقة، ولأنّها كذلك؛ فهي القائمة على الرّغبة في الموت والاستشهاد والفداء تخلّصا من الخوف الذي جعل البعض خائفا والبعض مخيفا. ومع ذلك فإنّ هذه المظاهر لا علاقة لها بمفهوم الإرهاب كما يراه الدّين الإسلامي؛ فالإرهاب هو ذلك الأثر النفسي المتحقّق بأسباب الإعداد والعُدَّة بين الأنا والآخر، وهو مرحلة قبل بدء فعل الاعتداء أو الدّفاع على حدٍ سواء.

إذن، من المعلوم أنَّ من يعدُّ عُدَّة إنَّما يقصد أوّلا وعلى سبيل التفكير المنطقي أنْ يوقف العدوان الذي يتوقّع حصوله من خصم ما، ولكن إذا لم توقف العُدَّة التي أعدَّها هذا المعِدُّ العدوان عليه؛ فمن المنطقي ومن العدل أن تُستخدم القوّة في موضع الدّفاع عن النّفس، وهو أمرٌ تقرُّه الشرائع الإلهية والدّساتير الإنسانية على حدٍ سواء، بل إنَّ حقَّ الدّفاع عن النّفس هو حقٌّ مقدَّس لدى المجتمعات الإنسانية.

لكنَّ من يعدُّ عُدَّة لكي يبدأ بها عدوانا بإصرار وترصّد؛ فهذا خارج دائرة الإرهاب وهو في دائرة العدوان، لأنَّ الإرهاب الحقيقي هو الذي يوقف العدوان ويمنع الظلم بما يحقّق الطمأنينة والاستقرار.

إنَّ من يقوم بالإعداد لعدِّة داخل مجاله وحدوده الاجتماعية أو الوطنية دون سعي منه للامتداد على حساب الآخر؛ فعمله يُعدُّ عملا خاليا من العدوان، ومجردا من الرغبة في إلحاق الضّرر بالغير، ولا باطل فيه، ذلك لأنَّه أعدَّ العدّة ليمنع وقوع العدوان، وهو بذلك حقّق طمأنينة منشودة، وأبعد عن نفسه ومجتمعه شبح الخوف الذي لو ساد لكان الانفلات السلوكي ردّة فعل قد يصل في بعض الأحيان إلى حدّ الكارثة وما يمكن أن يكون في دائرة الممكن غير المتوقّع.

وعندما يبث المخيف مخاوفه باتجاه الآخر، ويتملّك الخوف منه؛ ففي دائرة الممكن المتوقّع يكون هناك ردّة فعل على ذلك، وهذا الأمر يُفضى إلى ظهور العنف بشتى أشكاله، وبمظاهر متباينة، وهذه المظاهر تدور كلّها في فلك ردّة الفعل؛ فكلّ من يُعدُّ العدَّة بقصد وإصرار وترصّد على إخافة الآخرين لا بدَّ أن يولِّد خائفين، وإذا ولّد الخائفون فهم بالمنطق يقدمون على أفعال المواجهة من الخوف، أو مواجهة ما يخيفهم فعلا وعملا وسلوكا؛ فالخوف لا بدَّ أن يولِّد ردّة فعل لأنَّه من ثوابت الفطرة الإنسانية التي تدفع الإنسان

إلى الإتيان بردّة فعل لها، من أجل درء مسبِّب الخوف ثمّ الانتقال من حالة الخوف إلى حالة الطمأنينة.

ولذلك، من المهم أن يفهم من يقوم بدور المخيف أنّه بهذا النمط من السّلوك أفرز جبهة من الخائفين الذين يتربّصون بدرء الإخافة، وهذا دليل أنّه أوجد على أرضية الواقع عددا من الأعداء الذين يتربّصون به من أجل منع مظاهر التخويف من النيل منهم، ولكن لو فكَّر المخيف في غير ذلك، ألا تكون الطمأنينة هي البديل الأنسب والأفضل الذي يبعد عن الأذهان التفكير العدواني الظالم؟

وإذا ما تحقّق ذلك، ألا تكون السّيادة بدون منافس للعلاقات المتوازنة المبنيّة على الاحترام بين الأنا والآخر، ويختفي الخوف ويُنزع من الصّدور التي ضاقت به أحقابا من الزّمن؟

إنَّ الإرهاب الناتج من إعداد العدّة بدون شكّ يجعل من كان مخيفا واقفا على الحدود وهو يحسب في نفسه ألف حِساب لِما يراه من عُدّة مرابطة على الطّرف المواجه له، أمّا الذي أعدَّ العدَّة ووقف عند هذا الحدّ إنَّما يقصد من إعدادها أن يمنع العدوان، ولكنَّ سيطرة الخوف على الجماعات أو المجتمعات من خلال سياسة التخويف من الأقوياء للضّعفاء سيترتّب عليه ولا شكّ البحث عن حلّ، وربما يكون الحلّ منطقيا عادلا، وربما يكون الحلّ اعتداءً أو فداءً أو تفخيخا أو أيّ سلوك يعدّه البعض خارج دائرة المنطق.

وهكذا؛ فإنَّ الإرهاب من حيث المفهوم لا يتداخل مع سلوكيات الاعتداء والإجرام والتفخيخ واختطاف النّاس والإهلاك على الإطلاق، بل هو يتقاطع معها في أنَّ الإرهاب مانع للاعتداء، ويدعو إلى منع العدوان في كلِّ مكان وأيِّ زمان، بينما العدوان سلوك فاعل يهدف إلى إيقاع الأذى بالآخرين، ويدعو إلى أفعال عدوانية ويحث عليها.

إنَّ الفرق بين المرهب والمخيف هو: أنَّ المرهب هو الذي يمتلك القوّة ويتحكّم في مقاليد الأمر، ولم يستخدمها في أيِّ مظهر عدواني سوى الردّ على العدوان، وهو الذي يمتلك القوّة لكيلا تسود المظالم بين النّاس.

أمّا المخيف؛ فهو بداية ونهاية يعدّ العُدّة بهدف الاعتداء على حقوق الآخرين وأوطانهم وثرواتهم ظلما، ولذا؛ فكلّ من يُعتدىَ عليه ظلما سيظل خائفا من الذي يشكّل خطرا عليه، ولهذا لم يكن الخوف من العُدَّة التي تُرهب، بل الخوف من استخدامات العُدة بغير حقّ.

إنَّ امتلاك القوّة يجب تحقّقه في الأفراد والجماعات والمجتمعات، على أن يكون امتلاك القوّة من أجل تعادل الأطراف على مركز الاتزان المعياري الذي كلّما تكرّر المقياس به كانت النتائج المتوصّل إليها هي كما هي، من أجل الجميع، لا من أجل مغالبة

طرف على طرفٍ، وبهذه النّظرة الإنسانيّة يختفي الخوف وبخاصّة عندما يرى الأنا أنّ الآخر لم يعدّ يشكّل خطرا عليه، ولذا تنتهي مظاهر الإخافة، التي تورِّث الظلم والعدوان، إلى جانب أنَّها ستبذر في النفس الإنسانية بذور العداء التي من الصّعب اقتلاع جذورها.

إنَّ المخيف الذي يمتلك القوَّة في دائرة الممكن والنسبية ليُخيف بها الضّعفاء (أصحاب الحقوق) إنْ ظنَّ أنَّ الخائف سينسى ويصمت على ما يلمّ به ومن قبله ألمَّ بآبائه وأجداده من مآسي وآلام؛ فهو مخطئ وسيكتشف يوما أنَّ الجروح الدّامية لا يكفّ نزيفها إلا بالإصلاح والتعويض المرضي للذين ظُلموا.

وعليه فإنّ مقولة: (الخوف دائما يجعل من الخائف مستسلما للمخيف) مقولة باطلة، ومن يظن غير ذلك سيجد الزّمان كفيلا بإظهار الحقيقة، ولهذا لن يؤكل دَينا ما دام وراءه مطالبون؛ فالخوف في دائرة الممكن غير المتوقّع هو الذي يجعل المخيف يقبل الإقدام على فعل أيِّ شيء حتى وإن كان انتحارا.

وهنا فالعلاقة بين الخائف والمخيف علاقة لا ثقة تسندها، بل الذي يسندها بوضوح هو العمل على كسب الوقت؛ فالزّمن بالنسبة للخائف كفيل بترّويض الطّغاة، وكفيل برمي الخوف في زبالة التاريخ، وكفيل بامتلاك القوّة لمن يسعى لامتلاكها، وكفيل بتغيير الأحوال من الغفلة إلى الفطنة والصّحوة، وكفيل باسترجاع الحقوق، وكفيل

بإلحاق الانتقام من الذين يظلمون، {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[108]، وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[109].

ولأنَّ الخائف يعلم جيدا أنَّ الخوف مؤقت؛ فهو لم يكن متسرّعا ولا مستعجلا، بل لثقته بأنَّ اليد التي امتدّت عليه ولا يستطع قطعها ليس له من بدٍّ إلّا أن يُقبّلها إلى أن يستطيع. وعندما يستطيع عُدّة وقدرة واستعدادا سيكون الإعلان عن ذلك بالنّسبة له ضرورة، وستكون المعادلة الجديدة مؤسّسة على ردِّ الاعتبار ونيل الاعتراف من الآخر الذي كان غافلا عن حقيقة من أخافه ظلما، وإن لم تكن الاستجابة المرضيّة ستكون المواجهة معه حتمية.

وعندما يكتشف الذي كان مخيفا، بأنَّ الخائف قد امتلك القوّة المرهبة، سيرتهب، وحينها سيأتي مسرعا إلى تقديم التنازلات للآخر حتى يتمَّ تعادل كفتي الميزان دون أن تُرجَّح كفّة على كفّة.

وعليه؛ فإنَّ الإخافة لا تولِّد خائفين، بل تولّد المتمرِّدين والغاضبين والثائرين، ولهذا فعمر الظالمين قصير؛ فلا يخيف، بل الذي يخيف ألا يعدَّ الخائف العُدّة المرهبة للمخيف.

---

[108] إبراهيم 47.

[109] إبراهيم 42.

وبهذا تصبح مقولة الخائف والمخيف هي استثناء وليست قاعدة؛ فالقاعدة هي: (تبادل الثقة طمأنة)، ولذا تبقى القاعدة ويتغيّر الاستثناء الذي يفترض أنَّ الإخافة لا تولّد إلا خائفين مستسلمين، ولم يفترض أنَّها ستولِّد متمرِّدين متأهبين لردِّ العدوان والدّفاع عن النّفس، ومفكِّرين بشتى الوسائل لإيقاع أكبر الضّرر بالمخيف إن لم يقبل بالوقوف عند حدّه.

ولهذا، لم تكن نظرية الإخافة ولن تكون حلّا، بل إنّها نظريّة لاشتداد التأزُّمات، وإن لم يُنزع التخويف من عقل المخيف؛ فلن يُنزع من ذهن الخائف تقبيل اليدين من أجل أن يُقطعا.

إنَّ نظرة المخوِّف ترى أنَّه بحاجة إلى تجويد ملامح التخويف وتقويتها من خلال استعراض أكبر كم من صور الاعتداء والبطش والظّلم، وعليه؛ فإنَّ نظريّة التخويف تجاه الضّعفاء من ميزاتها أنَّها كلّما ازداد التخويف شِدّةً حفّز الخائفين على قبول التحدّي وحفّزهم على التمرُّد والثورة حتى امتلاك القوّة التي بها يُرهب المخيف ويقف عند حدّه، ومن ميزاتها أيضا أنّ النتيجة التي سيتمّ التوصل إليها هي حذف كلمتي (خائفٍ ومخيفٍ) من القاموس الفكري، ومن بعدها لن يكون على أرض الواقع:

- مستسلم مترقّب لتلقّي الضّربات.

- مُقدِم على تقديم المزيد من أفعال المظالم.

- متنازل عن حقوقه من أجل اتقاء المخوّف.

. متأهّب للخوض في تحقيق أفعال المظالم.

وبتفحّص هذه الأنماط الأربعة لا شكَّ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع أن يكون التفكُّر والتذكّر هما اللذان يقودان العقل الإنساني إلى الأخذ بما يُخلّص من الخوف والتخويف، وإن لم يصل عقل الأنا لتقدير ذلك واعتباره سيجد نفسه بامتلاك الآخر للقوّة مرتهبا، وهو مضطر لتقديم التنازلات التي بها يتمّ الجلوس على طاولة التفاوض والتفاهم والتفّهم.

إذن عندما يعرف المخيف أنَّ الخائف لا يخاف الموت، فَبِمَ سيخوفه؟

يقول جيمس ماتيل الذي كان رئيسا لطاقم الموظفين بمكتب الخارجية الأمريكية للمحاسبة والشفافية ببغداد: (الخوفُ هو الخيط المشترك الذي يَنْسجُ الحركاتَ السياسيةَ العَنيفةَ سوية، فهو لَيسَ الحافز الوحيد وراء العنفَ السياسيَ، ولا بالضرورة الأكثر وضوحا، لَكنَّه عمليا دائما هناك حينما نَسْألُ لماذا يَكْره الناسَ، أَو لِماذا هم راغبون في القَتْل أَو الموت من أجل قضية ما؟ الجواب دائما .... الخوف).

وهنا يمكن القول: إنَّ الخائف ليس بالضّرورة أن يكون خائفا من الموت؛ فالمؤمنون يعتقدون أنّ الموت حقّ، ويعتقدون أنّ الأحياء لن يموتوا قبل أن تنتهي أيّام أعمارهم، ولهذا فهم لا يخافون الموت باعتبار أنّهم لن يموتوا إلّا إذا كانت أيّامهم التي أعدّها الله لهم قد انتهت، أي أنَّهم يؤمنون أنّ الحرب والاقتتال لا ينهي الأيّام والأعمار إذا لم تكن عند الله منتهية، {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[110]، ولهذا يخوضون الحروب إذا ما كُتبت عليهم كرها بغاية أن تُكتب لهم الحياة.

وعليه الكلّ يسعى للتخلّص من الخوف، أي أنّ كلّ الأطراف خائفة من الخوف، ممّا يجعلهم يسعون إلى التخلّص منه وبكلّ الوسائل والأساليب؛ فالخائف هو خائف لأنَّه يستشعر الخوف، ويريد أن يتخلّص منه، ولذلك يرى أنَّ العدوان على المخيف ربّما يُخرجه من حالة الخوف إلى حالة الاطمئنان؛ فالخوف شعور يعبّر عن عميق المعاناة المسيطرة على الإنسان؛ فيشلُّ رغباته في التفكير ممّا يجعل الإنسان في دائرة التوتّر والقلق المتّصلين، من أجل البحث عن حلٍّ يفضي للوصول إلى حالة الاطمئنان المنشودة، الأمر الذي يوجّه السّلوك إلى دائرة الممكن للإقدام على الفعل المتوقّع والفعل غير المتوقّع.

---

[110] النحل 61.

والمخيف بدون شكّ يعرف أنَّ الخوف شعور لدى كلِّ الكائنات؛ فما بالك بالبشر، إنّه شعور قوي يُحفّز على اتخاذ قرار المهاجمة للدّفاع عن النّفس، دفاعا شديدا واضح المنهج ومعلوم النتائج، أو دفاعا هائجا هستيريا ينتج ضررا ربّما يتجاوز حدود المهاجم إلى غيره وما هو أبعد منه.

ولأنّ الخوف مشكلة أنتجت قاعدة (الخائف والمخيف) وجعلت بعضا من الخائفين يقبل الموت ويقدم على تنفيذ أفعاله دون تردّد، ولأنَّ لكلِّ مشكلة حلّا؛ إذن، لماذا لم يلتقِ الخائف والمخيف لفكّ الفتيل؟

أقول:

الفتيل لا يمكن أن يُفكّ إلا بالتقاء أيدي المخيفين بأيدي الخائفين، ولكن هذا الأمر لن يتحقّق إلّا إذا امتلك الخائف القوّة الفاعلة عُدّة وإعدادا وتدريبا ومهارة وتأهّبا، حينها يعرف المخيف أنّ زمن تخويفه قد ولّى إلى النّهاية، قال تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}[111].

يُفهم من هذه الآية الكريمة: أنَّ كفّة الصّدام قد تعادلت؛ فَلَمْ يعدّ لخائفٍ ومخيف وجود، بل الوجود لطرفين هم على القوّة التي بها

[111] الحشر 13.

قد تحقّق فعل الإرهاب؛ فالمؤمنون من جهة هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الله تعالى، والذين لا يفقهون هم الذين امتلأت صدورهم رهبة من الذين آمنوا.

ومع أنّ الله هو أشدّ رهبة، إلّا أنَّ الذين لا يفقهون عندما رأوا قوّة الذين آمنوا ارتهبوا؛ فاعتقدوا أنَّها أشدّ رهبة من رهبة الله، ولكن الذين آمنوا يؤمنون بأنّ رهبة الله جل جلاله هي الأعظم، ولو أدرك الذين لا يفقهون أنّ الله هو الشديد لآمنوا أنّ الله أشدّ رهبة. ولهذا فإنَّ إعداد العدّة هو الذي يُرهب من لا يعترف ولا يقدّر الآخرين ويوقفه عنّد حدّه وإنْ لم يقف عنّده سيُلقَّن درسا يعيده إلى الذاكرة التي تُمكّنه من الاعتراف بالآخر وتقديره[112].

الحقوقُ ممارسة:

الحقوق هي ما يمكن أن يكون للإنسان لكونه مواطنا يحيا حياته الطبيعية، ومع ذلك بإجراءات إقصائية قد يُحرم البعض من ممارسة حقوقهم الإنسانية والاجتماعية والوطنية، ولذلك فالحقوق تؤخذ بلا إذن من أحد، وإن سُلبت من قِبل البعض؛ فالمطالبة

[112] عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، المجموعة الدولية، القاهرة، 2011، ص 195 . 205.

بعودتها ضرورة، وإن ظهرت الممانعة أو الاعتراض على عودتها لأصحابها دفعتهم إلى المواجهة.

ومع أنَّ الحقوق قابلة للممارسة عن إرادة، إلّا أنَّها في أوطان التكميم تتعرّض للتقويض بلا مبررات منطقية، ومن هذه المبررات: أنَّ المواطن لم يكن في مستوى الإدراك السياسي الذي به يتمكّن من ممارسة حريّته سياسيّا، وهو أيضا لم يَخبُر بعد إدارة الشئون الاقتصادية، وبالتَّالي فإنَّ الحكومة هي المسئولة، ممّا يستدعي سنّ القوانين التي تخوّل الحكومة لأن تحلَّ محلّه، وهذه الحكومة في بلدان التكميم لا تستطيع أنَّ تحلّ محلّ المواطن كاملا إلّا بعد أن تعرض كلّ شيء على قمّة السُّلطان الذي بيده الأمر والنّهي، ولأنَّ المواطن يعرف حقيقة الأمر بأنَّ ذلك هو سلب لإرادته؛ فيرفض بداية، ويقبل وسطا عن غير إرادة حرّة، ويثور نهاية بكلّ إرادة حتَّى يسقط قمّة السُّلطان من على قمَّة السُّلم السُّلطاني ويستردّ حقوقه أو يستشهد دونها.

فالحقّ لا يحقّه إلَّا الحقّ، والباطل لا يسنده إلّا باطل، والفرق كبير بين من يتّصف بالحقّ حتَّى يسمى به ويتّصف، وبين من يرتكب الباطل حتَّى يتّصف به، ولتبيان ذلك أقول:

. كلمة الحقّ الأولى في الجملة السابقة: تدلّ على التصاق الفعل بفاعله.

. وكلمة الحقّ التالية في الجملة السّابقة، تدلّ على المصدر الذي يُستمدّ الحقّ منه.

. وكلمة التّوسط بين الحقّين (لا يحقّه) تدلّ على أن الحقّ لا يستطيع إحقاقه هو كما هو إلّا الحقّ الذي استمدّ منه.

وفي المقابل جاءت الجملة التالية: (الباطل لا يسنده إلّا الباطل)، وهذه الجملة هي الأخرى حقّ، ولكنَّها ليست الحقّ الذي جاء بالحقّ؛ فكلمة الباطل التي وردت أوّلا في جملة ما بين القوسين السابقين، هي الباطل (هو كما هو)، والباطل التالي للباطل في ذات الجملة، هو: الفاعل للفعل الباطل، وهو الذي لا تسنده حُجَّة حقّ. ولهذا؛ فالحقّ كما قال جبران خليل جبران: (يحتاج إلى رَجُلين، رَجُل ينطق به، ورَجُل يفهمه).

ولذا؛ فالحقّ هو الحقّ، سواء أكان اسما، أم صفة، أم فعلا؛ فالحقّ لكونه قيمة أخلاقية يتوحّد مع الذّات، ويتوحّد مع القول، ويتوحّد مع العمل، ويتوحّد مع السّلوك، ويتوحّد مع الفعل، وعندما يتمّ التوحّد به يأخذ المتوحّد به صفة الحقّ الذي لا يتبدّل (هو كما هو)، ولكن الحقّ في أوطان التكميم يتعرّض للاختطاف قبل أن يمارس، ممّا يجعله قيمة مقوّضة بالقوّة التي لا يرتضيها من قوّضت حقوقه عن الممارسة الحرّة.

ولأنّ الحقوق تؤخذ؛ فهي لا تؤخذ إلّا عن طريق الحواس؛ فعندما تكون المشاهدة حقّا؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يُحرم منها، وإذا كانت الملاحظة حقّا؛ فكذلك لا ينبغي لأحدٍ أن يُحرم منها، وهكذا عندما يكون السّمع والذّوق واللّمس والتفكير والتعليم والعمل حقوقا؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم أحدا منها، ولأنّها حقوق؛ فينبغي أن تمارس بإرادة، ومن ثمّ؛ فالحقوق تُسلّم فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين أو الأكثر.

والنّظام الديمقراطي هو النّظام الذي لا تقع فيه الحقوق في خانة المطالب؛ فإذا كانت في خانة المطالب؛ فذلك يعني أنَّ هناك قيودا تحول بين الطالب والمطلب (بين الحاجة ومشبعاتها).

ومن ثمّ، لا ينبغي أن تكون الحقوق مطالب، بل ينبغي أن تكون إشباعات وفقا للحاجة؛ فعلى سبيل المثال، الحرّية حقّ، والسّلطة حقّ، والملكيّة حقّ؛ فلا ينبغي لأحدٍ احتكارها تحت أيّة مظلة، ولا ينبغي أن تكون مِنَّة من أحدٍ.

ولكن لا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس ما لم تتوافر اشتراطاتها الرّئيسة وهي:

1 ـ الرَّغبة: وهي القوَّة العقلية الموجّهة لهدفٍ محدّدٍ أو موضوعٍ بعينه، وهي إحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه، وهذا

الأمر يجعل روح التجاذب تُحرّض على المتابعة والاقتراب ممّن تتوافر فيه اشتراطات الإشباع المرضي؛ فالإنسان السّوي دائما تملؤه الرّغبة وتشدّه تجاه ما ينبغي أن يكون له من حقوق، وهو لا يأمل أبدا أن يحول أحد بينه وبينها، وإن أُكره من أحدٍ على ذلك فيرفض، ثمّ يتمرّد، ثمّ يثور إلى أن يعيد حقوقه للممارسة أو يستشهد دونها.

2 ـ الإرادة: الإرادة وعي عقلي ومعرفي ونفسي، بها الإنسان يتمكّن من اتخاذ القرار المتعلّق بأمره رفضا أو قبولا، وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة والإقدام على الفعل والسّلوك؛ فمن امتلك زمام أمره إرادة تامّة تقدّم تجاه ما يرغب دون أن تكون رغبته على حساب رغبات الآخرين، ولكن الإرادة في معظم الأحيان تُكبح من الدكتاتوريين الذين يلجمون الأفواه المطالبة بها؛ فيحدث التنازل عن ممارسة الحقوق بآلام فقدان القوّة الممكّنة من سيادة الإرادة، ويسود النّفاق دوائر الحاكم والمحكوم إلى حين أنْ تتاح الفرصة الأخيرة للانقضاض على ذلك المقوّض للقيم الكريمة التي بإعادتها يعيد المواطن حقوقه للممارسة الحرّة.

3 ـ الطّلب: سؤال يتعلّق بالحقوق عندما تكون بيد الآخر سواء أكان المؤتمن عليها أو الذي يحتكرها، ونظرا للإحساس بالحاجة والتعرُّف على بواعث مشبعاتها تصبح المطالبة بالمشبِع حقّا لا يمكن التخلّي عنه، ولا يهدأ البال وتطمئن النّفس إلّا بأخذ ما

يشبع ويحقِّق الرّضا، ولأنَّ الحقوق في الأوطان الحرّة تمارس؛ فلا يوجد من يطالب بها.

أمَّا في أوطان لا ديمقراطية؛ فإنَّ المطالبة بها تعدّ في نظر الحاكم الظّالم جريمة يعاقب عليها القانون، ولهذا يُظهر المواطنون المحرومون من ممارسة حقوقهم الطّاعة للقانون الذي سُنَّ لحرمانهم من ممارسة حقوقهم، وفي المقابل يبطنون له ولمن سنّه ما لم يكن متوقّعا لأولئك الذين سنّوا ذلك القانون فاقد العدالة.

ولأنّ الحقّ يمارس؛ فمن يُحرم من ممارسته بالقوّة سيكون رافضا لتلك القوّة، وسيكون متربّص الدّوائر بمن حرمه من ممارستها إلى أن يطيح به؛ فحرمان المواطن من ممارسة حقوقه في السُّلطة والثروة والسياسة وفي الرّغبة يدفعه بالقوّة إلى الرّفض وقبول التحدّي، ممّا يجعل المحرومين من ممارسة حقوقهم يشكّلون كتلة عظيمة لا تقهر، وتزداد عظمة عندما تثور وحدة واحدة، ومن هنا؛ فممارسة الحقوق عن إرادة تامّة، يحفّز على ممارسة الحرّية كما يحفّز على بلوغ الآمال المرجوة.

الواجباتُ أداء:

يعدّ أداء الواجب من منابع الأمل التي تمكّن الإنسان من بلوغ الغايات والثقة في النفس لا تفارقها، والواجب هنا هو ما يجب أن

يؤدّى بلا تأخير؛ فلا ينبغي التملّص من أدائه؛ فأداؤه ملزم قانونا وعرفا وخلقا، والواجبات تؤدّىَ في مقابل حقوق تؤخذ وتمارس، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذّات الفردية أو الجماعية في حالة الإيجاب، أمّا اقتصار أولئك الأفراد والجماعات على أخذ الحقوق فقط؛ فإنَّ ذلك يجعلهم طرفا سلبيا، وسيظلون على هذه الحالة السالبة حتى يؤدّوا واجباتهم في مقابل حقوق تمارس، ولذلك فمن الواجب على الإنسان أن يعمل ويفعل ويسلك في مقابل ما أخذ أو أعطي إليه، وهذا لا يعني أنَّ الحقوق والواجبات هما المرتكزان ولا شيء غيرهما في ممارسة الدّيمقراطية، بل هناك شيء آخر من مكوِّناتها الرّئيسة ألا وهو المسئولية؛ التي بدونها لا يمكن أن يؤدَّى الواجب بنجاح، وكذلك المسؤوليّة هي الأخرى لا تُحمل بنجاح إلّا والواجب يصاحبها.

ومن ثمّ؛ فالعلاقة قوّيّة بين ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليّات، والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود طرفان أو أكثر، ممّا يستوجب أن يسود الحوار بينهم حتَّى يسري أو يسود القبول والتقارب والتفاعل، أو يسود الرّفض والابتعاد والفرقة، أو يسود الانسحاب، وفي حالة القبول والتّفاعل الذّاتي تتكوّن العلاقات، وتقوى الرّوابط الاجتماعية والإنسانية، وعندما تتكوّن العلاقات يترتّب على ذلك بالضّرورة (أخذٌ) كما هو مبيّن في الحقوق، و(عطاء) كما هو الحال في الواجبات، أي أنَّ العلاقة بين

المسئوليّات والحقوق والواجبات هي علاقة (قرار، وأخذ، وعطاء). أيّ: في اتخاذ القرار مسئولية، وفي الأخذ حقوق، وفي العطاء واجبات.

وعليه، لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلّا والمسئولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر على سبيل المثال: نجد أنّه مسئول عن أفراد أسرته، وفي ذات الوقت لهم واجبات عليه ينبغي أن يؤدِّيها تجاههم، وما يُعدّ واجبات على وليّ الأمر تجاه أفراد الأسرة هي ذاتها تُعدّ حقوقا بالنّسبة لهم، وهكذا في حالة التّبادل يظلُّ لوّليِّ الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها، وفي ذات الوقت تعدّ واجبة الأداء على أفراد الأسرة، ولذلك؛ فإنّ الحقوق والواجبات والمسئوليات الذّاتية يتمّم بعضها بعضا كما تتمّم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضا.

ولأنَّ الحقوق واجبة الممارسة بإرادة؛ فكذلك الواجبات والمسئوليّات ينبغي أن تؤدّى وتُحمل بإرادة، ولكن إن اعترض معترض على أصحابها بالمنع كرها؛ فليس لهم بدّ إلّا الرّفض، وقبول التحدّي وإعلان المواجهة حتى تُسترد الحقوق وتؤدّى الواجبات.

ولأنَّ الواجب ينبغي أن يؤدّى؛ فلا داعٍ لأحدٍ من أفراد الشّعب أن يتأخّر عن أدائه، وإذا تأخّر ينبغي أن تلزمه القوانين

الشرعية المستمدّة من الدّساتير التي أقرَّها الشّعب بأسره دون تغييب ولا إقصاء لأحدٍ من المشاركة.

ومع أنَّ الواجبات تؤدّى، ولكن أداءها قد لا يكون ميسّرا بأسباب ما يقوّضها من عوائق، والتي عندما تقوّض يصبح أمل الارتقاء في خبر كان، ممّا يستوجب تقييم الظّروف وتقويمها حتى تصبح الظّروف مناسبة لأداء الواجبات منبع الأمل.

وعليه؛ فالعلاقة قويّة وموجبة بين منابع الأمل (ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليات) وهي التي متى ما فُقد منبع من منابعها، تأثرت الأخرى منها سلبيا.

المسئولياتُ حمْل:

المسئولية عبء ليس بالهين، وعلى أيّ مستوى من المستويات، سواء أكانت على مستوى الأسرة والجماعة أم أنّها كانت على مستوى حمْل أعباء مسئولية الدّولة أو حتى على إدارة من إداراتها، ومع ذلك فهي واجبة الحمل، وفقا لما يجب أن تُحمل من أجله.

والمسئوليّة التي يجب أن تُحمل من قبل الذين يتعلّق الأمر بهم تتعرّض بين الحين والحين إلى التقويض من قبل الذين يتحكّمون في أمر الوطن والمواطنين.

ومع أنَّ حمْل المسئولية عبء ثقيل، ولكنّه واجب الحمْل؛ فمن يقبل حمل عبأها وهو راضٍ بمشاركته في الأمر المتعلّق به والآخرين، سيكون في حالة توافق وتفاعل، وفي مقابل ذلك من يُحرم من المشاركة في حمْل المسئوليّة قد يجد نفسه في مواجهة سرّية أو علنية مع من يحرمه من حملها، وإذا تمسّك الخصم بحرمانه؛ فستكون المواجهة معه هي السّبيل إلى بلوغ الحلّ.

إذن؛ فالمسئوليّة عبء تستوجب أن تُحمل، ويُحمل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام، ومع أنّها المسئولية، ولكنّها حق لمن يكون مسئولا عن رغبة واختيار أو عن أبوة وأخوة، وربوبية عمل.

ولهذا يترتّب على المسئولية الطّاعة وفقا للأمر الدّستوري أو الأخلاقي أو الشّرعي، وفي المقابل يترتّب على الحقوق مطالب، أو أخذ، وكذلك يترتّب على الواجبات أداء، أو عطاء. وفي كلّ الأحوال؛ فإنّ المسئولية هي التي ستنظم هذه العلاقات بما يمكّن من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات، ممَّا جعل المسئولية هي الضّرورة التي تحقِّق الحماية أو الحراسة اللازمة؛ فعلى سبيل المثال: الحارس أو الجندي الذي يحرس مقرّا عامّا إنْ لم يكن واعيا بأعباء المسئولية الملقاة عليه، لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وكذلك الطبيب إنْ لم يكن مسؤولا، لا يمكن أن يؤدّي واجبه بأمانة؛ فالواجب بلا مسئولية لا

يمكن أن يؤدِّى بأمانة، وهكذا حال الحقوق، إذا لم تؤخذ بمسئوليّة لا يمكن أن تمارس بأمانة وموضوعيّة.

فالمسئولية تكمن في تحمُّل المخاطر والأعباء المترتِّبة على أداء الفعل أو السّلوك سواء أكان حقّا أم واجبا، ولهذا؛ فهي عبء يستوجب التحمُّل، ولأنَّها كذلك؛ فهي عمليّة عقليّة تُبنى على معطيات أو مسلّمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذّهنية، وتستوجب التمييز بين الخطأ والصّواب، وبين الحلال والحرام، وبين القوَّة والإرادة، ثم أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتِّبة عليه.

حمْل المسئوليّة التزام ووفاء بعهود؛ فمن يوفِّي بما تعهّد به كان مسئولا، ومن لم يوفِّ بذلك لن يكون مسئولا، سواء أكان مُكلّفا بما كُلِّف به من مهام ووظائف، أم أنّه ممّن يتولّون مهام تجارة وبيع وشراء، أم كان ممّن يتولون رعاية لأسرةٍ أو قُصَّر، {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ

لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}[113].

ولأنَّ حمْل المسئوليّة عبء؛ فحمْلها ليس هيّنا، ومن يقبل بحمله فعليه بالأمانة والوفاء بالعهد وإلّا سيجد نفسه ظلوما جهولا، ولأنَّ المسئوليّة عبء جسيم؛ فإنّ حملها يتطلّب مبرّرات لممارستها بإرادة، ومن هذه المبرّرات:

الصلاحيات: التي تقرّها الدّساتير، وتسنُّ لها القوانين التي من خلالها يتمكّن المسئول من حمْل أعباء المسئوليّة، وإنْ لم تُمنح صلاحيّات دستورية وقانونية للمسؤول، فلن يجد المسئول مسئولية يحملها، ولن يكون فعّالا في أداء مهامه ومسئولياته؛ ممّا يجعل الفساد يتفشّى في دوائر الدّولة من خلال مسئوليها.

والصّلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسئول الذي عندما يفعل يكون مسئولا، ومن يريد أن يكون مسئولا يجب أن يكون واعيا بصلاحياته تشريعا قبل أن يقدِمَ على أفعال المسئوليّة، وإنْ أقدمَ قبل ذلك سيجد نفسه في قفص الاتهامِ مذنبا.

وإذا انفرد أحد بمهام المسؤولية دون أن تكون له صلاحيّات دستورية وقانونية، فما يقدم عليه بغيرها سيكون باطلا، ومن ثمّ،

---

[113] الإسراء 34 . 38.

سيعرّض نفسه للمسائلة والمعاقبة، ولذا؛ فالذين انقلبوا بالقوّة استيلاء على السّلطة فهم يحكمون بغير صلاحيّات شرعية، وإن يعتقدوا أنَّهم قد شرّعوا لأنفسهم ما شرّعوا، نقول لهم أنَّ الشّرائع لا تكون إلّا من مصادر ثابتة من دين أو عرفٍ شريطة أن تستمدّ الدّساتير منها عن إرادة، أمَّا الاغتصاب فهو المحرّم والجرّم.

الاختصاصات: هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به؛ فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد المسموح به تشريعا (دون أن يكون الامتداد على حساب الغير) تُعدّ ذاته متّزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب، فمثل هذه الأفعال تعدّ أفعالا سالبة أو منحرفة، ولأجل أن تؤدّى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

الوعي: هو الاستنارة المترتّبة على النّضج العقلي الذي به تؤدّى وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل؛ فبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيُّن والمعرفة، كما أنّه يتمكّن من التّمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السّالبة، والتّمييز بين كلّ مفضّل ومرغوب، وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، فالوعي على صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تمكّن الإنسان من الفهم والتفهّم والاستيعاب، كما أنّها تمكّنه من الاختيار والتنفيذ والتقويم بمسئوليّة،

ممّا يجعل الشخصيّة المسئولة هي مركز الاعتدال والمعرفة الواعية مع وافر التوازن الانفعالي والسّلوكي.

القدرة: القدرة هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمّل لما يجب أنْ يتمَّ تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب الاستعداد والتهيؤ والتأهّب للقيام بالمسئولية، سواء على المستوى الفردي، أم الجماعي، أم على مستوى الدّولة. وفي كثيرٍ من الأحيان، وبخاصّة عندما لا تتعادل القوَّة، ولا يتوازن مصدر القرار في اتخاذه بمبررات غير موضوعية، تشتعل نيران الفتن، وقد تكون الصّدامات والنّزاعات الدّامية بين المتخالفين من أجل تحقيق أفعال المغالبة والإقصاء.

وعليه؛ فالمسئولية تستوجب وضع الشّخص القادر والمناسب في المكان المناسب، وتستوجب تأسيس إدارة متميّزة علما ومعرفة وخبرة وتجربة، ولكن هذه من قيم المجتمعات المتقدمة، أمّا الشّعوب التي لم تتقدّم بعد؛ فالمسئولية في بلدانها تمنح لمن لم يكن مسئولا، ممّا يجعل مؤسّساتها تدار بالمعارف والأقارب وبطانة حكومة الظّل التي تُقدِّم مصالحها على مصلحة الوطن والمواطنين؛ فتكون سياساتها سائدة بالإكراه تحت تأثير الخائف والمخيف؛ فيتم تفضيل الجاهل على المتعلّم، وفاقد الخبرة على الخبير، والذي لا تجربة له على صاحب التجربة الواسعة، ممّا يجعل حركة العجلة وإدارتها إلى الخلف بدلا من أن تدور إلى الأمام.

وفي المقابل عندما يُمكّن أو يكلّف المتخصّص والخبير والعادل وصاحب التجربة بمسئولية يكون مسئولا، فيستعين بالمناسبين للمناصب التي يجب أن يتولّاها أُناس من أصحاب الخبرة والكفاءة التي تؤهلهم للقيام بواجبهم على أكمل وجه، شريطة أن يكون تمكينهم من الوظائف مشرّعا.

وعليه؛ فإنْ مُنِعَ الإنسان من ممارسة حقوقه وتمّت مصادرتها؛ فلا بدَّ له أنْ يُطالب بها، وإذا تمّت المطالبة بها فيجب أن تُعطى، فإنْ لم تعطَ فلابدّ أن تُنتزع انتزاعا، ولا عيب بعد ذلك من قبول الصّفات أيّا كانت في حالة ما تمّ النّعت بها من قِبل الآخرين المتفرّجين حتَّى وإن خرجت تلك الصّفات عن دائرة المتوقّع، ولكن من المهم أنْ يكون النّضال شريفا من أجل الوطن وحرّية المواطن وكرامته التي تستوجب التقدير والاعتبار.

ولذا؛ فمن يصادر حقوق الآخرين أو يغتصبها، لابدّ أن يأتي اليوم الذي ينتزعونها منه انتزاعا، ومن بعدها لا بدّ لمن كان مغتصبا لها أن يرحل عن إرادة أو أن يُرحّل بغيرها.

وكذلك الواجبات بما أنَّها تؤدّى؛ فهي واجبة الأداء على من يتعلّق الأمر بهم، ولكن إذا حُرم الإنسان من أداء الواجبات؛ فقد حُرم حقاّ من حقوقه وإن كانت من الواجبات، ومن هنا؛ فمن يُحرم من ممارسة حقوقه ويطلب منه أن يؤدّي واجباته؛ فلا يمكن له أن

يؤدّيها، ولكن عندما يُمكّن المواطن من ممارسة حقوقه؛ فعليه بأداء واجباته، وإذا لم يُؤدّيها يُفرض عليه أداؤها فرضا (شريعةً أو عرفا أو دستورا وقانونا يُسنُّ من قبل الذين يتعلّق أمر أداء الواجبات بهم).

إذن، لا يحقُّ للمواطن أن يرفض أداء واجباته طالما أنَّه يمارس حقوقه بكلّ حرّية.

والمسؤولية أيضا عبء يُحمل في مقابل حقوق تُمارس وواجبات تُؤدّى، وإن مُكِّنَ المواطن من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحُرم من حمْل مسئوليّاته فلابدّ له أن يندفع غاضبا ورافضا من حيث يدري أو لا يدري؛ فيتولّد الصّراع والصّدام والخصام مع من حرمه من حمْلها بوافر الشدّة وحتى التشدُّد؛ فتنتشر الفتنة أو تحدث الاستجابة التي تؤدّي إلى إقرار السكينة والطمأنينة تفاديا لما يؤلم.

وعليه: توجد علاقة سلبيّة بين ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسئوليات، وبين الحرمان منها؛ ممّا ينتج الصِّدام والصِّراع والاقتتال بين من يطالب بها وبين من كان سببا في حرمانه منها.

الاعترافُ نيل:

يعدّ الاعتراف بالآخر منبع من منابه تحقيق الأمل؛ ذلك لأنَّ الاعتراف قيمة حميدة والجميع يأمله، ولكن في الوقت الذي يأمله الجميع، هناك من لا يأمل أن يتمّ الاعتراف بالمختلفين والمخالفين،

ولأنّ نيل الاعتراف مأمول؛ فينبغي أن تُعظّم قيمته وتفخّم حتى تسود بين النّاس.

ولأنّ الاعتراف بالآخر هو قيمة حميدة، لذا، نجد الكثير من النّاس يجتهدون من أجل أن يُعترف لهم بأنّهم مميّزون، وذلك بما لهم من ملكات وقدرات جعلتهم يتبوؤون المراتب الأولى على أقرانهم، ممّا يدعو المقدّرين لأهمية التميّز إلى الاعتراف لهم بذلك، والشدّ على أيديهم، ومساندتهم من أجل بلوغ المواقع الإدارية والمهنية والعلمية التي من خلالها يستطيعون إظهار مهاراتهم، وقدراتهم في أداء المهام التي تناط بهم وطنيا.

ولهذا، فمن يبذل جهدا متميّزا عن الآخرين، يتمكّن من نيل الاعتراف منهم مع وافر التقدير عندما تكون مقاييسهم موضوعية. ومن هنا، وجب على المسئول "أن يُشعِرَ مواطنيه أفرادا وجماعات بأهميّته مسؤولا مقدّرا، وذلك بإحقاقه الحقّ، وعدله، وسماحته، وحِلمه، ولين جانبه، كي يعترف له مواطنوه الذين ارتضوه حَكما بمقدرته على العمل، والعطاء للوطن إلى النّهاية، وفقا لقواعد الدّستور المشرّع من قبل الجميع، حيث لا تغييب ولا إقصاء ولا حرمان"[114].

[114] المصدر السابق، ص 140.

فقيمة الاعتراف لها من الأثر النفسي والمعنوي ما يكفي لقبول التحدّي وخوض الصّعاب من أجل ما يفيد وينفع، وفي المقابل عدم الاعتراف بالتميّز يؤدّي إلى إحباط نفسي ومعنوي يعيد المتحدّي إلى المربّع الأوّل وكأنّه لم يكن كما كان عليه.

الاعتراف مؤسّس لقاعدة (نحن سويّا):

مع أنَّ قاعدة (نحن سويّا) مُعطية إنسانية أخلاقية، إلّا أنّها في بعض الأحيان لا تسود داخل الوطن، ولا تسود بين الأنا والآخر، ذلك بأسباب امتداد الأنا على حساب الحيِّز الخاص بالآخرين؛ فتصبح المضايقات، في الحركة والسّكون، والمأكل والمشرب، والمنام والصّحوة، ممّا يدفع المختلفون والمخالفون على المستوى الدّاخلي، أو الخارجي إلى إعطاء التنازلات، بداية من أجل تفادي المؤلم، ثمّ من أجل اغتنام الفرصة عندما تتاح إلى أن يتمّ نيل الاعتراف سياسة واقتصادا واجتماعا.

إنَّ قاعدة (نحن سويّا) قاعدة مؤسّسة على بناء الذّات العامّة، التي تنشأ وتمتدّ في المجال العلائقي الاجتماعي، ثمّ تنمو في الضمير جنبا إلى جنب مع نمو العاطفة، وتتّسع مع اتساع دائرة المعارف على مستوى الأسرة، والقرابة، والجيرة، والأصدقاء، وبني الوطن والإنسانية بأكملها، وعندما تتوقّف ثقافة الفرد عند حدّ المستوى

الذاتي وتقف عنده، ولا تتطلّع إلى معرفة ما هو أوسع وأكبر، عندها تتمركز شخصية الفرد على الذاتية، ولا تفكّر في غيرها.

ولكن عندما تنفتح الذّات على الآخرين، تصبح ذاتا معترفة بالآخر، ومتطلّعة إليه، تبادله علما، وثقافة، ومعرفة، وتجربة، حتى تصبح الشخصية الذاتية على صفة جديدة تتجاوز التوقّف عند حدود الذات، إلى المستوى التطلعي؛ فتصبح صفتها الجديدة (تطلّعية).

ولذلك؛ فعندما يعترف الأنا بالآخرين، يصبح لسان حالهم مشتركا في الضمير (نحن) كما هو حال نحن العرب، وحال نحن المسلمون، أو نحن الأوربيون، أو نحن بنو آدم، وهكذا لسان حال كلّ جماعة أو شعب بينهم روابط مشتركة.

وعليه؛ فالمنطق الذي جعل لسان حال الشّعوب والأمم، لسان حال خصوصياتهم، هو الذي جعل منهم أطرافا متواجهة في الضميرين (نحن) أم (أنتم) وبخاصّة إذا ما تمسّك كلّ طرف بخصوصيّته على حساب خصوصية الطّرف الآخر.

فالاعتراف بالآخر (المختلف أو المخالف)، يحرّر الإنسان من أطماع نفسه ومظالمه، كما يحرّره من أطماع الآخرين ومظالمهم، سواء

أكان الآخرون من بني الوطن، أم أنّهم من خارجه، ولذا؛ فبالاعتراف لن يسود منطق التهميش الذي منه:

. أنا فقط.

. أنا أملك ما أشاء، وأنت لن تمتلك شيئا.

. أنا الزّعيم، ولا زعيم معي.

. أنا الرّئيس، وغيري تابعون مرؤوسون.

. أنتَ مغيّب ومُقصى، وأنا السيّد وحدي.

. أنا نقرّر، وأنت تسري القرارات عليك.

. أنا أُحاسب ولا نحاسب.

. أنا من حقّي أن أغضب، وأنت من واجبك امتصاص غضبي.

. أنا عندما أمتدّ كما أشاء، ليس لك بدّ إلّا أن تنكمش.

. أنا عندما نقصيك، عليك بالصّمت.

. أنا عندما نعزلك سياسيا؛ فلا نقاش.

إنّ مثل هذه السياسات هي التي أنتجت بين النّاس الظّلم، والقهر، والخوف، كما أنّها أشعلت نيران الغضب في الأنفس، وجعلت من البعض تحت الاضطرار يقولون ما لا يفعلون، وجعلت من الخائفين يعملون سرّا وعلانية من أجل استبدال الواقع المؤلم، بواقع آخر شافي من الآلام حتى وإن كانوا الضحيّة، وهذه السياسات هي التي جعلت من الأجنبي ترقّبا متحيّن الفرص المناسبة، لغزو الأوطان واحتلالها، وسلب خيراتها.

وهكذا، سيظل الألم سائدا بين النّاس شعوبا وأمما، إلى أن يصبح الاعتراف بينهم قيمة سائدة، تسمح بالامتداد إلى النّهاية، دون أن يكون امتدادا على حِساب الآخر.

إنَّ الاعتراف قيمة حميدة بين النَّاس الذين كلّ منهم يُقدّر الآخر اعترافا بأنّه معطية إنسانية لا ينبغي غض النّظر عنه، بل يجب الأخذ بيديه ليكون مشاركا، وفعّالا، وواعيا بما يجب، وما لا يجب، ممّا يستوجب تقدير الأنا للآخر في الزّمان والمكان المناسبين للأداء والفعل، سواء أكان إقداما، أم تجنّبا وإحجاما.

ومن ثمّ؛ فالاعتراف بالآخر دليل انعدام الإقصاء والتغييب والهيمنة، ولكن إن سادت قيم عدم الاعتراف ساد في المقابل الإقصاء والتغييب والعزل السياسي، وإن سادت هذه القيم بين النّاس تحت أيّ مبرّرٍ ساد العناد والإفساد والتحدّي والمواجهة، وإن

سادت هذه القيم السّلبية، سادت بينهم الفرقة والتشتت، والانقسامات، وتجزئة الوطن بأسباب الخلاف دون مراعاة المتخالفين لما يجب، والأخذ به[115].

الاعتبارُ نيل:

الاعتبار منبع من منابع الأمل الرّئيسة؛ إنّه قيمة أخلاقية لإظهار المكانة، التي لا تُمنح إلّا لمن يستحقّها من الأفراد والجماعات والمجتمعات؛ فلا يجب الإغفال أو غضّ النّظر عمّن هو ذو مكانة اجتماعية، أو علمية، أو نفسية، أو أخلاقية؛ فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى، ولذلك؛ فالقاعدة تقول: (اعتبرني أعتبرك، وإذا تجاهلت وجودي ليس لي بدّ إلّا أنْ أتجاهلك).

ولأنَّ الاعتبار قيمة حميدة، يجب أن يُفخّم حتى يتمّ الاتّعاظ به، ومن ثمّ به يتمّ توليد القدوة الحسنة من القدوة الأحسن منها؛ فنيل الاعتبار قيمة تربط الإنسان بالحقائق، كما تربطه بما يجب الأخذ به، وبما يجب الانتهاء عنه، وما يجب تجنّبه.

ومع أنّ الجميع يأمل الاعتبار، لكنَّ نيله لم يكن سهلا؛ فلا يناله إلّا القدوة الحسنة، ومع أنّ الاعتبار قيمة حميدة، ولكن الظّالمين إن انفردوا بالقمم السّلطانة وأصبحوا رؤوسها، سنّوا قيما لتمجيد

---

[115] المصدر السابق، ص 156 . 160.

ظلمهم وطغيانهم، وتفرّدهم بالأمر سياسة واقتصادا؛ فهم إن انفردوا طغوا، وبطغيانهم يقوِّضون كلّ القيم التي تفسح مجالات ممارسة الحرّية أمام الاختلاف والتنوّع، وعلى رأس هذه القيم القابلة للتقويض قيمة الاعتبار، التي تستوجب أن يقف الجميع دون المساس بحريات الجميع. ومع ذلك؛ فالنّاس بما يختلفون به من خصوصيات هم يأملون بأعمالهم وأفعالهم التي تؤخذ العبر منها من نيل الاعتبار، وفي المقابل إن قوّضت هذه القيمة الخيّرة؛ فهم يتألمون.

فقيمة الاعتبار تعدُّ منبعا من المنابع الأخلاقية الرّئيسة التي بها يتمّ الاسترشاد بمن لهم مواقف وسلوك قدوة؛ فتؤخذ العبرة من تلك المواقف والشّواهد التي يحملها التّاريخ في صفحاته.

ومع أنَّ خير المعتبرين هم صنّاع التاريخ، إلّا أنّ الذين يتمكّنون من القمم السّلطانة في أوطانهم بغير حقّ، لا يقبلون ذلك، فهم لا يرون لصنّاع التاريخ اعتبارا ولا مكانة، ذلك لأنّهم لا يقبلون أن يكون أحد أكثر اعتبارا منهم، حتى وإن كان المعتبرون من الأموات، ولهذا يبذلون ما في وسعهم من أجل طمس ما يتركه الأبطال من تاريخ، في مقابل أن يقدّموا أنفسهم صنّاعه ولا أحد سواهم.

ولأنّهم كذلك؛ فلا يوجد في قواميسهم مفردة لغويّة بها يمكن أن يعطى الاعتبار لمن يستحقّه؛ ومع أنّ الاعتبار قيمة تُظهر المكانة،

وتُعطها لمن يستحقّها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولكن هذا ما لم تقبله القمم السّلطانية الظالمة، أمّا الشّعوب بقيمها الحميدة؛ فلا تغفل، ولا تغضّ النّظر عمّن هو ذو مكانة اجتماعية، أو علمية، أو فكرية وأخلاقية؛ فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تخفى.

وعليه؛ فالاعتبار يؤصّل القيم والفضائل حقائق ثابتة في الأقوال، والحِكم، والأفعال، والأعمال، والسلوكيّات البشرية، وبها يتمّ نيل الاحترام والتقدير من الذين ساهموا في غرسها، أو أنَّهم في حالة تماثل قيمي مع من تُكوِّن كبرياءهم[116].

ولأنَّ الاعتبار قيمة؛ فبه يتمّ الاتّعاظ وأخذ العبر من التَّاريخ، وما تُقدّمه الحِكم من مواعظ حسنة؛ فأولو الألباب وأصحاب البصائر هم الذين يعتبرون، وهم الذين يجب أن يعتبروا، لأنّهم قادرون على بلوغ المعرفة الواعية التي بها يتمّ التميّز والتمييز الحقّ.

ولأنّهم أولو الألباب فهم الذين يتذكرون فيعتبرون مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[117] وقال تعالى: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[118].

---

[116] المصدر السابق، ص 151.

[117] البقرة 261.

[118] الحشر 2.

وعليه؛ فالاعتبار لا يكون إلّا بحُسن الخُلق، والقدوة الحسنة، في القول والفعل، والعمل، والسلوك، ولكن إن لم يعتبر البعض بعضا؛ فإنَّ فقدان الاعتبار، يفسح مجالات الرّفض، والتمرّد، والثورة التي تمكّن الرّافضين للظلم من بلوغ الحلّ، الذي به يتمكّنوا من ممارسة حقوقهم، وأداء واجباتهم، وحمل مسئوليّاتهم؛ فيتخلّصون من ذلك المؤلم سياسيا، ونفسيّا، واجتماعيّا، واقتصاديّا، وذوقيّا[119].

فالاعتبار قيمة حميدة يؤدّي إلى سيادة الاحترام المتبادل، ويؤدّي إلى التقدير المتبادل، ويؤدّي إلى التقبُّل المتبادل، ويؤدّي إلى الاستيعاب المتبادل، ومن ثمّ؛ فيؤدّي إلى التفاهم والتفهّم ورسم السياسات، والعمل على إنجاز الأهداف وبلوغ الغايات المشتركة بين النَّاس أفرادا وجماعات.

الصراع على قاعدة الاعتبار:

يوفّر التحدّي حافزا قويا لأيِّ شعب من أجل التطلّع المعرفي والثقافي والحضاري الذي يفضي إلى الحرّيّة، وبهذه المعطيات تبدأ كتابة صفحات التاريخ الإنساني، وذلك بتوفّر دوافع التحدّي، والمواقف ذات الأهداف الواضحة من خلال استنارة العقل الذي

[119] المصدر السابق، ص 154.

يطغى على ظلام الجهل، والعمل على استثارة كلّ ما يمكن أن يجعل الحياة أفضل ممّا هي عليه.

ولهذا؛ فإنَّ سكوت المجتمع عن طغيان السّلطان، هو نوع من الحِلم الاجتماعي الذي يُعطي نفسه فرصة التفكير، والتريّث، في إيجاد البدائل الموصّلة إلى كرامة الحياة البشرية، التي يثبت من خلالها إنسانيته، وفي الوقت نفسه تمنح السّلطان فرصة التأمّل والمراجعة، ذلك أنّ الحِلم الاجتماعي أعقل بكثير من القوانين السّلطانية، لأنّ السّلطان إذا داهمه خطر قد ينجو بنفسه، وأمّا إذا داهم الخطر الشّعب المحكوم بالسّلطان؛ فقليل هم النّاجون، ولهذا السّبب تكون قاعدة السلّم السّلطاني أعظم إدراكا لتاريخها، وحضارتها، ومستقبلها من قمّته التي يجب عليه أن يستمدَّ منها الاعتبار والتقدير.

إنّ وعي قاعدة الاعتبار ونفاذ بصيرتها في القضايا الاجتماعية والإنسانية، ونهمها في الاطلاع على التراث الفكري استنادا إلى العمق الحضاري، يثري معرفتها بالأحكام السّلطانية، أكثر من القمّة بدرجات الأمر الذي يجعل قاعدة الاعتبار تبصر الحقيقة على أنّها صيرورة نهائية متكاملة تتبلور في وعيها، حتى إنّ الشّعب نفسه يندهش في أوقات كثيرة من أنّ هذا الوعي يتكوّن في داخله، بما يشبه الارتشاح العقلي والفكري لحضارته تساميا نحو الفضيلة، وهذا الارتشاح المتسامي، يتمّ بوعيه دون وعي، ولكن عن إرادة منه،

بحيث تصبح الأفكار تتجمّع في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ومن ثمّ يضمّها الذّهن الجمعي بعضها إلى بعض، في عملية تنظيم ومنهجية لكلِّ الشذرات من المعلومات التي لها علاقة بالقضايا المستقبلية من استمداد حضاري؛ فيتنامى الموقف في ذلك الذّهن ليصبح عملا حضاريا متكاملا، تتّضح معالمه رويدا، رويدا، بكلِّ ما تحتويه من عناصر الاكتمال، وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكلِّ في توازن لا يخلّ جزء منه بجزء آخر، ومتوازن مقتصد بلا خلل.

وعليه؛ فإنَّ الاعتراف بالاختلاف، مع الأخذ به من أجل الأفضل والأجود، هو دليل إثبات الاحترام والاعتبار المتبادلين بين المختلفين. أمّا الخلاف مع من لا يجب الاختلاف معهم؛ فلا يزيد المخالف لما يجب إلّا تقليل شأنٍ. وهنا؛ يتضح الفارق بين الاعتبار الذي به يقدّر الأفراد والجماعات، وبين تقليل الشّأن الذي به يفقد الإنسان قيمته التي ينبغي عليه أن يكن عليها معتبرا؛ فقيمة الاعتبار يجب أن تعظّم بين النّاس، حتى يحفّز النّاس بعضهم بعضا عليها؛ فيتنافسون[120].

[120] المصدر السابق، ص 163 . 168.

التقديرُ نيل:

التقدير قيمة في مقابل مطلب نتيجة دور أو مسئولية أو اتخاذ موقف يستوجب التقدير، والتقدير هنا ليس المادّة، بل القيمة المعنوية التي بها تعظّم المواقف، ويقدرون أصحابها؛ ولهذا فالنّاس يختلفون بين مقدّرٍ ومقدَّر، ومن هنا؛ يعدّ التقدير منبعا من منابع بلوغ الأمل حيث الجميع يرغبه ويأمل نيله.

ولذا؛ فأمر الاختلاف والخلاف بين النّاس يتعلّق بالخُلق والمعرفة معا، وهذه لم تكن لدى الكائنات الأخرى؛ ولهذا تنمو الاختلافات بين النّاس من أجل الأفضل، وتشتدّ الخلافات بينهم بما يتمكّنون منه تذكّرا، وتدبّرا وتفكّرا وذلك من أجل الأهم والأعظم.

وهنا، لا ينال التقدير إلّا عاقل يميّز بين ما يجب، وما لا يجب، وعندما يميّز بينهما، يستطيع أن يَقدم على ما يجب، ويستطيع أن يتجنّب ما لا يجب. وهنا يكمن الاختلاف والخلاف كما يكمن التقدير.

فالعاقل بسداد رأيه، وحكمته، وحُسن أدائه، واستنارة علمه ومعارفه، يستطيع نيل التقدير من الآخرين إرادة، وهكذا من يقدّر النّاس يقدّر، ومن لم يُقدَّرهم لا يقدّر، وكلّما سادت قيمة التقدير بين النّاس أفرادا وجماعات ومجتمعات امتدّت بينهم جسور المودّة، والاحترام، والتعاون والتفاهم، والتفهُّم.

وعندما يسعى الإنسان تجاه الآخرين لنيل التقدير بما يقدم عليه من عملٍ رفيع، أو بما يقدم عليه من أداء واجبات بتفوّق، ولم ينل مسعاه، ستكون ردود أفعاله تجاه المجتمع سالبة (انطواءً، أو انسحاب، أو أنانية)، ولهذا، كلّ شيء يؤسّس على الإرادة، تكون نتائجه مرضية لفاعله، حتى ولو كانت نتائجه سلبية، ممّا يجعل المفسد، يُفسد في الأرض إرادة، بأسباب ردود أفعال عدم تقدير ما أقدم عليه، أو عدم تقدير ما قام به من عملٍ يختلف أو يخالف ما قام به الآخرون من أعمال، ولكن عندما يبلغ الحال إلى هذا المستوى الذي لا يُميّز فيه المجِدّ من المهمل، والمصلح من المفسد، تصبح صفة الإفساد هي السائدة، فتسوء الأحوال بين الأفراد والجماعات، كما تسوء مؤسّسات الدّولة أيضا؛ فتنقلب الأحوال فيها من الجدّ إلى التسيب، ومن الاهتمام إلى الإهمال، ومن التقدّم إلى التخلّف، ومن الموضوعية إلى الأنانية.

ولكن عندما يصل الأمر إلى هذا المستوى ويعمّ الألم، تنتفض الشّعوب من آلامها وأوجاعها؛ فتثور على ما ألمّ بها من آلام من أجل أن تنهض، وتتغيّر أحوالها، وتبلغ غاياتها، وهكذا هي سُنن الحياة تتبدّل ومنابع الأمل لا تنضب.

ولأنّ التقدير قيمة حميدة؛ فيسعى العاقل المدرك إلى نيله من العقلاء، ومن أجل نيله يدرك أنّ الموت ثمن في سبيل تحقيقه يمكّن من بلوغ الحياة مرّتين:

المرّة الأولى: أن يكون قبول الموت ليس تهلكة، ولكن من أجل أن يصبح التقدير سائدا بين النّاس من بعده درسا، وعبرة لمن أراد أن يكون مقدّرا في شخصه، أو عمله، أو أن يكون مقدّرا في جهاده واستشهاده.

المرة الثانية: أن يكون الموت في سبيل الله كما هو الحال عند المسلمين من أجل الفوز بالحياة الباقية في دار الخلود.

ولذلك يتحوّل الموت إلى قيمة عالية تنال التقدير، وبخاصّة عندما يكون الموت عملا يرجو من ورائه الإصلاح، أو تحرير الوطن، أو صدّ خطر يحاك ضدّه، أو ضدّ الشّرف، أو الدّين، أو القيم الحميدة والفضائل الخيِّرة.

وعليه؛ فإنَّ الموت (السّلبي) – الذي هو فرار من الموت (الإيجابي)– هو موت بلا ثمن؛ فمن أقدم عليه ضل، ذلك لأنَّه لم يكن قيمة حميدة، ولا يُحقِّق تقديرا.

نيل التقدير لا يكون إلّا بما يُبذل من جهد جاد ومتميّز تجاه الأنا والآخرين؛ فالآخرون عندما يلاحظون ما يبذله الإنسان من

جهد في سبيل الرّقي الأخلاقي، أو الرّقي العلمي والمعرفي، أو في سبيل زيادة الإنتاج، والإصلاح، والإعمار، والبناء بشكلٍ عام، يقدّرونه تقديرا عاليا، وفي مقابل ذلك لا يقدّرون الضّالين، ولا المجرمين، ولا المتكبّرين، الذين يفسدون في الأرض.

ومن ثمّ؛ فإنَّ تعظيم قيمة التقدير منبع الأمل لا يكون إلّا بإظهار كلّ ما من شأنّه أن يُفخّم تلك المعاني المكوّنة للقدوة الحسنة، حتى يصبح المدرس قدوة حسنة، والطبيب قدوة حسنة، ويصبح الأب قدوة حسنة، وكذلك تصبح الأم قدوة حسنة، ويصبح المسئول خير قدوة في الأمانة والنزاهة والحرص على الوحدة الوطنية، وسلامة تراب الوطن، وأمن شعبه، ورأس ماله الدّيني والاقتصادي والثقافي والحضاري.

ولأنَّ التقدير قيمة مأمولة من قِبل الجميع؛ فيجب أن يفخّم ويعظّم حتى يحفّز الجميع على أداء كلّ ما من شأنه أن يمكّنهم من نيله، وبتفخيم قيمة التقدير تتماسك عُرى المحبّة والمودّة بين أبناء الشّعب الواحد، وتقوى حتى ترتقي بأصحابها إلى مقامات الرّفعة المأمولة.

فالتقدير قيمة حميدة، تربط الجهد بالإنتاج؛ ممّا يجعل التسابق على نيل التقدير بكلِّ قوّة، مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخرين بالحركة في ذات الاتجاه، ودون أيّة عرقلة مقصودة، وبهذا،

تتميّز كلّ خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين، وفي مقابل ذلك لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين النَّاس إنْ لم يمارسوا الحرّية.

فالتقدير مطلب يُشبع رغبة، تستوجب من راغبٍ في نيله أن يستشعر بتماثل حاجات الآخرين مع حاجاته ورغباته، وعندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير، يتمكّنان من العيش سويّا ومعا، ومن ثمّ، ينال كلّ منهما مكانة عند الآخر، ممّا يجعلهما يشعران بحاجتهما للبعض؛ فكلّ منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يُستهان بها، أو يُغفل عنها.

والتقدير قيمة حميدة تُمَيِّز من يجب أن يُمَيَّز بما عليه من مكارم أخلاق وقدرات ومواهب، ممّا يجعل لكلّ خصوصيّة خاصيّة تستوجب التقدير والاحترام والاعتراف. ومع ذلك نجد لكلّ قاعدة شواذ، وأكبر الشاذّين الجاحدين، وأكبر الجاحدين الذين يعرفون الحقّ وينكرونه، ثمّ يلبسونه باطلا.

وعليه، تتعدّد الأدوار، والأذواق، وتختلف، وتتنوّع من مجتمع لآخر، باختلاف المعتقدات والأعراف، وفي مجملها تتكامل وتتمّم بعضها البعض بمختلف أساليب إشباعها، وهذا التنوّع والتعدّد في الحاجات يجعل الأنا والآخر في مستويات غير متساوية إذا لم تُقدّر هذه الحاجات ومشبعاتها من الطّرفين المختلفين.

الاحترامُ نيل:

الاحترام منبع قيمي يمكن النّاس من التواصل والاستمرار به وكأنّهم أخوة، وهو منبع أمل يرجوه الجميع، ويأملون نيله من بعضهم البعض، وذلك بما يُثبّت علاقاتهم على الفضيلة وحسن المعاملة، وإظهار التواد بينهم وكأنه الغاية المأمولة.

ومع أنّ النّاس مختلفون فيما بينهم، لكن لهم من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة ما يجمعهم ويوحّدهم احتراما، ولأنّ الاختلاف قيمة إنسانية، فَلِمَ لا يتمّ احترام المختلف بين المختلفين من النّاس؟

ولسائل أن يسأل:

وما هو المختلف بين النّاس؟

أقول:

كثير، متعدّد ومتنوّع، ولهذا؛ فأنا غير أنت، وهم غير أولئك، فأنا الذي أمتلك حرّية، غير (أنت) الذي قبلت بالعبودية، وهم المنحرفون عن القيم الحميدة والفضائل الخيّرة، غير (نحن) أصحاب الفضائل والقيم الحميدة، وأولئك الظلمة، غير هؤلاء المقسطين والمنصفين بين النّاس عدلا.

ولأنّ أمر الحياة بين النّاس مؤسّس على الاختلاف والتنوّع؛ كان من الواجب على النّاس احترام المختلف والمتنوّع، وذلك لأجل أن تصبح الحياة بينهم مؤسّسة على المحبّة والمودّة، كما ينبغي أن تكون مؤسّسة على المشاركة والتعاون والتعارف.

الاحترام قيمة حميدة يسعى النّاس إلى نيله بما يقدمون عليه من أفعال وسلوكيات وأعمال تستوجب احترام القائمين بها، والكلّ يرغبه، ممّا يجعل التنافس بين النّاس بهدف نيل الاحترام الذي لا يكون إلّا بإثبات الذات على حُسن القول والفعل والعمل والسّلوك، ومن ثمّ؛ فالاختلاف تنوّع في ذاته يستوجب احتراما به تقدّر الخصوصيات.

أمّا الخلاف؛ فأمره في كثير من الأحيان يؤدّي إلى الآلام، والتأزُّمات، ولكن بعضه يؤدّي إلى الرّضا، ولأنّه كذلك؛ فَلِمَ لا يتمّ احترام المخالف، سوء أكان مخالفا لك في القول، أم العمل، أم الفعل، أم السّلوك؟ أي: ولِمَ لا يكون الخلاف مع من يريد أن يُقرّ ظلما، أو يرتكب جريمة، أو يقتل نفسا بغير نفسٍ، أو يريد أن يزوّر حقيقة، أو يحتكر ثروة، أو يحتلّ وطنا، أو يستعبد آخرين؟

ولهذا؛ يعدّ الاحترام قيمة بها يتمّ مراعاة مشاعر ومكانة المختلفين والمخالفين، وتفهّم ظروفهم المتعدّدة، والمتنوّعة سياسيا، واقتصاديّا، واجتماعيا، ونفسيا، وثقافيا وذوقيا كما يتم تفهّم

قدراتهم، واستعداداتهم، وإمكاناتهم التي تؤهلهم للأخذ بما هو محترم ومقدّر.

ولسائل أن يسأل:

هل الاحترام يُعطى، أم يُنتزع انتزاعا؟

أقول:

الاحترام يُفرض فرضا من قِبل صاحبه الذي يودُّ أن يكون عليه مقدّرا لدى الآخرين؛ فالاحترام لا يُعطى، ولا يوهب من أحدٍ، بل الاحترام قيمة بين النّاس المختلفين يتمُّ نيله بما يقال، ومتى يقال؟، ولمن يقال؟، وكيف يقال؟، ثم بالفعل الذي يُفعل عن بيّنة وقناعة دون مظالم ولا مفاسد.

ومع أنَّ الاحترام في أساسه قيمة أخلاقية، لكن بعض النّاس لم يسلكوا سلوكا يليق بمكارم الأخلاق، ولهذا، يصبح الاختلاف والخلاف معهم ضرورة أخلاقية.

ولأنَّ نيل الاحترام غاية يأملها الإنسان، سواء أكان أبا، أم أمًا، أم مسئولا، أم في أيّ مكانة، وفي أيّ مكان؟؛ فهو لا يتحقّق احتراما إلّا بمعطيات تُعدّ العدّة المادّية والأدبية والأخلاقية من أجلها، وصولا إلى الغاية بأسبابها؛ ممّا يجعل الاحترام المتبادل غاية، من بلغها، بلغ مأمنه الذي يرتضيه لنفسه، كما تقرّه الشرائع الخيِّرة.

ومن الذي يستحقّ الاحترام؟

أقول:

المقدّر لنفسه، والمقدِّر للآخرين، وهو الذي لا يقدِم على فعلٍ فيه مهانة للنّاس، ولا لفضائلهم الخيّرة وقيمهم الحميدة، وهو الذي لا يصمت على حقّ يجب أن يقال، ولا يكتم شهادة يجب أن يُدلى بها، أمام من يحكم بين النّاس بالحقّ، ولا يظلم أحدا؛ فالخلاف بين النّاس يؤدّي إلى افتراق الطّرق، أمّا الاختلاف بينهم فيؤدّي إلى التقائها. ولكن، هل دائما يتحقّق الاحترام بين المختلفين، ولكلّ أحدٍ من النّاس؟

أقول:

ليس دائما، بل في كثيرٍ من الأحيان الضّعفاء والفقراء يُحرمون من نيل الاحترام من الذين يمتلكون القوّة؛ فعلى سبيل المثال، الدّول العظمى التي تمتلك أسلحة الدّمار الشّامل، والمحرَّم دوليا، هذه الدّول مع أنّها مُخيفة للضّعفاء، لكنّها لا تُخيف بعضها البعض، حتى وإن ساد اختلاف بينها، ومع ذلك يؤخذ الحذر كلّما ظهر خلاف، ومع أنّه خلاف، لكنّه لن يكون إلّا خلافا باردا، ولهذا، دائما يدقّ جرس الخط السّاخن (الخط الأحمر) بين رؤساء الدّول الكبرى عند كلّ اتفاق، حيث القبول المتبادل، والاحترام المتبادل، مع تبادل

الاختلاف والخلاف؛ ولهذا فالضحايا دائما هم الضّعفاء، أمّا الأقوياء؛ فالاحترام هو السائد بينهم.

وعليه؛ فلن ينال الضّعفاء احتراما من الأقوياء الذين يمتلكون القوّة الرّادعة والقامعة، إلّا إذا امتلكوا القوّة المماثلة لقوتهم، والرّاهبة لهم.

ومع أنّ نيل الاحترام طبيعة لا يكون إلّا عن إرادة حرّة، وأخلاق كريمة، وذوق رفيع، ولكنّ الاحترام في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد ينزع انتزاعا، ولهذا من يمتلك القوّة الرّادعة يستطيع أن ينتزع الاحترام ممّن لم يسبق له وأن احترمه.

وعندما يبلغ الضّعفاء مراتب القوّة، ويمتلكونها، علما، ومعرفة، ومهارة، لا شكّ أنّهم سيصبحون في صفوف الأقوياء من المقدّرين والمحترمين؛ فمثل هذه القوّة المرهبة، تعيد من يمتلكون القوّة إلى إعادة حساباتهم تجاه من لم يسبق لهم وأن جعلوا له وزنا.

ولذا؛ فإن أردنا استقرارا، وأمنا سائدين بين النّاس، أفرادا، وجماعات، وشعوبا، ودولا؛ فعلينا أن نحترم بعضنا بعضا دون اللجوء إلى القوّة المرهبة والمرعبة للأنفس البشرية، حتى يتمكّن الجميع من فتح آفاق التواصل، والاستيعاب، والمحبّة، قوّة أخلاقية، دون اعتداء ولا مظالم.

وعليه، قد يتساءل البعض:

متى تكون العُدّة بين المختلفين والمتخالفين مخيفة؟ ومتى تكون مُرهبة؟

أقول:

العدّة مخيفة من حيث كون قرار استخدامها بشري، ولهذا؛ فالخوف لن يكون من العُدّة، بل الخوف من البشر الذين يظلمون ويحقدون ويكرهون ويُفسدون ويسفكون الدّماء في الأرض بغير حقّ.

أمّا مِن حيث كونها مُرهبة؛ فهي بما تُلحِقه من دمار وفتك بالبشر، وما يمتلكون؛ فالقنابل مُرهبة، والصّواريخ مُرهبة، وكلّ ما من شأنه أن يترك دمارا هو مُرهب، ولذا؛ فإنَّ إعداد العُدّة لردع الظّالمين والمفسدين يرهبهم، كونهم أكثر من يعرف ما ستتركه العدّة (القوّة) من مخاطر ودمار، وبخاصّة أنّ العُدّة في حالة تطوّر سريع مع تطوّر العلوم والمعارف، ولذلك؛ فمع تطوّرها يتضاعف دمارها؛ فالدّول الكبرى الممتلكة لأسلحة الدمار الشامل، هي أكثر خوفا ورهبة ممّن يحاول الالتحاق بها في هذا المضمار النّووي.

ولأنّها على هذه الحالة النّفسية؛ فهي لا شكّ ستكون خير من يقدّر ويتفهّم ويحترم ظروف من أصبح يمتلك القوّة، أمّا الضّعفاء؛ فالاختلاف والخلاف معهم سيظل من قبل الأقوياء.

التقبّلُ نيلٌ:

التقبّل شعور تجاه الآخرون يمكّن النّفس من الانفتاح تجاههم سواء بمبررات المحبّة، أم بمبررات المهنة التي تستوجب تقبّل العملاء هم كما هم دون أيّ اشتراطات علائقية.

فالتقبّل لكونه منبع أمل فهو قيمة لا تكون متحققة إلّا عن تراضٍ، ولا تكون إلّا بين المختلفين، ونيل التقبّل لا يكون إلّا بالتجاوز عما يُقلق، وقبول النّاس هم كما هم عليه وليس كما يجب أن يكونوا، فما يجب أن يكونوا عليه هو المأمول.

ولأنّ الحياة متكوّنة من المختلف والمتنوّع؛ فمن أجل الحياة الطبيعية للإنسان، وجب تقبّل المختلف المتنوّع، ومن يخالف ذلك، يجد نفسه خارج دائرة التقبّل التي تتّسع للمختلفين والمتخالفين دون استثناء ولا تحيّز.

فدائرة التقبّل استيعابية استدعائية؛ فهي استيعابية، لكونها لا تقصي ولا تستثني أحدا، أمّا كونها استدعائية؛ فهي الدّائرة التي تحفّز المختلفين على المشاركة، والتفاعل؛ فتستدعيهم نفسيا وذوقيا، كما

أنّها تستدعيهم خبرة وتجربة ومعرفة، وبكلّ المغريات الأخلاقية، وتفسح بينهم المجالات الواسعة من أجل أنْ يمتدّ البعض تجاه البعض امتدادا متبادلا، دون أن يكون امتداد أحد الأطراف على حساب آخر.

التقبّل قيمة إنسانية اعترافيه: وفقا لحقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليات تُحمل؛ ولأنّه كذلك؛ فهو المؤسّس على قاعة (نحن سويا) التي تشترط أن يكون التقبّل بين المختلفين والمتخالفين قائما على تقبل كلّ للآخر وفقا لقاعدة (هو كما هو)، وليس على قاعدة (كما ينبغي أن يكون عليه)؛ فما ينبغي أن يكون عليه، هو هدف قابل للتحقّق دون إكراه، وبذلك يتمركز مبدأ حقّ التقبّل على الاعتراف بالآخر، وتقديره، واحترامه، واحترام معارفه، وثقافته، والعمل على تغيير حاله إلى ما يجب أن يكون عليه، ثمّ التطلُّع به إلى إحداث النقلة التي تمكّنه من معايشة المستقبل الذي يأمله.

فمبدأ التقبّل مؤسّس على قيمة الاختلاف؛ فلو لم يكن الاختلاف سابقا على التقبُّل ما كان للتقبّل أهمية وضرورة، ولأنّه المترتّب على الاختلاف، والاختلاف حقّ، إذن، التقبّل هو الآخر حقّ بين من تربطهم علاقات أخلاقية، واجتماعية، وإنسانية.

ولأنّه حقّ؛ فالحقّ يؤخذ، ويطالب به، ويعطى، ويمارس، ولهذا تقبّل الإنسان للإنسان حقّ، ولأنّه كذلك؛ فهو حقّ تبادلي بين المختلفين، أي: كما هو حقّ على الآخر، فهو حقّ له أيضا.

إنَّ حقّ التقبُّل فعل إرادي تكفله القيم الإنسانية، والدّيانات السّماوية، والأخلاق الاجتماعية. ومن ثمّ توجد علاقة تلاحق مستمرّة بين الاختلاف والتقبّل ولن تنفصل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[121]، أي: أنّ الله خلق النّاس على الاختلاف، لهدف واضح وهو التعارف وتقبّل البعض للبعض، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}[122].

والتقبُّل غير القبول، فالتقبُّل قد يكون عن رغبة وقد يكون للضّرورة والحاجة، أمَّا القبول؛ فلا يكون إلّا عن إرادة ورغبة، ولذا؛ فالتقبُّل قيمة معياريّة يؤسّس على استعداد النّفس لإعطاء الآخر قيمة وحيّزا من الاستيعاب، وفُسحة تسمح بالامتداد المتبادل بين المختلفين على الموضوع المشترك، تقديرا لقيمة الإنسان وحقوق المواطنة.

---

[121] هود 118، 119.

[122] الحجرات 13.

ولأنَّ الإنسان مكوّن تركيبي معقّد؛ فله من الأنفس ما يجعل البعض على الطّمأنينة، ويجعل البعض على غيرها اضطرابا، وخوفا، وقلقا، وشُحّا، ولأنّه كذلك؛ فينبغي أن يتمّ تقبُّل المختلفين (همّ كما همّ)، لأجل نقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه من الفضائل، والقيم، والأخلاق، والعمل النافع.

والتقبُّل قيمة أخلاقية وإنسانية تتمركز على الاعتراف بالآخر، وتقديره، واعتباره، وتفهّم ظروفه وحاجاته، واحترام معارفه، وثقافته، وحضارته، ومعتقده، والعمل على تغيير حاله إلى ما يجب، والتطلُّع به إلى إحداث النُقلة التي بها يُصنع المستقبل المأمول.

إنَّ التقبُّل قيمة معياريّة تبادلية بين ذوي العلاقات؛ فكما أنّ التقبُّل حقّ على الأنا؛ فكذلك هو حقّ على الآخر، وحقّ لهما معا، وإن تقبّل الأنا الآخر (هو كما هو) وجب على الآخر أن يتقبّل الأنا (هو كما هو) أيضا، ليعملا سويّا ومعا، من أجل مصالح، وأهداف مشتركة، سواء أكانت المصالح المشتركة بين أفراد الشّعب، أم أكانت بينهم وبين الآخرين من الأمم والشّعوب الأخرى.

فحقُّ التقبُّل فعل إرادي تكفله الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة لكلِّ إنسان حتَّى يتمكّن من ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسئولياته برغبة، {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[123].

بناء على هذه الآية الكريمة؛ فإنَّ قيمة التقبُّل تُعدُّ التزاما تامّا بتقبّل من يؤمن بآيات الرّحمن؛ فمن يقول للنّاس سلام عليكم ليس لهم بدٌّ إلّا أن يردُّوا السّلام بودٍّ وبأحسن منه، وهذا دليل لترسيخ قيمة التقبُّل في نفوسهم، وأخلاقهم المستمدّة من الفضائل الخالدة، المستمدّة من كتاب الله تعالى. ثمّ، أكّدت الآية الكريمة أهميّة قيمة التقبُّل للآخر الذي تاب وأصلح من بعد ارتكابه أفعال سوء بجهالة، وأكّدت على أنّه سينال المغفرة.

ولأنّ التقبُّل قيمة أخلاقية، لإظهار حُسن النيّة، بهدف إصلاحي، ولأجل غاية إنسانية وهي التعارف الممكّن من المشاركة وحمْل المسئولية الجمعية؛ فلا ينبغي أن تكون قيمة التقبُّل حاملة في أحشائها شيئا من الرّفض، أو غض النّظر، أو الإقصاء، والتغييب، والتحقير، والاستعلاء، ولهذا؛ فمن يرى نفسه مصلحا، أو أنّه يريد إصلاحا؛ فلا ينبغي له أن يغفل عن أيّ طرف من أطراف العملية الإصلاحية، من أجل تغيير أحوالهم من سلبيّة، إلى إيجابيّة.

[123] الأنعام 54.

الاستيعابُ احتواء:

الاستيعاب حيّز نفسي يسمح بقبول الآخر بما هو عليه من علل واختلاف مع تقدير ما يختلف به واحترامه، وهو منبع من منابع الأمل التي يأملها النّاس؛ فالاستيعاب لكونه قيمة حميدة لا يكون إلّا بقرار مسبق به يتمّ قبول الغير وتفهّم ظروفهم وتقدير أحوالهم وتقبّل ما يختلفون به أو بما هم به يتميّزون؛ فالاختلاف والخلاف توءمان في دائرة الاستيعاب، لا يقبلان بالرّأي الواحد، ولا الحزب الواحد، ولا الفكر الواحد، كما أنّهما لا يقبلان بأيّ إكراه، أو إقصاء، أو ظلم، أو قهر، أو عدوان بغير حقّ، وبذلك فقيمة الاختلاف والخلاف تزداد أهمية، وضرورة، كلّما ظهر ظلم، أو إكراه، أو حرمان ومع ذلك فأبواب الاستيعاب مفتوحة؛ أي لو لم يكن الاختلاف والخلاف، ما كان للاستيعاب وجود، ولا ضرورة، ولأنّ الاختلاف والخلاف، سابقان من سابقٍ على كلّ سابق؛ فهما لا يكونان مستقلّان عن سابق معهما، وبذلك؛ فهما الرّفيقان للعاقل الذي كان متميّزا بهما، وبالاستيعاب معا.

فالاستيعاب قيمة احتوائية، تعتمد تقبّل المختلف والمخالف، وتعترف بوجودهما، دون أن تتخذ أحدهما غاية في ذاته، بل دائما الغاية من ورائهما هي التقبّل، الذي لا يُفرّق فيه بين أحد وآخر إلّا بحقّ يختلف به كلّ منهما عن الآخر.

فالاستيعاب يُمكِّن أصحابه من الإلمام بالموضوع، كما يمكّنهم من تشخيص الحالة، وبلوغ النتائج القابلة للتطبيق، والتفسير، دون أن يغفل عن الآتي:

. استيعاب الإيجابيات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسّطة، تمكّنهم من التعرّف عليها، وتحفِّزهم على العمل بها.

. استيعاب السّلبيات، وتحديدها، وإبراز عللها، وأسبابها، والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

– استيعاب المختلف والمخالف، واحتواؤهما دون انحياز، ولا عصبيّة، انطلاقا من أنّ الفروق الفردية بين النّاس، هي مكمّلة لبعضها البعض.

. استيعاب المختلف والمخالف، يمكّن من التفاهم، والتفهّم، ومن ثمّ يمكّن من تقويم الأحوال من أجل ما يجب.

. استيعاب المختلف والمخالف، ينهي التأزّمات، والآلام، والأحقاد، والمظالم، ويمكّن من تصحيح المعلومات الخاطئة، بمعلومات صائبة.

. استيعاب المختلف والمخالف يجعلهم في دائرة (نحن سويّا).

. استيعاب المختلف والمخالف، يمكّن من توليد القوّة، وجمعها وتسخيرها لما يفيد، وتوجيهها إليه.

ولهذا، يجب أن يكون الاستيعاب بلا تردّد، والتقبُّل حتى النّهاية التي بها تُدرك الأمور، وتتحسّن الأحوال، وتُبلغ الحلول. ولكن عندما تُفقد أو تنعدم هذه القيم ومثيلاتها، يحدث التفرُّق والصّدام والصّراع، وتتجذّر العداوات بين النّاس، بأسباب التدافع عن غير حقّ.

فالاستيعاب قيمة حميدة يجمع الشّمل، ويُمكّن من إنجاز الصّعب في دائرة الممكن، وهو الممكِّن من الوقوف على نقاط التمركز، والتشتُّت التي تجعل المختلفين على الفرقة والضعف، ممّا يستوجب الأخذ بنقاط الالتقاء واعتمادها جزءا من الحلّ، ونقاط الاختلاف واعتماد تجنّبها جزءا من الحلّ، فالإلمام بالمشكلة، وظروفها المتنوّعة، والمتغيّرة، والمتباينة، والمتصادمة، يُمكّن الجميع من معرفة العلل، والأسباب مكامن الإصلاح والحلول، حيث لا حلّ إلّا ونابع من عِلةٍ، أو سببٍ.

وعليه؛ فالاستيعاب، هو المحفّز والدّافع إلى الحلّ، الذي لا يتمّ بلوغه إلّا بعد خوفٍ يُمكّن منه.

ولسائل أن يسأل:

كيف يمكن أن يكون الاستيعاب، لو اتخذنا العرب مثالا للتطبيق؟

أقول:

العرب مع أنّهم بنو قوم واحدٍ، إلّا أنّهم متفرّقون بين تقي وشقي، وظالم وعادل، وحاكم ومحكوم، وسيدٍ ومسود، وغني وفقير، وقاصٍ ومُقصٍ، ومستقرٍ ومهجّر، ومسلمين ومسيحيين، وسنّة وشيعة، وكرد وتركمانستان، ودروز وأمازيغ، وطوارق وتبو وغيرهم من التنوّع الذي يرسم خريطة الوطن العرب جمالا. ولذا، إنْ أرادت العرب حلّا لمشاكلهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والنفسية، والذوقيّة؛ فعليهم بالاستيعاب الذي لا يستوجب اشتراطات، سوى الجلوس سويّا تحت مظلّة الوطن الواحد للشّعب الواحد، من الحدود إلى الحدود، وطن فيه الحقوق تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسئوليات تُحمْل، والتداول السلمي على السلطة هو العنوان.

أمَّا الاشتراطات؛ فهي عبارة عن مجموعة من الموانع والعَقبات التي توضع من قِبل أحد الأطراف ضدّ الأطراف الأخرى؛ فتحول دون التمركز على قاعدة الاعتبار (نحن سويا)، فيتولّد الإقصاء والتغييب والتهميش، والعزل السياسي، وهذه جميعها تدفع الإنسان

إلى الرّفض والتمرد والتطرّف والثورة التي ليس من بعدها إلّا بلوغ الحلّ.

ولذا؛ فالاشتراطات في كثير من الأحيان مصدرها فوقي، تصدر من أعلى درجة طبقية إلى أسفل درجة على درجات السُلَّم القيمي، وهي إملاءات مانعة للاستيعاب، وتتطلّب تنازلات، ثمّ المزيد من التنازلات كلّما تمَّ قبول لاشتراطٍ من اشتراطاتها، ممّا يخلق حالة من الجفاء لا يكون من بعدها إلّا ما يقطع خيوط الاتصال التي يمكن أن تربط مع الآخر.

فالسّلطان، أيّ سلطان، إنْ أراد له ربيعا مزهرا؛ فعليه بالاستيعاب، الذي يجمع المواطنين تحت مظلّة الوطن ملك للجميع، ولكن إنْ أراد مشاهدة أوراقه تتساقط؛ فعليه بالإقصاء، والتغييب، والتعذيب، والتحقير، والتسفيه، وارتكاب المظالم، ما ظهر منها وما بطن.

وفي المقابل، ستظل قمّةُ السّلطان في الدّولة قمّة، إذا تمّ اختياره برغبة، ووفق عقد اجتماعي، وعن إرادة حرّة، وكان عادلا مقتدرا، يتقبَّل الجميع ويستوعبهم تحت مظلة الوطن الدّافئة، أمّا من يقدمُ على أفعال الإبعاد، والحرمان، للمواطنين بغير حقّ؛ فلا يستغرب إنْ واجهه برد قارس، يجعل أوراق سلطانه تتساقط، كما تتساقط أوراق الخريف.

ولأنّ الاستيعاب قيمة احتوائية، فهو القيمة التي تعترف بالآخر، وتتقبّله مشاركا وطنيا، يمارس حقوقه، ويؤدّي واجباته، ويحمْل مسئولياته، ومن ثمّ لن تُحلّ المشاكل بين النَّاس، إلّا بالاستيعاب الذي يُحفّز على التقارب، ويؤدّي إلى التفاهم؛ أمّا الإقصاء والتغييب والعزل السياسي فلا تؤدّي إلّا للفرقة واتّساع الهوة بين المواطنين.

ولذا، لا تُحلّ المشاكل بين النَّاس إلّا بالاستيعاب، ولا يُصنع المستقبل المشترك إلّا بالاستيعاب الذي يُحفّز على التقارب، ويؤدّي إلى التفاهم، ويمكّن من الاندماج والوحدة، ويحقّق الأمن والعدالة والإعمار والبناء، كما أنّه يؤدّي إلى التسامح والتصالح، ومن هنا؛ فهو منبع أمل.

والاستيعاب لكونه قيمة حميدة؛ فهو المستمدّ من قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[124]،

تبيّن هذه الآية أنّ الاستيعاب قيمة جمعيّة على ثلاثة مراحل:

[124] البقرة 143.

المرحلة الجمعية الأولى: جاءت المخاطبة للأمّة الوسط جميعها لا لفرد، ولا لجماعة بعينها، ولا لطائفة من طوائفها، ولكن كيف يمكن للأمّة الوسط أن تكون مجموعة (وحدة واحدة)؟

بالتأكيد الأمر ليس هيّنا مع أنّ معطية الجمع بيّنة لا غبار عليها؛ فالأمّة الوسط بدون شكّ لا يجمعها إلّا الحقّ البيّن، والحقّ بالنسبة للأمّة الوسط منزَّل تنزيلا، ولأنّه الحقّ من عند الله؛ فهو الثّابت الذي لا يتغيّر، ولهذا ستكون الأمّة الوسط شاهدة على النَّاس يوم القيامة بالحقِّ الذي لا يتغيَّر.

المرحلة الجمعيّة الثانية: جاءت المخاطبة للنَّاس (الجمع المطلق) مصداقا لقوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)؛ فهي لم تستثن أحدا من النَّاس، أفرادا وجماعات، وطوائف وشعوبا، وقبائل وأقواما وأمما، وذلك لأنّ الدّين الذي ستكون الأمّة به شاهدة على النَّاس، هو دين النَّاس كافّة، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[125].

المرحلة الثالثة: أنّ الأمّة التي ستكون شهيدة على النَّاس يكون الرَّسول الكريم محمَّد عليه الصَّلاة والسّلام هو الشّهيد عليها، ولأنَّ

[125] الحجرات 13.

الأمّة كلّ الأمّة هي شاهدة على النَّاس؛ فبطبيعة الحال سيكون الشّهيد على الشّاهدين على النَّاس، شهيدا على الكافّة، ولأنّ الرَّسول محمَّدا عليه الصَّلاة والسّلام مُرسل للكافَّة؛ فكيف لا يكون هو الشّهيد على الكافّة؟ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ}[126].

الظّروفُ تفهّم:

تفهّم الظّروف تقدير حال فرد أو جماعة أو مجتمع بأسره، ممّا يستوجب مراعاة ما ألمّ بهم، أو ما هم فيه من ظروف، أو ما يجري من حولهم ويسبِّب لهم آلاما ومواجع، أو ما جعلهم أو جعل بعضهم في مواقف محرجة؛ فيتم تقبّلهم مع التماس المعذرة، ومن هنا يستشعرون أنَّ تفهم ظروفه منبع أمل لمستقبل أفضل.

فالتفهّم معرفة واعية بما يجب ومتى يجب، ومعرفة واعية بما لا يجب، ومتى لا يجب، أمّا الظّروف؛ فهي ما عليه الغير من هموم أو آلاما ومواجع، أو ما عليه من شح أو غيره ممّا يستوجب التوقّف عنده دون أن يكون عائقا في سبيل إنجاز الأهداف المأمولة.

---

[126] سبأ 28 . 30.

ولأنّ النّاس مختلفون؛ فالاختلاف والخلاف من طبائعهم، ومع أنّهما من طبائع البشر إلّا أنّهما لم يكونا غاية في ذاتهما، بل الغاية من ورائهما بلوغ التفهُّم، الذي من بعد بلوغه يتمّ التمكّن من انتهاء ما كان عليه الاختلاف والخلاف.

ولذلك؛ فالعلاقة قويّة وإيجابية بين الاختلاف والخلاف من جهة، وبين التفهّم من جهة أخرى، أي: لو لم يكن الاختلاف والخلاف ما كان للتفهّم أهمية وقيمة. وكلّما ساد التفهّم بين النّاس، أفراد وجماعات وشعوب وأمم، كان وراء ذلك التفهّم اختلاف وخلاف.

وعليه، من يتفهّم ظروف النّاس، يستطيع تقديرهم، ويستطيع أن يحسن معاملتهم، كما أنّه يستطيع العمل على تغيير أحوالهم من تأزّمات، وآلام إلى ما يجب أن يكونوا عليه والأمل لا يفارقهم.

وهكذا، توجد علاقة موجبة بين اللين والمرونة، وبين التفهّم؛ فلا يمكن أن يكون التفهّم في معزلٍ عنهما، فهما قوّتان جاذبتان للآخر، ميلا، وتقبّلا واعترافا وطمأنينة. فالتفهّم من أجل الإصلاح وبلوغ الحلّ يستوعب شطحات الأفراد والجماعات، كما يستوعب تطلّعاتهم وطموحاتهم وكذلك أوجاعهم.

التفهُّم إلمام بالموضوع، لا يتمّ إلّا بعد إلمام بحيثيات الأمر، والظّروف المحيطة به، والمعطيات التي أظهرته على السّطح، أو أنتجته بين الأيدي، وهو دراية عن كثب، ومعرفة تامّة بالأسباب، والعلل، وكذلك المبررات، والخفايا المؤلمة والمفرحة، السّالبة والموجبة؛ فالتفهُّم يتطلّب توفير الوسائل الممكِّنة من النّجاح مع وضوح الأغراض المستهدفة، وما وراءها من غايات.

التفهِّم قيمة حميدة، به يُقدَّر الآخر، ويقَّدر الأمر، أو الموقف، والقضيّة، ولكي يتمّ استيعاب مفهوم كلمة (مُفهَّم) علينا بمقارنة ما تدل عليه، مع مفهوم كلمة (متفهِّم)؛ فالأولى، مُفَهَّم التي تنطبق على النبي سليمان عليه الصلاة والسّلام تدلُّ على أنَّه مُفهَّم من عند الله عزَّ وجلَّ مصداقا لقوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[127]، ولأنّ سليمان كان مُفهَّما لِما يجب في مرضاة الله؛ فقد وهب الله له حُكما ومُلكا، وفهَّمه كيف يملك ويحكم، {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[128].

أمّا التفهُّم؛ فهو المعرفة الواعية بأهمية تقدير الظّروف، التي قد تؤثّر على الملك، أو على سلوك الأفراد والجماعات، ولهذا التفهُّم في

---

[127] الأنبياء 79.

[128] الأنبياء 78، 79.

دائرة الممكن دراية بما ينبغي أن يتمَّ حيال كلّ أمرٍ من الأمور المتعلّقة بالنّاس وشئون حياتهم.

ولأنّ التفهُّم قيمة أخلاقية لربط العلاقات بين المختلفين والمتخالفين؛ فهو القيمة المقدَّرة والمعتبرة بينهما، ولهذا فالرُّسُل الكرام أرسلوا لأقوامٍ وشعوبٍ وأممٍ كافرة ومشركة، ليهدوها السّبيل الحقّ؛ فلو لم يكونوا متفهِّمين لتلك الظّروف، والمعطيات التي جعلت من النَّاس كفّارا ومشركين، ما استطاعوا نشر دعوتهم، والتبشير بها، والتحريض على الأخذ بتشريعاتها، {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[129]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[130].

ولهذا فمن يعمل سوءا بجهالة ثمّ يتوب، يتوب الله عليه، وبما أنّ الله يتوب على التوَّابين؛ فلماذا البعض يحكم على النَّاس أحكام مطلقة؟ فمن أراد خيرا في حياته؛ فعليه بدعوة من يكفر ويشرك إلى الحقّ، أمّا المسلمون فهدايتهم للأخذ بما يجب أمره أكثر تيسيرا إذا ما قورن بدعوة الكافرين والمشركين، ولذا؛ فتفهّم أحوال وظروف البعض التي جعلتهم باقين على الكفر جهالة وكأنَّه وراثة، يؤدّي إلى

---

[129] الأنعام 48.

[130] يونس 99.

التفاهم، وتقدير المتغيرات، والميل إلى الإيمان، ومعرفة كلّ ما من شأنه أن يُصلح الأحوال والظروف ويمكّن من دعوتهم إلى عبادة الله عن رغبة وإرادة، ولذلك فتفهّم الظّروف منبع أمل ولا قنوط[131].

الثّقةُ غرس:

الثّقة لا تكون إلّا نتاج معرفة واعية، ولا تكون إلّا بعد استئناس ودراية بالخفايا التي تُمكّن من كشف الحقائق ومعرفة الطّباع حيث لا شيء مخفيٌّ وكلّ شيء على البلاطة.

فالثّقة لكونها قيمة حميدة، لا تُغرس في أحدٍ إلّا بعد معرفة واعية، ودراية تامّة بما يجب تجاه من تمّت معرفته، ولا شكوك فيه، وفي المقابل الثقة لا تُغرس بناء على رغبة، أو مطلب من أحدٍ، ولكنّها تُغرس فيمن يكون دافئ الجانب ومخلصا في صّدقه، وعمله، ومهنته وخُلقه وعلمه، وفي أفعاله وسلوكياته.

ولأنّ الثّقة لا تسود بين النّاس إلا تبادلا، وعن إرادة حرّة؛ فهي المأمولة من قِبل الشركاء، سواء أكانوا شركاء سياسة، أم شركاء اقتصاد، أم شركاء علاقات اجتماعية وإنسانية.

[131] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، ص 212 . 214.

غرس الثّقة في النّاس يُمكِّن من نيل الاحترام والتقدير والاعتبار، وفي المقابل سحب الثّقة من النّاس لا يمكّن إلّا ممّا يخالف ذلك ويختلف معه، فمن أراد أن ينال احترام الآخرين؛ فعليه باحترامهم، ومن أراد لنفسه أو برنامجه، أو رؤيته نيل التقدير؛ فعليه بتقديرهم، ولهذا؛ فمن يتبنّى مشروعا لإقصاء النّاس بغير حقّ؛ فلا شكّ أنّه قد تبنّى مشروعا يؤديّ إلى سحب الثقة منه، وكذلك؛ من يجبر النّاس على سحب ثقتهم ممن غرست فيهم عن رغبة، بأسباب لا موضوعية، ولا أخلاقية، فهو بهذا السّلوك لن يترك مجالا، أو حتى هامشا، لغرس الثقة فيه.

ولذا؛ فمن يقصي النّاس؛ فهو لا يقبل بثقة تُغرس في سواه، وعندما يصبح الأمر بين البعض والبعض مؤسّسا على: (أنا مصدر الثقة وأنت لا ثقة فيك) فبالضّرورة سيؤدّي الأمر إلى خلاف يدفع البعض إلى إعداد العدّة الممكّنة من المغالبة، أو على الأقل إعادة التوازن.

فالثّقة قيمة حميدة لا تُغرس إلّا في ثابت مقدّر، ولا تُمنح إلّا لصاحب مقدرة على تحقيق المتوقّع؛ فالثّقة عزم وإصرار مع وافر التأكيد على القول الحقّ، والفعل الحقّ، والعمل الحقّ.

فالثّقة قيمة مرضية بين الأنا والآخر عندما لا يكون لليأس محلّ بينهما ليحلّ فيه، ولا محلّ للخيانة والتراجع عمّا يجب التمسّك

به، مع عدم التنازل عن الموثوق فيه. ولكن عندما يتخلّى أحد الأطراف عن الموثوق فيه ويرفضه، تصبح المواجهة بين المختلفين والمتخالفين حتميّة.

ولأنَّ الثّقة قيمة أخلاقية؛ فهي منبع أمل يأملها الجميع بغاية الطمأنينة وإسقاط الظنون والشكوك، والثقة قد تكون على مستوى الشّخصية، وقد تكون على مستوى الموضوع؛ فإنْ كانت على مستوى الشّخصية؛ فهي تتعلّق بالتصرّفات والسّلوك الذي من أساسه هو قابل لأنْ يتغيّر وينحرف عن مرتكزات غرس الثّقة، ممّا يستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة التي تمّ تشرّبها بمعلومات صائبة تعيد الثّقة إلى الشخصيّة.

أمّا إذا كان الأمر يتعلّق بالموضوع؛ فقد يكون الموضوع في حاجة للتغيير حتّى يواكب حركة التغيّر والتطوّر، ومن ثمّ، يسهم بشكل مباشر في معالجة المشكل أو بلوغ الحلّ.

فالثّقة لا تكون إلّا بثبات المعرفة الواعية، المرشدة للحقّ، والمحرّضة على إحقاقه، وهي التي بها تكون القدوة الحسنة، القابلة لغرس الثقة فيها حيث لا وجود للظنون، وبذلك؛ فالثقة مكمن الاعتقاد، والتصديق، والإخلاص؛ فعندما تتوافر بين الأطراف، يتمّ الاستئناس والاطمئنان، الذي يسرّع بعجلة التفاهم، والتفاعل الاجتماعي المفيد؛ فالثّقة تعني ممّا تعنيه إزالة الشكوك من صدور

ونفوس المختلفين؛ وبها تدوم العهود، وتستمرّ العلاقات وتوثّق عُرى الرّوابط بين بني الإنسان.

وعليه؛ فالثّقة حزام أمان للمختلفين، حيثما توافرت بينهم زاد التّفاعل، والتفاهم، والتواصل، والتعاون، واتسعت دائرة المشاركة، الممكّنة من التوافق الذي عراه لا تنفصم. وفي هذا الشّأن يقول المفكّر الأمريكي فرنسيس فوكوياما: "أهم العبر التي نستخلصها من دراسة الحياة الاقتصادية، هي أنَّ إصلاح حال أيَّة أمّة، والحفاظ على قدراتها التنافسية في السّوق الاقتصادية، يبقيان مشروطان بتوافر سمة ثقافية وحيدة وراسخة، ألا وهي الثّقة، ومدى توافرها، وتأصّلها في المجتمع"[132].

ولأنَّ الثّقة قيمة حميدة؛ فهي معطية رئيسة للتوافق ومنبع أمل يجمع ولا يفرّق، وهي ضرورة للتماسك بين المختلفين؛ فعلى سبيل المثال، العلاقة بين الحاكم والمحكوم إن بُنيت على الثّقة، يصبح بها النظام مستقرّا بأمنه، وعدله، وتطوّره، ونظافة يد قمّة سلطانه، ولكن إن لم يكن ذلك متحقّقا على أرض الواقع، حيث وجود المخالف لكلّ ذلك؛ فلا شكّ سيكون الرّفض من الشّعب؛ ممّا يدعوه إلى

---

[132] Francis Fukuyama. Trust: Social Virtues and Creetin of Prosperity 1995 P 9.

سحب الثّقة من الحاكم، ومن ثمّ عزله، ومساءلته، ومحاسبته. وإن رفض سيكون رفضه في مواجهة الرّفض العام؛ فيسقط بالقوّة.

ولسائل أن يسأل:

. ماهي معطيات فقدان الثّقة؟

. وما هي معطيات إعادتها؟

معطيات فقدان الثّقة كثيرة ومنها:

. الخيانة.

. التآمر.

. النفاق.

. الغموض.

. الأحكام المسبقة سلبيا.

. الإقصاء.

. التهميش.

. التغييب.

. الظلم.

. العدوان بغير حقّ.

ومن هنا؛ فإنّ فقدان الثّقة، يدلّ على انعدام المصادق بين المختلفين والمتخالفين؛ ممّا يجعل البعض يفقد الثقة في الحاضر؛ فيكون الخوف على المستقبل على رأس ما يدور في الصدور، وهذا الأمر يحفّز أصحابه على التمرّد والمواجهة والثورة.

إنّ قدان الثقة يعني ممّا يعنيه اتساع الهوة بين الرّغبة والأمل، وهو التباين الواسع بين الواقع والمتوقّع؛ فالواقع عندما يصبح متردّيا لا يمكن أن يكون متوافقا مع الأمل. وبذلك تنعدم الثقة بين من يحكم بغير عدلٍ؛ فيظلم، وبين من انتخبه أو ارتضاه حاكما في فترة من الزمن، ولذا؛ فجميع من يحكم ولا يسمح بالنقد البنّاء، ولا يولي اهتماما بمحاسبة ومسألة ومعاقبة الحكومة، ولا يمتثل للقانون، لكونه أصبح لا يرى إلّا نفسه، أو بطانته؛ فبالضّرورة سيفقد ثقة الشّعب، وسيُسقط به أرضا.

أمّا معطيات إعادة الثّقة فمنها:

الاعتراف بالآخر وتقديره واحترامه واعتباره واستيعابه وتفهّم ظروفه وخصوصيته، ثمّ الأخذ بقيمة العفو والصّفح والتصالح والتسامح مع وافر الأمانة والوفاء والعدالة.

ولهذا؛ فالثقة تعني ممّا تعنيه (نحن معا) و (نحن سويّا) حاضرنا مرضٍ مع وافر الرّغبة، ومستقبلنا كلّ يوم يتجدّد، ورغباتنا مع حاجاتنا المشبعة تتقدّم وتتطوّر، ممّا يجعل المسافة بين الحاضر والمستقبل متّصلة في حركة دائرية، مع حركة الأرض حول نفسها، وحركتها حول الشّمس، ولهذا فأيّامنا كلّ يوم تتجدّد ولا تتكرّر.

ومع أنّ علماء النّفس الاجتماعي قد صنّفوا الثّقة في إطار منظومة التكيّف، إلّا أنّني لا اتفق معهم وأصنّف الثّقة في إطار التوافق الاجتماعي، ذلك لأنّ التكيف لا يسود إلّا بتقديم المزيد من التنازلات كما سبق تبيانه، وهذه لا تؤدّي إلّا إلى نزع الثقة، أمّا التوافق، فلا يسود إلّا بالإرادة وغرس الثّقة.

ومن ثمّ؛ فأمر غرس الثقة السياسية أمر تعاقدي، بين أصحاب القيم والمبادئ المحفّزة أخلاقيا على إدارة الحراك السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والنفسي، والثقافي، والذوقي؛ فالثقة في دائرة الاختلاف والخلاف، تُكتسب اكتسابا، ولا تمنح منحا عبثيا؛ ولأنّها تكتسب؛ فهي لا تّكتسب إلّا بعد معرفة، وتجربة، ودراية واعية، بما يقال ويفعل، وهكذا هي تترسّخ وتقوى بقوّة التمسّك بالثوابت المرضية للنفس، والعقل، والجسد، والقلب، والرّوح.

ولأنّ الثّقة قيمة حميدة؛ فلا تغرس إلّا في الثوابت التي لا عيوب فيها، وفيها محاسن، ولا تمنح إلّا لصاحب مقدرة على تحقيق المتوقّع في دائرة الممكن[133].

[133] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، ص 215 . 220.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 68 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له 83 مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

مواضيع المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مبدئ التنمية البشرية تحت الطباعة.

86 ـ منابع الأمل تحت الطباعة.

87 ـ من الفِكَر إلى الفِكَر، تحت الطباعة.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعية، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له 88 مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية